

الجوع الكبير

الغمة الحائرة على جائرة الأكارمية الفرنسية عام ١٩٣٥

سلسلة
المجائر
العالمية



تأليف : جومهان بوجدر
ترجمة : محمد سعيد النورماشي
مراجعة : علي أحمد

الترجمة والتأليف والترجمة

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

الجوع الكبير

تأليف

جوهان بوجدر

ترجمة : محمد مفيد الشويخ
مراجعة : علي أدهم

دار المصرية للتأليف والترجمة

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

الكتاب الأول

الفصل الأول

لا يوجد إعصار بعصف ، لجرد التخريب ، مثل الإعصار الشمالى الشرقى العظيم حين يزجر خلال ليالى الشتاء الطويلة ، ويسوق أمامه ، بين ضفاف « الفيورد » الصخرية ، كل ما يجرفه تياره ، ويمغض الماء حتى يصبح زبدًا يتوج غوارب الموج للتوئية ، فى حين تقفز القوارب الراسية على طول الشاطئ ، وتدور فى الهواء حتى تقارب أبواب الأكواخ الرمادية التى يسكنها الصيادون . ويقتلع الإعصار معابر الخزن المثينة ، القديمة العهد ، ويقذف بها فى الفضاء فتبدو كطيور ضخمة فوق الحقول . . . وتصيح الفتيات « يارب ! » ، ذلك أن هذا هو أوان حلب اللبن ، وعلين أن يناضلن لشق الطريق إلى حظيرة البقر ، زاحفات على أيدين وركبهن عبر الفناء وهن يجاذبن مصباحا سينطفيء لا محالة ، ودلواً للبن يتعذر حملها . . . وكذلك تغتمن الزوجات المتقدمات فى السن ، وهن جالسات داخل الدور حول المدفئة ، مرددات قولهن « اللهم احفظنا ! » وخواطرهن تصبح بعيدة فى الشمال مع صيادى « لوفون » وهم فى عرض البحر ، ولهم خرجوا إلى عرض البحر فى هذا المساء نفسه .

ولكن « الفيورد » ، فى أيام الربيع الساكنة ، هادئاً ساطعاً بين رأس الأرض والخليج . وعندما يخفض منسوب الماء يظهر عالم الغرائب بأسره ، مكوناً من جزاء صغيرة غريبة ، وضفاف زملية ، وصخور متخلعة ، موشاة بالأعشاب ، شامخة جافة ، تخيلها أحواض صافية الماء ، مخوض فيها الأطفال بأقدامهم العارية فيتطاير رذاذها ، وتطلق فى كل ناحية منها أسماك صغيرة مفلطحة فى حجم نصف القرش . ويمتلئ الجو برائحة الماء المالح ، وبالدفء ، ومضات الشاطئ . ويتأرجح التعمق البحرى فوق صخرة كبيرة فى الماء ، ويرفع فى مرج منقاره الأحمر صوب الشمس ، ويرسل صفيره مررداً « كويب ، كويب ! لقد حل الربيع » .

وفي يوم من هذه الأيام بالذات خرج غلامان في نحو الرابعة عشرة من أحد
أكواخ الصيادين ، وانحدرا مسرعين صوب الشاطئ .

والصبية لا يستغرقهم الاهتمام الشديد أبداً مثلما يستغرقهم وهم مقدمون على شر ،
وقد وضع أن لدى هذين الصبيين عملاً من هذا النوع . وكان « بير تروين » الأصفر
الشعر ، الشاحب الوجه ، يدفع أمامه « عربة بعجلة واحدة » ، وكان رفيقه « مارتن
بروفولك » ، وهو صبي مريب ، منقط بالنخس ، يحمل دلوأ . وتبادلا كلاهما حديثاً
غامضاً مهموساً وهما يلتقيان على مياه البحر نظرات قلقة . وكان « بير تروين » هو الزعيم
بالطبع ، فهكذا كان شأنه دائماً .

وفي العام الماضي اتهم بتدبير حريق الغابة .

وقد أوضح الآن لبعض أصدقائه أن للصبية مثل حق الرجال تماماً في أن ينصبوا
(جبال) الصيد في البحر العميق . لقد تركوهم طوال الشتاء يخطمون بأعمال
الكبار ، فيقطعون الحطب ، ويحملون الحطب ، فلماذا يدعوهم الآن لبحث صيد
الشاطئ الذي لا يفتح لهم أن يحملوا إلى بيوتهم صيداً أفضل من السمك الصغير ،
وسمك « البربون » ، والقدر السخيف ؟ لقد حرم عليهم من الجبال الخاصة بالصيد في
البحر العميق — هكذا كانت الحال — بيد أن الصيد في « لوفوتن » بلغ ذروته ،
ولن يعود أحد من الرجال حتى ينتهي موسم . وعلى ذلك قام الصبية في اليوم السابق
بوضع الطعم خلسة في الجبال الموجودة تحت سقيفة المراكب ، ثم مدوها عبر أعماق
موضع في الفيرد .

أما فيما يتعلق الآن بشباك الماء العميق فهو أنها قد تدفع إلى السطح أسماكاً كبيرة
جداً ، ومفزعة جداً ، إلى حد أن أحداً لم ير مثلها من قبل قط .

ومع ذلك حدث بالأمس أمر يتعلق من نوع مختلف ، فقد وجد الصبية . لفرط
جزعهم ، أنه ليس لديهم أنقال كافية يثبتون بها طرف جبل الصيد الممتد إلى الشاطئ ،
وبدا كمالو أنهم سيضطرون إلى تقص أيديهم من الموضوع بأسره . ولكن بير ،
المتأهب الدهن دائماً ، اهتدى إلى فكرة مبتكرة هي أن يربط أحد طرفي الحبل في
جذع شجرة « شريبن » صغيرة ثابتة في أقصى بقعة في رأس الأرض ، ثم يحمل الحبل

من هناك إلى عرض الفيورد الطلق . ويربط طرف الجبل الأقصى بحجر ، ويرخى من ظهر القارب حتى يغيب في الأعماق الخضر في حين ينطق بهذه الكلمات السحرية : « خست أيتها الأسماك ! » وقد تم الكلام بذلك ، وفي الحق إنه كانت هناك صنارتان تتدليان بالقرب من الأرض عند طرف الشاطئ فيما بين الشجرة والماء . وبينما قد تفيد هاتان الصنارتان في صيد بطة أو أوزة ، فإنه إذا تصادف ومرت بهما ملاح يجذف في الظلام ، وعلق بهما — فقد يجد العلامان عندئذ أنهما أصابا صيداً آدمياً . ولا عجب إذن في أن نراهما يتهامسان في مثل هذا الاهتمام ، ويسرعان إلى القارب .

وصاح مارتن فجأة :

— ها هو ذا « بيتر رونينجن » مقبل .

وهذا هو عضو العصبة الثالث . وهو فتي نحيف ، مبيض الحاجبين ، يتم وجهه على الغباء . وكان يتلعم إذا تكلم ، ويحدث صوتاً عجيباً إذا ضحك : « تشي — هي — هي » . وقد رسب مرتين في الفصول الإعدادية ، على أنه ما فائدة تحصيل الدروس من كتاب ما دام أنه ليس هناك قط من يصبر عليه عند تسميعها ؟

وأنزل ثلاثتهم القارب إلى حافة الماء ، ودفعوه حتى عام ، وتسلقوه وهم يتدافعون ويكثرون من تحريك سيقانهم المكتسية بسر اويل مرقعة . وصاح فتي من الشاطئ :

— هيه — دعوني أحضر أنا أيضاً !

وقال مارتن :

— ها هو ذا كلاوس ؟ هل نسطحبه ؟

وقال بيتر رونينجن :

— لا .

وقال بير .

— أوه نعم ، لنسطحبه .

وكلاوس بروك ، ابن طبيب الناحية ، صبي أزرق العينين ، يرتدى سروالا

قصيراً ، وسترة نوتى . وقد هرب ولا شك من غير استئذان — فهو يتلقى دروساً
فى بيته من مدرس خاص — وسيضربه أبوه بالتأكيد عند عودته إلى البيت .

ونادى بير ، وهو يعد له مجذافاً :

— أسرع .

وتساقه كلاوس . وعملت المجاذيف الأربعة ، المخططة باللون الأبيض ، مصطخبة
عبر الخليج ، مهتزة قليلاً عندما ينتزعها الصبية من الماء بعد أن يضربوا بها . وكان
مارتن يجذف فى مقدمة القارب ، شاخصاً إلى بير الذى جلس بمؤخرة القارب فى مكان
القيادة ، متراقص الحذقين ، ممتلىء المينين بالأعمال الكبيرة التى سيضطلع بها . وتملك
مارتن المسكين بعض الخوف منذ الآن ؛ وهو لم يدرك قط لماذا يجد بير دائماً أعمالاً
يقوم بها هى إثم فى نظر الخالق دون شك ، فى حين أنه سيصبح قساً عندما يكبر .

كان بير فى من قطان المدينة . وقد أرسله ذووه ليقم بأجر عند أحد الصيادين فى
القرية . ولم تكن أمه أفضل مما ينبغى أن تكون . . . هكذا قال الناس عنها ، بيد
أنها توفيت الآن ، وأبوه لابد ، على أية حال ، أن يكون سيداً موسراً ، لأنه يرسل
للفنى عشرة ريالات كاملة كل عيد ميلاد ، وعلى ذلك كان جيب بير عامراً بالنقود دائماً .
ومن الطبيعى إذن أن يكون محط أنظار سائر الصبية ، وأن يتولى قيادتهم فى أمورهم
كافة بحسبانه زعيماً عن حق .

وزحف القارب مجتازاً الصخور الشهب ، وإذا الشاطئ ، والأكواخ التى تعلوه
تزداد على بعد المسافة زرقة وضآلة . ومن بين التلال النائية بدا بيت رينى من خشب ،
أحمر اللون ، يقوم فى وضوح على جدرانهِ البيض .

وها هو ذا رأس الخليج يصلون إليه فى نهاية الأمر ، وهناك ، يقع شجر الشربين .
وتساق بير حافة القارب ، وأرخى طرف الحبل ، ومال الباقون على جانب القارب
وهم يراقبون الحبل حيث يغوص ويتوارى فى الأعماق . . . أى شئ سيطلع به إلى
النور عند صدوره من الماء ؟

وأصدر بير أمره قائلاً :

وبدأوا يديرون شراع القارب .

واتجه القارب عبر « الفيورد » رأساً ، وانسحب معه الجبل الطويل بما يجزره من صنابير مثبتة بإحكام في قاع براميل غير عميقة . وكان قلب بير يحقق بنفسه . وانجذب الجبل بشدة — لأول مرة — وتألفت سمكة تألقاً خفيفاً في أغوار الماء العميق . « بوه ! » هذه ليست إلا سمكة قد كبيرة . وطرحها بير داخل السفينة من فوق الحافة في غير مبالاة . وجاءت بعد ذلك سمكة من نوع الرنجة — وهى في هذه المرة من نوع أسماك المياه العميقة على أية حال . ثم جاءت سمكة من نوع الحنزير البحرى ، وتبعها أخرى وأخرى ؛ وهذه الأسماك ترضى النسوة لأنها لذيذة الطعم ، وللمها تسكت الستهن عندما يعود الرجال إلى بها بيوتهم ولآن يهتز الجبل بشدة ؛ فما السمكة المقبلة؟ وبدأ للعيان ظل أشهب . وصاح بير :

— على بالحطاف .

والتقى به بيتر إليه عبر القارب . وصاح الصبية الثلاثة الآخرون :

— أى سمكة هى ؟ أى سمكة ؟

— تمالكوا أنفسكم . لا تقلبوا القارب . إنها سمكة بياض . وعلى إثر ضربة جانبية من الحطاف ألقى بجسم أشهب غليظ في القارب حيث جعل يتقلب ويلهث ويمض في القاع ألواح الخشب والزاد ، وتقعقع بين أسنانه كسر ما قضمه .

وصاح كلاوس :

— حذار ، حذار ! —

فهو يتفعل دائماً عند ركوب القوارب .

ولكن بير كان يجذب الجبل من جديد . وقد قطعوا الان ما يقرب من نصف الفيورد ، وصعد الجبل من أعماق غامضة لم يسر غورها قبل ذلك ملاح قط . وبدأ جهد بير يظهر في نظراته ، وجلس الآخرون يرقبون وجهه . وسأله كلاوس . « هل

الحبل ثقيل . وأضاف مارتن قوله : « التزم الهدوء ؛ ألا تستطيع ذلك ؟ » قال ذلك وهو ينظر إلى الحبل المنحدر إلى حيث يتوارى في النور البعيد . وكان بير لا يزال يشد الحبل . وأحس أن شيئاً غير طبيعي يهز يديه من الأعماق على ما يبدو . وكان ملمس الحبل غريباً . . . لم يكن ثقله كبيراً . بل إنه لم يشد حتى الشدة الواضحة التي تشدها السمكة العادية . وبدأ كأن يد مارد تجذب الصائد في رفق . . . في رفق شديد . . . لتسجبه من ظهر القارب إلى أسفل . . . إلى الأعماق . ثم حدثت على حين فجأة هزة عنيفة كادت تجذبه إلى جانب القارب . وصاح الثلاثة الآخرون معاً :

— احذر ! ما هذا ؟

وصاح بير :

— الزموا أما كعصمكم في القارب .

وأطاعوه بدافع حماسة النظام المتمكنة من صائدي السمك .

وكان بير يمسك الحبل بإحدى يديه ، ويقبض بالأخرى على عارضة من ألواح القارب . وقذف بقوله مبهور الأنفاس .

— أليس لدينا خطاف آخر ؟

وجذب بيتر رونيبنجن عصا أخرى في طرفها قضيب حديدي معقوف وقال :

— ها هو ذا .

— خذ يا مارتن ، وتأهب للمعاونة .

— ولكن ماذا . . . ماذا علق بالحبل ؟

— لست أدري ولكنه شيء كبير .

وقال ابن الطبيب مولولا .

— اقطعوا الحبل ، وجذفوا طلباً للنجاة .

وعجيب أن يكون جباناً على هذا النحو إذ اركب البحر ، وهو في استطاعة فوق اليابسة

أن يتغلب على من هو في ضعف حجمه .

ومرة أخرى رج الجبل بير رجة كادت تلتق به من القارب . وفكر في حريق الغابة الذى شب في العام الماضى — ولا يلغى بحال أن تلتق على أكتافه تبعة مكروه آخر من هذا القليل . ولنفرض أن الوحش الهائل يسعد إلى السطح ويقلب بهم القارب — وهم بعيدون عن اليابسة بعداً شاسعاً . وأى خطب يكون لو أنهم غرقوا جميعاً وظهر أن الخطأ خطؤه ؟ ... وتحسس سكينه ليقطع حباله الصيد — ثم دفعها ثانية ، واستمر في شد الحباله .

ها هو ذا يقبل — ظل هائل يضطرب خلال الماء . إن الوحش الضخم يدور قاذفا بنفسه ، مرسلا فورة من الفقاع إلى سطح الماء . ومن ثم لون أبيض يسطع ... صف من أسنان بيض كبيرة في الجانب الأسفل . آهآ ! إنه يعلم الآن ماذا صاد ! إن سمكة القرش « الجرنيلادية » هى أضرى وحوش بحر الشمال ، وهى قادرة على وضع حد لحياة بضعة غلمان أو ما أشبهه .

— اثبت الآن يا مارتن ... استعد بالخطاف .

كان الوحش يتقلب الآن على السطح ، والماء يغور حوله . وأخذ ذيله يجلد البحر حتى يحيل الماء إلى زبد . وظهر رأس مديب متلوياً تحت الصنارة . وصاح بير . « الآن » وأصاب الوحش خطافان في نفس الوقت ، ومال القارب على جانب ، وأفسح السبيل لدققة من الماء ، وقفز كلاوس إلى مقدمة السفينة ، ملقياً بعجذافيه ، صائحاً « أنقذنا يا يسوع ! » وفي اللحظة التالية ارتدى من فوق حافة القارب جسم ثقيل في حجم جسم الرجل المكتمل النمو ، وإذا الغلامان يقذفان إلى الناحية الأخرى ؛ وهنا بدأت التسلية الرهيبة . لقد أسقط الغلامان خطافيهما وقفزا حتى يخليا مكاناً لتلك المخلوق ؛ فهناك كان الوحش الضارى الأسود الهائل يرقد هائجاً مأهجاً ، بادياً بفكيه الحادين المتوعدين ، وعينيه الشريرتين المتقدتي الاحمرار . وكان ذيله القوى يضرب الهواء ، ويقذف المجاديف ورزم الأدوات عبر سطح القارب ، وينهش بأسنانه الطويلة ألواح السفلى ، عوارضه الخشبية . وكان بين حين وحين يقفز عالياً في الهواء ليقع من جديد متلوياً في عنف ، صافراً مزبد الفم . وكانت عيناه الجراوان تحدقان في آسريه الوجليين ، متقلتين بينهم واحداً بعد واحد ، وكأنهما تقولان « اقتربوا ... لمسافة قليلة فقط ! »

وكان « مارتن بروفولد » يخشى في هذه الأثناء أن تحطم السمكة قاربهم إربا ، فشهرك سكينه ، وتقدم إليها خطوة ، وومض السلاح ومضة في الهواء ، وتغلغل عميقاً في زعنفة ظهرها ، مرسلادفقة من الدم . وصاح الآخرون : « حذار ! » ولكن مارتن كان قد قفز إلى الخلف بعيداً عن متناول ذيلها الأسود . وبدأت الآن رقصة الموت من جديد . كان الخنجر قد انغمس في ظهر السمكة حتى مقبضه . وسكن شخص خطاف بين عينيها ، وعلق آخر بجنبها — وتطايرت أعمدة القارب الخشبية هنا وهناك في أثر كل قفزة ، واهتز هيكله وتأوه تحت وابل الضربات . صاح بير :

— ستعظم السمكة القارب ، وسنفوس إلى القاع .

وومض خنجره عندئذ ، وفجر سيلا من الدم المنحبس من بين كنفها . ولكن الطمعة كلفته فقدان توازنه — وفي لحظة واحدة تهاوى الجسدان متدحرجين معاً مرة بعد مرة إلى قاع القارب .

وصاح كلاوس ، متعلقاً بمقدمة القارب :

— أوه ، أيها السيد المسيح ! إنها ستقتله ! ستقتله !

ووقف بير الآن نصف وقفة على ركبتيه ، ولكنه إذ بلغت يده جانب القارب لتمسكه أطبق الوحش بفكيه على ذراعيه . وتقبض وجه الفم من شدة الألم ، وكانت أسنان السمكة قميئة ، وبعد دقيقة أخرى أن تنفذ منها . وعندئذ ألقي بيتر رونبنجن بمجذافه في مثل سرعة الحاطر ، وطعن بخنجره الوحش بين عينييه طمعة نجلاء ، واخترق السلاح الجبهة حتى المخ ، وتراخت عندئذ قبضة الأسنان . قال بيتر متلعشماً وهو يترد زاحفاً إلى مجذافه :

— شيطان لعين !

وبعد دقيقة أخرى كان بيتر قد انسحب متخلصاً من ورطته ، وجثا على دعامة القارب الأمامية ، وأمسك بذراعه الجريح من كمه المهلhel في حين كان الدم يتدفق من بين أصابعه .

وعندما كانوا يجذفون وهم في طريق عودتهم إلى بلدهم ، وقاربهم ينوء بثقل

الهيكل الضخم ، توقفوا جميعاً عن التعذيف دفعة واحدة ، وسأل بير :
— أين كلاوس ؟

ذلك أن ابن الطبيب لم يكن يجلس في مكانه ، متعلقاً بمقدمة السفينة .
— عجباً ! ... ها هو ذا ... في القاع !

وهناك رقد الجلف الضخم الذي بلغ الخامسة عشرة ، ويتباهى منذ الآن بعلاقاته
الغرامية ، ويدرس اللغة الألمانية ، ومفروض أن يصبح سيداً راقياً كأبيه — هناك
رقد في أسفل القارب ، عند مقدمته ، مغمى عليه إغماءة شبيهة بالموت .

وارتعب الباقون في أول الأمر ، ولكن بير الذي كان جالساً يغسل جرح ذراعه
تناول دلواً يطفح بالماء ، وصب ما فيه على وجه الغائب عن وعيه . وفي اللحظة التالية
كان كلاوس قد بدأ يجلس ، وأمسك في حالة وحشية بحافة القارب وصاح :
— اقطعوا الحبل ، وجذفوا طلباً للنجاة !

وتصاعد هدير الضحك من الباقين . وتركوا مجاذيفهم ، وتحديثوا عما جرى
مبهوري الأنفاس . ولكنهم اتفقوا ، وهم على الشاطئ قبل ذهابهم إلى دورهم ،
اتفقوا على عدم ذكر شيء عن نوبة إغماء كلاوس .

وظلت مغامرة الفتیان الأربعة المستهترين حديث القرية لمدة أسابيع كثيرة تالية .
وعلى ذلك شعر أولئك الفتیان بأنه ليس ثمة خوف كبير من أن ينالوا ما يستحقون من
ضرب عند عودة الرجال إلى بيوتهم .

الفصل الثاني

عندما أرسلوا بير ، وهو بعد صبي صغير جداً ... إلى تروين الهرم وزوجته ليعيش في كنفهما ، كان قد سبق أن تنقل عدة مرات بين أسرة تبنته بعد أسرة ، على أنه لم يعد يذكر ذلك ؛ وهو الآن فتى من فتيان القرية الطائشين .

يبدو أنه كان منذ وقت غير بعيد صبيّاً مختلياً بنفسه ، يجتر حزنه في عزلة عن الآخرين ... لماذا اعتاد الناس أن يقولوا عنه ، وهم يتحدثون عن أمه الحقيقية « يا له من صبي مسكين ! » لماذا يقولون ذلك ؟ بل حتى بيتر رونينجن كان وقت الغضب يصبح متلعثماً « يا اب ... ب ... بن الزنا ! » ولكن بيتر كان يدعو زوجة تروين الطيبة ، المملوءة الوجه بالبثور « أمه » ، وكان يدعو الزوج المعسوج الساقين « أباه » ، وكان يمد إليه يد العون كلما احتاج إليها سواء في دكان الحدادة أم في قوارب الصيد .

وقد أمضى عهد طفولته بين قوم يعدون الابتسام إثمًا ... قوم عقولهم أظلمت بإظلام ضباب البحر الأشهب من معاناة الفقر ، وترتيل الأدعية ، والخوف من الجحيم .

وفي أحد الأيام ، إذ عاد إلى بيته من عمله حيث كان يحتطب ، وجد الصبية الأكبر منه سنّاً يتهدون ويتأوهون وهم يطعمون وجبة بعد الظهر . ومسح بير العرق من جبينه ، وسأل عن الأمر .

ودفع الابن الأكبر ملعقة ملائى حساء إلى فمه ، وجفف دمع عينيه ، وابتلع الحساء وقال :

— مسكين بير !

وتهد الرجل الهرم ، وقال وهو يضع ملعقة المجوفة في شق بالحائط اتخذه حاملها :

أي نعم صبي صغير مسكين .

وولدت الابنة الكبرى قائلة وهى تنظر من النافذة :

— لم يبق له الآن لا أب ولا أم .

— أمى ؟ ... أمى ؟ ... ؟

وتنهدت المرأة المعجوز :

— نعم ، يا عزيزى ، نعم . لقد ذهبت دون ريب ... ذهبت لتقابل الديان .

وفىءا بعد ، والنهار ينسلخ ، حاول بير أن يبكى هو أيضاً . وأسوأ ما فى الأمر أن كل من فى المنزل بدا أنه يعلم علم اليقين مصير أمه . والأمر المؤكد أن الجنة لن تكون مصيرها . ولكن ، كيف استطاعوا التأكد من ذلك ؟

ولم يكن بير قد رآها إلا مرة واحدة ، وذلك فى يوم من أيام الصيف إذ جاءت ترى المكان . وكانت ترتدى ثوباً خفيفاً ، وقبعة كبيرة من قش ، وأدرك الفقى أنه لم ير شيئاً جميلاً مثلها من قبل . ولم تكتم عن الجيرة أن « بير » ليس ابنها الوحيد ، فلها ابنة صغيرة أيضاً تدعى لوز ، وهى تعيش مع قوم فى إحدى الأبرشيات الداخلية البعيدة . وكانت منشرحة الصدر . وروت حكايات جريئة . وغنت أغانى ليست طاهرة بحال . وهز كبار السن رؤوسهم أمامها — وراقبها صغار السن ، ناظرين إليها بأطراف عيونهم . وقبلت بير عند انصرافها . ودارت أكثر من مرة لتعيد النظر إليه ، وتورد رحبها تحت قبعتها الكبيرة وهى تبسم . وبدا لبير أنها لابد أن تكون دون ريب ألطف مخلوقة فى الوجود .

ولكنها ذهبت الآن ... ذهبت الآن إلى مكان يقيم فيه الكفرة ويكابدون عذاباً رهيباً ، ولا أمل لها فى النجاة إلى أبد الأبدى — ولم يستطع بير أن يذكرها قط إلا وهى ترتدى ثوبها الخفيف ، وقبعة القش الكبيرة ، وتستغرق فى الغناء والضحك السعيد .

ثم آن أوان السؤال : « من ذا الذى سيدفع الآن أجر إقامة الصبي ؟ » حقيقة إن شهادة ميلاده تنص على أن له أباً ... اسمه هولم ، يعيش فى كريستيانا ... ولكن كان من المعروف ، وفقاً لقول أم الصبي ، إنه اختفى منذ زمن بعيد . فماذا يصنعون بالصبي ؟

وحق الآن لم يدرك بير قط إدراكاً حقيقياً أنه غريب هنا برغم أنه يدعو الزوجين
الهرمين أباه وأمه .

وظل يقضى الليلة بعد الليلة مستيقظاً في الطابق العلوى ، منصتاً إلى الحديث
الذى يجرى عنه في الغرفة السفلى ... كانت الزوجة الطيبة تقول بأكية : « لا ، لا ! »
في حين كان الباقون يتحدثون عن قسوة الأيام الحاضرة ، ويقولون إن بير بلغ الآن
من سنه حداً يمكن معه أن يناط به رعى قطع من الماعز في مزرعة من مزارع
شمال الريف .

وعندئذ كان بير يجز فوق رأسه غطاءه الجلدى . ولكن غالباً ما كان يسمع
الكبار ، فيما إذا تصادف أن استيقظوا ليلاً ، زفرات يرددوها شخص وهو نائم في
الطابق العلوى . وفي أثناء النهار كان الفقى يحتل من المائدة أصغر مكان يستطيعه ،
ويأكل أقل قدر يكفى آدمياً . ولكنه كان يستيقظ كل صباح وهو يخشى أن يكون
ذلك اليوم ... أن يكون ذلك اليوم هو الذى سيودع فيه حاضنته ، ويذهب ليعيش
بين غرباء .

ولكن شيئاً جديداً لم يسمع به من قبل دهم الكوخ الصغير القائم على
جانب الفيورد .

جاءت رسالة موصى عليها ، مختومة من كل ناحية بأختام كبيرة على الشمع الأحمر
وخطفها مذهب إلى حد أنه لا يكاد يقرأ . والتف الجميع حول الابن الأكبر لبروه
وهو يفضها — وسقطت منها أوراق مالية بمبلغ خمسين « كراونا » . وصاح الجميع في
دهشة « رحماك يارب ! » أيمكن أن يكون هذا المال مرسلانا ؟ وكان الأمر
التالى هو حل لغز ما فى الرسالة .

ومن ذا الذى لا بد أن تكون الرسالة وردت منه — اللهم أن يكون أبابير ، وإن
كان لم يذكر ذلك فى الكلام الكثير الذى كتبه . لقد جاء فى الرسالة : « عاملوا
الفقى بالحسنى ، وسوف تقسمون منى خمسين كرونا كل ستة أشهر ، واهتموا بأن
توفروا له الطعام والملابس الجافة ، وأن تحافظوا على قدميه من البلل ... الخالص
ب . هولم . كابتن » .

وقالت الابنة الكبرى متلثمة :

— عجباً يا بير .. إنه ... إنه ... إن أباك « كابتن » ... إنه ضابط .

وتراجعت خطوة لتحقق في الصبي .

وقال الابن وهو يشد قبضته على الأوراق المالية ، ويحرق في السقف كأنه يشهد السماء على ما حدث :

— وسنحصل على ضعف المبلغ الذي كننا نحصل عليه من قبل .

ولكن الزوجة المعجوز كانت تفكر في شيء آخر وهي تبسط يديها حمداً لله ... فلم يعد الآن ما يدعو إلى فقد الصبي .

« إطعامه جيداً ! » لا حاجة إلى الخوف من ذلك . لقد أضيف العسل إلى حساء بير في هذا لليوم بالذات ، على الرغم من أنه ليس يوم أحد ، وأعطاه الابن الأكبر جوربين ، وحمله على الجلوس ولبسهما من فوره . وفي نفس هذه الليلة سعدت الفتاة الكبرى إلى بير عندما أوى إلى فراشه ، وغطته بغطاء ليس خالياً تماماً من الوبر كالغطاء السابق ... إن أبله « كابتن » ! هذا يبدو أعجب من أن يكون حقيقياً .

ومفد ذلك اليوم تغيرت الأحوال بالنسبة لبير ، فأصبح الناس ينظرون إليه نظرات جديدة . ولم يعد أحد يقول عنه الآن « صبي مسكين » . وأقلع سائر الصبية عن سبه . وقال عنه الكبار إن له مستقبلاً زاهراً . وأكدوا له قولهم « ستري ، إن أباك هذا سينهض بك . وستصبح قسيساً ، نعم ، وقد تصبح أسقفاً . وفي عيد الميلاد جاءت ورقة مالية ببلغ عشرة « كراونات » ليستحوذ عليها هو وحده ، ويصنع بها ما يشاء . واستبدل بها نقوداً فضية حتى كاد كيسه ينفجر يسراً . ولا عجب إذا بدأ يسير هنا وهناك في شمم ، ويلعب دور الأمير والزعيم بين العلمان . وقد تودد إليه حتى كلاوس بروك ، ابن الطبيب ، وعلمه لعب الورق . ولكنه كان يقول له : « إنك ولا شك لا تقصد أن ترحل وتصبح قسيساً » .

ولكن رغم هذا كله لم يكن أحد يستطيع أن يقول عن بير إنه تعالى على المعاونة في الصيد ، والقيام بعمل مفيد في دكان الحدادة . ولكنه عند تطاير الشرر من الحديد

المتوهج ، كان لا يستطيع إلا أن يرى رؤى خاصة به — رؤى تتطير إلى المستقبل . نعم ، سيصبح قسيساً . وقد يكون آنماً الآن . قد يكون وغداً متوحشاً ، فهو يسب ويلعن أحياناً كما يفعل بعض الجنود ، وما ذلك إلا كي يبدى لسائر الصبية حماسة ما يقال عن انشقاق الأرض وابتلاعك . ولكنه سيصبح قسيساً برغم ذلك كله ... قسيساً لا يشبه بحال قسيسكم ذوى المويينات والبطون الكبيرة ... لا ، إنما سيكون أشبه برسول سماوى يرقل فى ثياب بيض كالثلوج ، وله وجه مجيد . ولعله يستطيع أن يصل حق إلى حد تمكنه من النزول إلى مكان العذاب حيث ترقد أمه ، والصعود بها ثانية إلى الخلاص . وعندما يقف خارج قصره فى ليالى الحريف ، وهو أسقف مجلل شعره بياض المشيب ، قد يرفع إصبعه إلى أعلى فسترسل النجوم جميعها فى الغناء .

وغنى السندان تحت ضربات المطرقة مردداً « كلاج ، كلاج ، كلاج » .

وفى أمسيات الصيف الساكنة يتسلق فريق من الصبية منحدرات التلال العارية متجهين إلى صفوف الأشجار العالية ليعودوا بالبقر ويحلبوها . وكانوا كلما ازدادوا علواً فى تسلقهم ازدادت قدرة أبصارهم على الضى أبعد فأبعد فوق متن البحر . وبعد أن تمر ساعة أو ساعتان ، وتميل الشمس للغروب ، يقبل شريط طويل من أبقار حمر الجوانب تهادى هابطة من المنحدر ، وتحدث بخوارها ضوضاء خافتة تردد فوق القمم البعيدة . وينادى الصبية صائحين « أو هو ... هو ... وو ا » ويهزون دفوفهم المستديرة ، ويصقون عصيراً أحمر من قشر شجر الحور الذى يعضغونه كما يعضغ الرجال الطباقي . وتقع عيونهم على أراضى المزارع التى تبدو تحتهم من بعيد شهباء بين الظلال ، وتلوح من ورائها مياه الفيورد صفراء فى ضوء الماء ، شبيهة بمرآة تسطح فيها السحب الحمر ، والقلاع البيض ، والتلال اللازوردية . وفى أقصى رأس الأرض ، على بعد شاسع يسطع فوق البحر الأشهب فنار الساحل المتفرد .

وفى يوم من هذه الأيام نزل بير من التلال فى الوقت المناسب ليقابل سيداً عرج فى عربته من الطريق العام ليسلك الطريق الجانبى المؤدى إلى بيت تروين . وتوقف الحصان فجأة أمام جسر صغير ، وعندما جذبه السائق من لجامه ، وضربه بالسوط ، شب الحيوان وتمايل ، وجعل العربى تتراقص بشدة فوق عجلانها العالية . وصاح السيد غاضباً : « أوه ، حسناً ، سأضطر إذن إلى السير على قدمي » . ورمى اللجام

إلى الغلام الجالس وراءه ، وقفز إلى الأرض . وفي هذه اللحظة بالذات أقبل بير .

وقال الزائر : « تعال هنا يا غلام . احمل هذه الحقيبة ، أسمع ؟ ... » ثم توقف عن القول فجأة ، وتراجع خطوة إلى الوراء ، وحدق في الصبي : « ماذا ... ؟ إن هذا غير ممكن بالتأكيد ... أنت بير ؟ »

وقال بير وقد فغرفاه قليلا ، ورفع قبعته : « ... ن ... مم » — حسناً . إن هذا مضحك . أنا « هولم » ... حسناً ، حسناً ... حسناً ، حسناً ! .

وكان الغلام الجالس في العربة قد ابتعد بها ، ووقف السيد المقبل من المدينة ، والصبي الرقيق الشاحب اللون ذو السروال المرقع ... وقفا ينظران كل إلى الآخر .

كان القادم الجديد رجلاً في الخمسين أو ما يقارب ذلك ، ولكنه لم يزل منتصب القامة ، نشط الحركة برغم أن شعر رأسه ولحيته المنسقة كان مشوباً بالبياض . وكانت عيناه تومضان تحت حافة قبعته السوداء المصنوعة من لباد . وكان معطفه الطويل المنكوك الأزرار يكشف سلسلة ذهبية ممتدة عبر صدريته . وبدأ بقفازه ؛ ومظلته التي يحسبها بإحدى يديه ، وحقيبة السفر الخفيفة التي يحسبها باليد الأخرى ، وحذائه الحسن الدهان — بدا سيداً عظيماً في عيني بير ، لو أن هناك سيداً عظيماً موجوداً فعلاً ... وهذا السيد العظيم هو أبوه !

— أهكذا تبدو إذن ، يا ولدي ؟ أنت لست كبيراً جداً بالنسبة لسنك — فقد كدت تبلغ الآن السادسة عشرة ، أليس كذلك ؟ أيقدمون لك طعاماً كافياً ؟

وقال بير عن اقتناع :

— نعم .

وانحدر كلاهما صوب الكوخ الرمادي القائم إلى جوار الفيورد . وتوقف الرجل فجأة ، ونظر إلى الكوخ بينين مفتوحتين نصف فتحة .

— أهنا كنت نقيم طوال هذه السنوات ؟

— نعم .

— في هذا الكوخ الصغير القائم هناك ؟

— نعم . هذا هو مكان إقامتي . ويطلقون عليه اسم تروين .

— عجباً ، إن هذا الحائط هناك شديد الانعراج وأظن أن البناء كله سينهار

عما قريب .

وحاول بير أن يضحك من هذا القول ، ولكنه شعر بشيء أشبه بكذبة في حلقة .

وآله أن يتحدث الناس المهذبون على هذا النحو عن بيت أبيه وأمه الصغير .

وحدث هرج ومرج شديدان عند ما ظهر السيد الغريب على عتبة الباب . كانت

الزوجة بعيدة عند المعجين تصنع كعكة ، وبدأت من قبل معفرة بالمعجين . وكان الرجل

الهرم يرقع حذاء وهو يضع عويناته على عيفيه ، وقفزت الفتاتان مبتعدتين عن آلات

غزلهما وقال الزائر وهو ينظر فيما حوله مبتسماً :

— حسناً ، ها أنذا ... أنا هولم .

وغمغمت المعجوز وهي تفسح يديها في ذيل ثوبها :

— رحماك يارب ! إنه الكابتن نفسه .

كان سيداً لطيفاً ، ولم يلبث أن أعاد إليهم الطمأنينة . وجلس في مكان الصدارة ،

وأخذ ينقر بأصابعه على المائدة ، ويتحدث في يسر كأنه يتحدث في بيته تماماً . وكانت

إحدى الفتاتين قد أمضت فترة من الزمن في خدمة أسرة قنصل في المدينة ، وعرفت

أساليب عليية القوم ، فجاءت بإبريق من اللبن ، وقدمته إلى السيد متجملة وقالت :

— هل يتناول الكابتن بعضاً من اللبن ؟

وقال الزائر :

— شكراً ، شكراً . وما اسمك يا عزيزتي ؟ دعني هذا ، فليس هناك ما يدعو إلى

احمرار وجهك ... اسمك نيكولين ؟ .. اسم ممتاز ! .. وأنت ؟ اسمك لوزيانا ؟

هذا حسن .

ونظر إلى الكأس الملون الحافة باللون الأحمر ، ورفعها إلى فمه ، وأفرغه فيه دفعة واحدة ، ثم التقط أنفاسه وهو يحفف فمه : « فو ! ... ابن جديد . حسناً ، هاأنذا بينكم » وأجال بصره في الغرفة ، وفي الموجودين كل بدوره ، وابتسم ، ونقر بأصابعه وقال :

— حسناً ، حسناً ... حسناً حسناً .

وبدا عليه أنه وجد ترويحاً عن نفسه في كل شيء على العموم ، وقال فجأة :

— على فكرة يا نيكولين ، مادمت مملدة بأمر الألقاب خير إليّ من أن أكون مجرد « كاتبين » بعد الآن . لقد أرسلوني إلى هذه الناحية بحسباني « كولونيلا » ، ولزوجتي منزل الآن في بلدتكم هذه خلفه لها أهلها ، وعلى ذلك قد نأني ونقم في هذه النواحي . ولعله من الأفضل أن ترسلوني من الآن فصاعداً عن طريق أحد أصدقائي . ولكننا نستطيع أن نتحدث عن هذا كله تدريجياً . حسناً ، حسناً ... حسناً ، حسناً .

وكان في هذه الأثناء كلما ينقر بأصابعه على المائدة ويبتسم . ولاحظ بير أنه يصل أطراف كمي قميصه يشبكين ذهبيين ، ويضع على صدر ذلك القميص الأبيض العريض دبوساً ذهبياً بديعاً .

ثم أخرج لفافة صغيرة وقال : « هيه يا بير ، تعال وانظر ، فهذا هو ذا شيء أحضرته لك . » ولم يكن هذا الشيء غير ساعة فضية حقيقية — وشعر بير في ذلك الوقت أنه تمس تماماً لأنه لم يكن يستطيع أن يندفع من فوره إلى جميع الصبية الآخرين ليبرهن الهدية . وقالت الزوجة العجوز وهي تصفق بيديها ، وتسكاد عيناها تنرورقان بالدموع :

— ها هو ذا أب لك .

ولكن الزائر ربت على كتفها وقال :

— أب ؟ أب ؟ هيم ... هذه ليست مسألة يستطيع أي إنسان أن يتيقن منها كل النيقن . ها ها ها !

وردد الرجل الهرم هذه القهقهة . وهو لا يزال يجلس والمتعب في يده ، فهذا هو نوع النكتة الذي يستطيع تقديره .

نم خرج الزائر من البيت ، وتجول حول تلك الأرجاء ، واضعاً يديه خلف ذيل سترته ، ونظر إلى السماء ، وإلى الفيورد وغمغم : « حسناً ، حسناً . . . حسناً ، حسناً . » وظل يير يتبعه طوال الوقت ، وتطلع إليه كما لو كان يتطلع إلى نجم في السماء . وكان سينام في دار جار من الجيران بها غرفة ذات سرير مكسو بالأغطية ، وذهب يير معه عبر الطريق حاملاً حقيبته . وكان أبوا «مارتن بزوفولد» هما اللذان سيؤيان المسافر ، ووقف الناس حول الدار يحدقون فيها . وكان مارتن نفسه ينتظر خارج الدار « أهذا صديق من أصدقائك يا يير ؟ ها هو ذا إذن يا ولدى شيء يمكن أن تشتري به ضيعة كبيرة . » وكان المبلغ الذي نقحه هذه المرة ورقة مالية بخمسة كراونات . ووقف مارتن يتحسسها وهو لا يكاد يستطيع تصديق عينيه . كان أبو يير أشبه بأب فعلى .

وكان شيئاً بديعاً أيضاً أن يرى المرء سيداً عظيماً يتجرد من ملابس النهار . وخطر لبير هذا الخاطر وهو يرقب كل عجب جديد يخرج من الحقيبة . « ستكون لي ، في يوم ما ، مثل هذه الأشياء . » كانت هناك فرشاة مفضضة الظهر ، تناولها وفرش بها شعر رأسه ولحيته وهو يروح وينهدو في ملابسه الداخلية ، ويهمهم لنفسه أغنية . ثم كان هناك قميص آخر مخطط الطوق بمخطوط حمر تدور حوله . وهو مما لا يلبس إلا عند النوم . وأوماً يير لنفسه وهو يلقى بالاً إلى كل شيء . وعند ما أوى الغريب إلى فراشه أخرج زجاجة ذات غطاء من فضة يمكن نزعها بطريقة لولبية فيصبح قدحا ، وشرب الرجل منه جرعة خمر ليسكر سكرة الرقاد . ثم وصل بيده إلى غليون طويل ذي شريط مزركش ، وعند ماسلس دخان الغليون تغطى واستراح ، ثم ابتسم لبير :

— والآن يا ولدى ، أنت موفق في الدراسة ؟

ووضع يير يديه خلف ظهره ، وقدم رجلا إلى الأمام :

— نعم . إنه يقول ذلك . . . المدرس يقول ذلك .

— ما حاصل ضرب 12×12 ؟

وكان هذا السؤال الطامة الكبرى فهو لم يتجاوز حفظ حاصل ضرب عشرة

في عشرة .

— أيعلمونكم الألعاب الرياضية في المدرسة ؟؟

— ألعاب ريا . . . وما هي هذه الألعاب ؟

— القفز والوثب ، وتسلق الحبل ، والتدرب على التحرك في طواير . . . ماذا ؟

— ولكن أليست . . . أليست هذه أفعالا شريرة ؟

— شريرة ! . . . ها ها ها ! أقلت شريرة ؟ هذه إذن هي وجهة نظركم إلى الأمور هنا أليس كذلك ؟ حسناً ، حسناً . . . حسناً ، حسناً ! ها ها ها ! ناولي علبة الكبريت هذه يا ولدي . . . هم !

وقضى فترة من الزمن وهو ينفخ دخان غليونه في صمت ، ثم قال بفاة :

— اسمع يا ولدي . أتعلم أن لك أختاً صغيرة ؟

— نعم أعلم ذلك .

— أقصد أختاً غير شقيقة . وأنا نفسي لم أكن على علم تام بما هنالك . ولكن يمكنني مع ذلك أن أقول لك يا ولدي إنني كنت أدفع لك دائماً نفس المبلغ الذي كنت أدفعه الآن . إلا أنني كنت أرسل النقود لأهلك ، وكانت . . . حسناً ، كانت لها . . . المسكينة . . . ابنة أخرى تعني بها ، وايس لهذه الابنة أب ينفق عليها . وعلى هذا قسمت نقودي بينكما ، ها ها ها ! حسناً ، فتاة مسكينة ، إننا لانستطيع أن نلومها على ذلك . وأعتقد أن علينا الآن ، أيّاً كان الأمر ، أن نهتم بأختك الصغيرة غير الشقيقة حتى تكبر . . . ألا ترى ذلك أنت نفسك ؟

وشعر بير بالدموع تصعد إلى عينيه . . . يرى ذلك ؟ طبعاً يرى ذلك .

ورحل أبو بير في اليوم الثاني . ووقف هناك في غرفة الاستقبال بدار تروين ، مستعداً للرحيل ، مرتدياً قبعته الصوفية الجامدة ، وممطفه ، وسأر لبسه ، وقال بلهجة أشبه بلهجة العمدة عند ما يلتقي بياناً عاماً عند باب الكنيسة :

— وعلى فكرة ، عليكم أن تتولوا هذا العام أمر إقرار الكنيسة لتعميده .

وأسرعت الأم المعجوز إلى القول :

— نعم ، سنفعل ذلك بالتأكيد .

— ثم إنى أودله أن يرتدى الثياب اللائقة على نحو ما يرتدى أحسن الصبية الآخرين . وها هو ذا مبلغ خمسين « كراونا » أدفعه له بقصد تسليمه إلى كل من مدرسه وراعى الكنيسة هدية عند الفراق .

وأسلمهم مزيداً من الأوراق المالية . واستطرد يقول .

— وإنى أبوى ، فما بعد طبعاً ، أن أعنى بأمره حتى يستطيع أن يشق طريقه ويصل إلى مكانة محترمة . ولكن ينبغي لنا أولاً أن نتبين العمل الذى يميل إليه ، وعلى أى نحو يريد بناء مستقبله . والأفضل أن يحضر إلى المدينة ويناقشنى فى هذا الأمر ولكنى سأراسلكم وأدبر هذا كله بعد أن يتم إقرار تعميده . ثم إنه فيما إذا وقع لى أمر غير متوقع ، فهناك قدر من المال مودع باسمه فى أحد مصارف التوفير ، وفى استطاعته أن يلجأ إلى صديق لى ملم بالأمر كله . . . حسناً ، وداعاً ، وشكراً جزيلاً !

وتبسم الرجل العظيم ملتفتاً إلى اليمين وإلى اليسار ، وصالحهم جميعاً ، ولوح لهم بقبعته وانصرف .

وفى الأيام القليلة التى تلت ذلك كان بير يخطر فى الهواء ، ويجدد صعوبة فى أن يحافظ على مشيه فوق الأرض العادية . ولم يكف الناس قط عن ملء رأسه بالأحاديث عن المبلغ المودع لحسابه فى بنك التوفير . . . إنه قد لا يتجاوز بضعة آلاف من الدراهمات ، ولكنه قد يبلغ كذلك المليون . . . مليون ! . . .

وها هو ذا هنا يأكل الوجبة فى الغداء ، ويحدث توم ديك ، وهارى ، كما لو كان أى شخص عادى . . . مليون كراون !

وبعد ذلك فى الحريف حل موعد إقرار التعميد ، وأطلقت الكنيسة دقات أجراسها المتتالية فى فضاء الحريف الأزرق ، تلك الكنيسة الخشبية القديمة ، المطلية الحيطان بالقار ، المستقرة بين أعالي أشجارها الضخمة . وخيل إلى بير كأن جدة عجوزاً رؤوماً تنادى فى لطف أى لطف : « تعالوا ، تعالوا . . . هيا ، وشباناً . . . شيئاً وشباناً . . .

تعالوا من الفيورد ومن الوادى ... من الشمال ومن الجنوب ... تعالوا ، تعالوا ...
 فى هذا اليوم الذى يفضل سائر الأيام .. هذا اليوم الذى يفضل سائر الأيام ،
 تعالوا ، تعالوا ! » . هكذا قامت هذه الكنيسة ، تدق أجراسها لجبل بعد جبل ، عبر
 مئات السنين ، وهما هى ذى تناديننا الآن . والشبان هاهم أولاء ينظر بعضهم إلى بعض
 وهم يرتدون ثيابهم الجديدة ، ويتمخطون فى مناديل بيض نظيفة ، مطوية فى عناية .
 وهما هو ذا بيتر ونينجى مقبل . لقد نجح هذا العام لحسن حظه ، ولكنه اضطر أن
 يبدو فى ستره مستعارة من بير نظراً إلى أن الحائك لم يتم إعداد ملابسه الجديدة .
 وحيا الصبية بعضهم بعضاً وحاولوا الابتسام كما يفعل الكبار . ولعل واحداً ، أولل
 إثنين منهم ينتظران تسوية حساب خاص بعراك قديم حدث خلال العام الدراسى ...
 ولكن ، لا بأس ، ومن الخير نسيان الحزازات القديمة الآن . ووقع نظر بير على
 جوهان كوجا الذى سرق منه قلماً فى الصيف الماضى . لكث حتى هذا الحادث
 لا يستحق ، على أية حال ، إثارة ضجة عنه الآن ... وكان يسأل بعضهم بعضاً وهم
 يتجهون جميعاً إلى السلم الحجرى المؤدى إلى باب الكنيسة الذى تتدفق منه نغمات
 الأرغن لتستقبلهم : « حسناً ، كيف كانت حالتك منذ الصيف الماضى ؟ »

كم تبدو الكنيسة الصغيرة طيبة شفيقة حيث يرحب بك كل ما تنفع عيناك عليه !
 ويتساقط من نوافذها ذوات الألواح الزجاجية الملونة المحاطة بإطار من رصاص ، نور
 خفيف جداً إلى حد أنه حتى الوجوه القبيحة المسكينة تبدو فيه جميلة . وكانت ألحان
 الأرغن هى النور نفسه يتحول إلى نغم عذب ، وكنت تستطيع أن ترى من إحدى
 نواحي صحن الكنيسة رؤوس جميع الصبية لامة وهى مبللة بالماء ، ومن الناحية
 الأخرى تبدو الأمهات الصغيرات وهن مرتديات اليوم لأول مرة ثيابهن الفضفاضة ،
 وعلى هاماتهن مناديل الرأس ، وفى أيديهن كتب الأناسيد ، فى حين بدا على وجوههن
 التفكير ... وأخذ الجميع يرددون الآن الغناء . واتخذ الكبار أما كنهم اليوم فى المؤخرة ،
 بيد أنهم اشتركوا فى الغناء وهم يرفعون بصرهم عن الكتاب بين حين وحين ، وينظرون
 إلى تلك الرؤوس الصغيرة البادية أمامهم ، ويتساءلون ماذا سيكون مصيرهم فى الحياة .
 على أن الصغار أنفسهم كانوا وهم يغنون ، يخطر ببالهم « هذا هو يوم بدء الأمور الجديدة .
 لقد مضى أوان اللهو واللعب إلى غير رجعة ، وأصبحنا منذ اليوم كباراً . » ولكن
 بدا كأن الكنيسة وما حوت . كانت تقول : « إذا صادقتم محنة شديدة يوماً ما فتعالوا

هنا إلى . « ما عليك إلا أن تنظر إلى المذبح هناك ... إن نقوش خشبها هي في ذاتها الإنجيل بأجمعه ... ولكن لوحة ناموس موسى تبدو في مظهر لطيف اليوم ، وفي مقدورك أن ترى أنها لا تقصد شراً على أية حال . والقديس بطرس يبدو وهو يحمل المفتاح ، وينظر إلى أعلى ، كأنه عم هرم يعود من السوق حاملاً شيئاً طيباً . ثم إن اللائكة المرسومة على الحائط ، أو النقوشة على خشبه ، تبدو كأنها استعارت صوت الأرغن ، ونغم التسبيح ، ووسمت قبة القاعة حتى أصبحت في اتساع قبة السماء ، في حين ذاب النور والغناء والمصلون بعضهم في بعض ، وسموا جميعاً إلى الفضاء اللانهائي .

واستغرق بير في التفكير طوال الوقت : أنا لا أيمنى أن أكون غنياً كما يقال ، فإنى سأكون قساً . ولعلى أستطيع عندئذ ، بما لدى من مال طائل ، أن أبني كنيسة لم ير إنسان لها مثلاً قط . وسيكون أول زوجين أعقد قرانهما مارتن بروفولد والأخت الصغيرة لويس ... لو أنه فقط رضى بها زوجة ... فلننتظر ونرا

وبعد مرور بضعة أيام كتب إلى أبيه يسأله أيستطيع الحضور إلى المدينة الآن والاتحاق بمدرسة . ومضى على ذلك روح من الزمن ، ثم وصلت آخر الأمر رسالة مكتوبة بخط غريب . وتجمع كبار أسرة تروين ثانية ليقرواها . ولكن أية دهشة عرتهم عند ما قرأوا :

« من الممكن أن تكون علمت الآن من الصحف أن المحسن المتفضل عليك ، الكولونيل هولم ، لقي حتفه على أثر وقوعه من فوق ظهر حصان . ولذلك أرانى مضطراً أن أطلب حضورك إلى شخصياً في أقرب وقت يناسبك ، فهناك مسائل من تسويتها معك ... »
المخلص ج . جرانت ، كبير المدرسين .

ووقفوا ينظر بعضهم إلى بعض .

وكان بير ييكي . ولا بد من التسليم بأن بكاءه يرجع على الأخص إلى فكرة اضطرابه لتوديع أسرة تروين جميعاً ، وكذلك توديع البقرتين والعجل والقط الأشهب . ولعله لا بد له من الرحيل إلى كريستيانا في ميعاد لا يتجاوز غداً ... ومن الذهاب إلى المدرسة هناك ... وعند ما يعود ، فأغلب الظن أنه قد لا يجد الأم المعجوز موجودة على قيد الحياة .

وعلى ذلك كانوا ثلاثهم مثقلى القلب بالهموم عند ما رافقه إلى رصيف الميناء كل من الزوجة الطيبة للعصابة بالبشور ، والرجل العجوز المقوس الساقين . وبعد قليل كان يقف على ظهر سفينة الفيورد محققاً في الشخصين اللذين ظلّا يصفران شيئاً فشيئاً . ثم توارى كوخ بمد كوخ خلف لسان البحر . . . وتروين نفسها تبددت الآن . . . وكذلك التلال والغابات التي صنع من خشبها الدفوف ، واسترجع فيها السائمة الضالة . . . وابتعد كل شيء عرّفه ، وتوارى في مرعة ، حتى تبددت الأبرشية كلها في آخر الأمر ، ومعها عهد طفولته .

الفصل الثالث

بينما كان المساء يفسر ظلاله رأى أنواراً كثيرة تفتشر في الظلام أمامه متجهة عن بعد في كل اتجاه . ثم أخذ بعد ذلك يبحث بين الشوارع الممتدة إلى جانب الميناء ، عن طريقه إلى النزل الذى يقصده الريفيون ، والذى عرفه في زيارته السابقة عند ما كان يحضر إلى المدينة في قوارب لوفوتين .

وفي صباح اليوم التالى أخذ يجتاز « شارع النهر » وهو فى ثوبه الريفى الحشن النسيج ، ومر فوق جسر ، وصعد فى تل إلى حى البيوت المحاطة بالحدايق حيث كان عليه أن يسأل عن وجهته ووصل فى نهاية الأمر إلى بيت خشبى مدهون باللون الأبيض ، قائم فى الجهة الخلفية من حديقته . وهذا كان المكان المقصود ... المكان الذى سيتمقرر فيه مصيره . ودخل كعادة أهل الريف من باب المطبخ .

وكانت هناك خادمة بدينة ملتفة بمنزر أبيض كبير تقعقع بحلقات « وابور » الطبخ وهى تثبتها فى مكانها . وتصاعدت من القهوة والمأكولات الطيبة رائحة شهية . وفتح أحد الأبواب فجأة ، وظهر شخص يرتدى جلباباً — رجل طويل ، شعره أحمر ، تمتطى أنفه القرمزى الطويل عوينات ذهبية ، ويشوب شعره الغزير ، وشاربه الصغير الحقيق ، مس من المشيب . وصعد نفسه بقوة مرة أو مرتين ، ثم بدأ يعطس ... « هوك ... هوك بوت ... بوتش ! » ونظف أنفه بمنديل جيب كبير ، وقال متأففاً : « أوج ! ... أف لهذا البرد اللعين ... إني لا أستطيع الخلاص منه . وماذا عن جوربى يا ميرتا ؟ يا فتاتى الطيبة ؟ أتظنين أنه جف الآن تماماً ؟ »

وقالت الفتاة وهى تهز رأسها :

— إني نشرته منذ أوقدت النار صباحاً .

— ولكن ، هل لى أن أسأل من هذا السيد الصغير ؟

وتحوات عوينات الرجل تماماً إلى يبر الندى وقف وانحنى .. وتدخلت الخادمة قائلة :

— يقول إنه يريد التحدث إليك يا سيدى .

— آه . أنت من الريف كما أرى . هل لديك شيء تبيعه يا فتى ؟

وقال بير :

— لا

كانت معه رسالة ...

وبدا عندئذ على الرجل ذى الرأس الأحمر أنه خاف فعلاً ... وتهاوى بجلبابه إلى الوراء كأنه يلتمس سنداً يستند إليه . وألقى على الفتاة نظرة سريعة . ثم أشار إلى بير بسبابته .

— نعم ، نعم . هو كذلك تماماً . اسبح أن تأتى من هنا يا ولدى .

ووجد بير نفسه فى غرفة تدور حول حيطانها صفوف من الكتب ، ويقوم فى وسطها مكتب كبير . « اجلس يا ولدى » . ومضى فالتقط غليوناً طويلاً ، وحشاه طباقاً ، وتنحنج فى عصبية ، مختلساً إلى الصبي نظرات عرضية : « هيم ... هذا هو أنت إذن . هذا هو بير ... هيم . » وأشعل غليونه ، ودخن قليلاً . ثم وجد نفسه مضطراً إلى العطس ثانية ... ولكنه استقر آخر الأمر فى مقعد إلى جانب المكتب ، ومد ساقيه الطويلتين ، ودخن الغليون من جديد .

— أهكذا أنت تبدو إذن ؟

وفى حركة سريعة امتدت يده إلى صورة فوتوغرافية فى إطار ، ورأى بير أباه فى لحظة مرتدياً كسوته الرسمية . ورفع المدرس عويناته ، وحقق فى الصورة ، ثم خفض عويناته ثانية ، وراح يفحص وجه بير بنظره . وساد الصمت فترة من الزمن ، ثم قال : « آه ، فعلاً ... إنى أرى ذلك ... هيم » . ثم دار إلى اليمين :

— حسناً ، يا ولدى . كانت نهاية الحسن إليك مفاجأة مباغتة ... غير متوقعة

بحال . وسيتم دفنه اليوم .

وفكر بير فى هذا القول « الحسن ؟ ... لماذا لم يقل أبوك ؟ » وكان المدرس

يشخص إلى النافذة :

— لقد أخبرني منذ مدة ... هم ... عن كل ... كل النعم التي أسبغها عليك ...
هم ! وسأنتي ، في حالة إصابته بمكروه ، أن أسهر عليك بنفسى . والآن ...
ودارت العوينات متجهة صوب بير :

— أنت الآن ستبدأ حياة تشق طريقها بنفسك ، أليس كذلك ؟
وقال بير وهو يتحرك في مقدمه :

— نعم .

— وعليك أن تقرر الآن أى طريق في الحياة ... إرر ... ستكرس
له نفسك

وقال بير ثانية ، وهو يجلس على نحو أكثر اعتدالا :
— نعم .

— لعلك تود أن تكون صياد سمك مثل القوم الطيبين الذين نشأت بينهم ؟
وهز بير رأسه في ازدراء :
— لا .

أهذا الرجل يحاول أن يحدده ؟
— لعلك تريد إذن نوعا من التجارة ؟
— لا .

— أوه ، أحسب إذن أنها أمريكا . حسناً ، إنك ستعبد في سهولة رفقاء ترحل
معهم ، فهناك أناس كثيرون يرحلون إليها في هذه الأيام ... ويؤسفنى أن أقول ...
واستمع بير قواه :

— أوه ، لا ... ليس هذا قط .

من الأفضل أن يكشف عما يضر من قوة ، وقال وهو يحرص على النطق بلمهجة
أهل المدينة .

— إنى أود أن أصبح قساً .

ونهض المدرس من مقعده وهو يمسك غليونته المرتفع إلى أعلى بإحدى يديه ، ويدفع أذنه إلى الأمام باليد الأخرى كأنما يريد أن يزداد تمكناً من الإصغاء :
 -- ماذا ؟ ماذا قلت ؟

وأعاد بير قوله :

— أن أصبح قساً .

ولكنه دار خلف مقعده وهو يتكلم إذ بدا كأن المدرس يمكن أن يلقي بغليونته في رأسه .

ولكن الوجه الأحمر انفرج فجأة عن ابتسامة ، وأبدى صفاء من الأسنان المخضرة لم ير بير نظيرها من قبل قط . ثم قال بصوت شبيه بنوع من الغناء وهو يرمي :
 « قس ؟ » أوه ، طبعاً ! مسألة بسيطة جداً ! » وانهض ودار في الغرفة مرة أو مرتين رائحاً غادياً ، ثم توقف ، وأومأ ، وقال بلهجة أبويه وهو ينظر إلى أحد رفوف السكتب : « هم ... حقاً ... حقاً ... نحن على شيء قليل من الطموح ، أليس كذلك ؟ »

ودار إلى بير فجأة .

— انظر يا صديقي الصغير . . . ألا ترى أن السيد المحسن إليك أسبغ عليك حق الآن قدراً كبيراً كافياً من كرمه ؟

وقال بير ، وقد بدأ صوته يرتجف قليلاً :

— نعم ، إنه فعل ذلك بالتأكيد .

— هناك آلاف من الصبية في مثل حالك ألقى بهم إلى عرض الحياة بعد إقرار تهميدهم ، وتركوا يتعابلون على معاشهم بأنفسهم دون أن يعد لهم إنسان يد المعونة .

وأجاب بير لاهئاً ، ملتفتاً إلى الباب قسراً عنه :

— نعم .

— لست أدرى . . . من ذا الذي استطاع غرس هذه الآراء الطائشة في ذهنك ؟

واستطاع بير أن يقول بعد جهد :

— هذا هو ما كنت أريده دائماً ... ثم إنه ... أى أبى ...

— من ؟ أبوك ؟ ... أتقصد أن تقول المحسن إليك ؟

وانفجر بير :

— حسناً ، إنه كان أبى ، أليس كذلك .

وترنح المدرس متراجماً ، وتساقط على مقعد وهو يحرق فى بير وكأنه يراه شخصاً لا أمل فيه البتة . واستعاد آخر الأمر رشده إلى الحد الذى قال معه :

— انظر يا ولدى ، ألا تظن أنه بوسعك أن ترضى عن تسميته ... الآن وفيما يستقبل من الزمان ... مجرد المحسن إليك ؟ ألا تظن أنه يستحق منك ذلك ؟

ومس بير ، ودمعه يكاد ينهمر :

— أوه ، نعم .

— أنت تفكر بالطبع ... أنت وأولئك الذين شحنوا ذهنك بهذا الهراء ...

فى المبلغ الذى ... هم ...

— نعم ، أليس هناك حساب جار خاص بى فى صندوق توفير ... ؟

— آها ! ها نحن أولاء بصدد الموضوع ... نعم ، بالتأكيد .

نعم ، هناك حساب لك فى صندوق توفير أنولى أنا العناية به . ونهض والتقط من أحد الأدراج دفترًا صغيراً ذا غلاف أخضر . ولم يستطع بير أن يتحول ببصره عنه

— ها هو ذا . والمبلغ المرصود لحسابك يبلغ ألفاً وثمانمائة كراون .

تخطمت الآمال ، وأحس بير كأنه سقط محترقاً أرض الغرفة إلى المخزن السفلى . وتبخرت أحلامه كلها وتحولت إلى هباء ... مبلغ المليون كراون ... القس والأسقف ... كريستيانا ... وما إلى ذلك .

— عند ما يحل اليوم الذى توفى فيه إلى تهيئة مكانة لنفسك بنفسك ، وتصبح صانعاً

أو مزارعاً أو صائد سمك ... وعند ما يبدؤى ... وهذا متروك لحكمى التسليم ... أنك تستحق مثل هذا العون ، فسأضع هذا الدفتر عندئذ ... وعندئذ فقط ... تحت تصرفك ... أتدرك ما أقول ؟

— نعم:

— وأنا على ثقة تامة بأنى فيما قررته من ضرورة بقاء المال كاملاً غير منقوص ،
مصوراً عندى حتى ذلك الوقت ، أتفق مع واهبه كل الاتفاق فى رغباته .

وهمس بير :

— نعم .

— ماذا ؟ ... أنبىكى ؟

— لا... لا... عم صباحاً ...

لا — ، أرجو ألا تنصرف الآن . اجلس فإن هناك أمراً أو أمرين يلغى البت
فيهما على الفور ... ولا بد لك ، قبل كل شيء ، أن تثق بى يا ولدى الطيب ...
أعتقد أنى أريد بك خيراً ؟ ... أعتقد ذلك أم لا ؟

— أعتقد ذلك يا سيدى .

— هل اتفقنا إذن على أنه لا بد لك أن تطرد من ذهنك إلى غير رجعة جميع
الأوهام الخاصة بذهابك إلى الجامعة وما إلى ذلك ؟

— ذ... نعم ، يا سيدى .

— أنت تستطيع أن ترى بنفسك ، حتى فى حالة افتراض تمتك بالمؤهلات العقلية ،
أن هذا المبلغ ، برغم كونه ينم عن الكرم فى ذاته ، لا يكفى لتمكينك من قطع
شوط بعيد .

ل... لا يا سيدى .

— ويسرنى من الناحية الأخرى ... إذا أنت رغبت فى ذلك ... أن أرب
لك أمر تدربك هنا على الصناعة عند صانع ماهر ... وسيكون لك هناك مسكن
جانى ... وإذا احتجت إلى كسوة فى العام الأول أو ما أشبهه ، فلعلى أستطيع أن أقول
إنه بوسعى تدبير ذلك . والأفضل ألا يكون لك مصروف خاص تبعثره هنا وهناك
إلا حينما تستطيع أن تكسبه بنفسك .

وتأوه بير ، وتساقط وهو واقف على قدميه ، وعند ما رأى المدفتر الأخضر الظهر

يوضع في الدرج ثانية ويفلق عليه ، وسمع صاصلة المفاتيح وهي تعاد إلى جيب الرجل
نحت الجلباب ، أحس كأن شخصاً يشير إليه بإصبعه هازناً ويقول : ياه !

— ثم هناك أمر آخر . . . خاص باسمك . ما الاسم الذي خطر لك أن تتسمى
به يا ولدى ؟ . . . أقصد القلب .

وأجاب الصبي بالسليقة وهو يعتدل في وقفته كما فعل عندما ربت الأسقف على رأسه
وهو يسأله عن اسمه يوم إقرار تعميده :

— اسمي بير هولم !

وزم المدرس شفتيه ، ونزع عويناته ومسحها وأعادها ، ودار إلى رفوف الكتب
وهو يتنهد :

— آه بالتأ كيد ! . . . نعم . . . نعم . . . كدت أظن شيئاً يصل إلى هذا الحد .

ثم تقدم ووضع يده برفق على كتف بير :

— يا ولدى العزيز . . . هذا مستحيل .

وسرت رعدة في جسم بير . هل أخطأ ثانية ؟

— انظر يا ولدى . . . هل قدرت أنه قد يكون في هذا البلد ذاته أناس آخرون
لهم هذا الاسم ؟

— نعم . . . ولكن . . .

— مهلك لحظة . . . وأنت قد تصادف في طريقك أولئك الناس . . .

الآخرين . . . وهل قدرت أثر الآلام والأحزان التي ستصيبهم فيما إذا اتضعت . . .

حسناً . . . إذا اتضعت حقيقة الأمر ؟ . . . أنظر ؛ إنى أعاملك كما لو كنت رجلاً

ناضجاً . . . سيداً مهذباً . وأنا على يقين من أنك لا تريد أن تبتعث حزناً كبيراً . . .

أن تسدد ضربة قاصمة إلى أرملة ، وإلى أولادها الأبرياء . لا ، لا يا ولدى . ليس

هناك شيء يدعو إلى البكاء . إن للحياة يا صديقي الصغير . . . إن للحياة مكارها لا مفر

من مواجهتها . ما اسم الضيعة أو الدار التي أقمت فيها حتى الآن ؟

— ت . . . تروين

— تروين ... إنه اسم لطيف فعلاً ... ستدعو نفسك إذن ، من الآن فصاعداً ،
بير تروين .

— ذ ... نعم ، يا سيدى .

— وإذا سألك أحد عن أهلك فلا تنس أن الشرف والضمير يفرضان عليك
ألا تذكر اسم من أحسن إليك .
— ذ ... نعم .

— حسناً . عد إلى إذن بمجرد أن تستقر على رأى ، وأنبثق بما عولت عليه .
وسنكون مع ذلك صديقين حميمين ... سترى ... أنت واثق من أنك لاتود محاولة
السفر إلى أمريكا ؟ حسناً ، حسناً ، تعال معى إلى المطبخ لترى هل نستطيع أن نجد
لك طعاماً للفطور .

ووجد بير نفسه بعد لحظة جالسا على مقعد فى المطبخ حيث تصاعدت نكهة القهوة
اللاذبة . وقال المدرس ملاطفاً :

— يا بيرتا ، ستجدين طعاماً جيداً هنا الفطور صديق الصغير ، أليس كذلك ؟
ولوح بيده مودعاً ، وأخذ جوربه المشور على حبل فوق الموقد ، وتوارى ثانية
خلف الباب .

الفصل الرابع

إذا تجول في شوارع المدينة ، على غير هدى ، فتي من الريف في ثوبه الأزرق المنسوج محلياً ، وعلى رأسه الأشقر قبعة المستدقة ، فما من أحد يوليه اهتماماً خاصاً . فهو يمشي في طريقه ، ويحدق في نوافذ الدكاكين ، واضعاً يديه في جيوبه ، مردداً صغيره ، ملتفتاً إلى كل شيء حوله . . . أو ملتفتاً إلى لا شيء إطلاقاً . ورغم ذلك قد يبدو كأن عالماً صغيراً تهدم كله فجأة في ذلك الرأس القابع تحت القبعة المستدقة . ولعل الفتي يصفر بقوة ليتعاشى البكاء في الشوارع ويرى الناس دموعه وهو يخطو إلى أحد الجوانب ليتفادى عربة ، ، ويصطدم برجل يسقط سيجاره في مجرى الماء فيقول غاضباً : « جلف ريفي مرتبك ! ولكنك عر به ، وفي اللحظة التالية يكون قد نسيه ونسى ما كان منه . بيد أنه على مسافة أبعد قليلاً يتدفع كلب كبير من فناء بيت ، ويصطدم لسوء الحظ بمرأه بدينة ، ويوقمها على الرصيف . وإذا الفتي ذو القبعة المستدقة لا يستطيع ، ورغم متاعبه كلها ، أن يمنع نفسه من التلوى والفقهة .

وفي عصر ذلك اليوم جلس بير على أحد الأسوار في أسفل الحصن ، وأخذ يعض ساقاً من الحشائش ، ويلوى أطراف أصابعه . ورقدت تحته المدينة والفيورد في ضوء أكتوبر الرقيق . وتصاعدت إليه ، من خلال الضباب البني المضيء ، جلبة صادرة من المصانع والميناء . . . جلس هناك في حين كان الديدبان يسير فوق السور الأعلى جيئة وذهاباً وهو يحمل بندقيته على كتفه . . . شمالاً . . . يميناً . . . شمالاً .

قد تصعد بالتأكيد إلى علو شاهق ، وتسقط إلى هوة سحيقة ، ولا يصيبك برغم ذلك ، أذى شديد ، ما دمت لم تحطم عنقك تحطياً . وبدأ بير يدرك بالتدريج أنه فضلاً عما جرى ، لا يزال على قيد الحياة . إذا تأملت الدنيا عليك فهذا أمر سيء حق فيما إذا أمكنك أن تعود إلى شخص تلتصق عنده النصيحة والمطف . ولكن إذا كان جميع الناس المحيطين بك غرباء عنك ، فلن يكون هناك شيء تصنعه إلا أن تجلس ، وتلوى عوداً من القش ، وتفكر قليلاً في أمورك بنفسك . وكانت خواطر بير تتعلق بشيء كربه في جلباب طويل أخذ دفر توفيره ، وأغلق عليه الدرج ، وصلصل عفاتحه في مواجهته وقال « يا »

ونحاه عن كرسى الأستاذية ، وحاول أن يستهين به ، وبحشره في حرفة ، وبفرض عليه أن يحمل مكواة طوال حياته ، ويصبح بير تروين « التزى » . ولكنه لن يقبل ذلك وجلس هناك يستجمع قواه ، ويحاول أن يجمع شيئاً من مكان مالم يكن قط في مسيس الحاجة إليه ، وهو أن يفتن عقله ، وأن تكون له إرادته الخاصة يريد شيئاً يجابه العالم الفسيح بأسره ماذا يمكن أن يصنع الآن ؟ أحس أنه قد يود العودة قبل كل شيء إلى تروين ، وأن يناهى الأمور مع أبيه وأمه العجوزين . إنهما سيشفقان عليه ويقولان « يا لاصبي المسكين ، وبصليان من أجله ولكنه يعلم أنهما سيبدآن تصويب النظرات إليه وقت الأكل بعد مرور يوم أو يومين ، وميتذكر أن أنه لم يعد هناك أحد الآن يتفق عليه ، والزمن شديد الوطأة هناك لا ، إن تروين ليس مأوى مناسباً له الآن . ولكن ماذا يستطيع أن يصنع إذن ؟ من الواضح أنه ليس بالأمر الهين أن يصبح المرء وحيداً في العالم .

وبعد قليل وجد نفسه يجلس في سفع تل إلى جانب جبانة الكاتدرائية ، تحت الأشجار الصغيرة ، ويتساءل حالاً عن المسكان الذي سيدفن فيه أبوه . ما أكبر الفرق بين أبيه وذلك المدرس ! إن أباه لا يعظ ، ولا يثير ضجة حول الاسم الذي قد يتسمى به ابنه أو لا يتسمى لماذا كان لا بد أن يرحل ويموت ؟

كان غريباً أن يفكر في هذا الرجل الطريف القوي الذي كان يسوى شعر رأسه ولحيته في عناية بالفرشاة الفضية السطح وأن يذكر أنه لا يزال يرقد في نعشه الآن ، وأنه سيغطي عما قريب بالتراب .

كان الناس يقبلون من فوق التل الآن ، ويدخلون مقابر الكاتدرائية ، وارتدى الرجال الثياب السود ، والقبعات العالية اللامعة بيد أنه كان هناك أيضاً بعض ضباط يتحلون بالريش والأوشعة . ثم جاءت فرقة الموسيقى العسكرية تحمل أبوابها الححاسية وتسلل بير إلى المقابر مع حشود الناس ، ولكنه ظل على حدة ، ووقف على مسافة غير بعيدة بالقرب من تمثال كبير . وقال لنفسه « لا بد أن تكون هذه جنازة أبي » واتجه عندئذ من فوره .

واستمتع قائلاً إن هؤلاء القادمين من كنيسة الجبانة ، المنجهين إلى الأبد في مشية عسكرية ، وهم منقسمون إلى صفين . لا بد أن يكونوا طلبة المدرسة الحربية . وقد أصبح

المكان الآن ممتلئاً بالناس تماماً . وهناك سيدات يرفعن المناديل إلى عيونهن ، وقد ذهبت سيدة غير صغيرة السن ، تلبس السواد ، إلى المبدى ؛ وكانت تستند إلى ذراع رجل طويل يلبس السترة العسكرية . وقال بير لنفسه « لا بد أن تكون هذه هي زوجة أبى . . . وهؤلاء الفتيات اللواتي يلبسن السواد هن أخواتى من أبى . . . وهذا الملازم الشاب أخى من أبى أيضاً » . . . ما أغرب هذا كله ! وانبعث صوت غناء من الكنيسة . وبعد قليل خرج ستة « جاويفية » يحملون نعلشاً تكونت فوقه الأزهار . . . « ارفعوا السلاح ! » ووقف الجند فى طابور استعراض ، وعزفت الفرقة الموسيقية لحناً عسكرياً بطيئاً ، ثم سارت أمام النعش بين صفى الجند ، وتبعها حشد كبير من المعزين . وعادت السيدة المتشحة بالسواد فخرجت من الكنيسة وهي تصعد الزفرات من وراء منديلها ، وتسكاد تعجز عن متابعة النعش رغم تعلقها بذراع الضابط الطويل . بيد أنه كان يسير أمامهما ، وراء النعش مباشرة ، رجل مديد القامة يرتدى سترة عسكرية بديعة ، ويتجلى بشرط ذهبية على كتفيه ، وريشة فى قبعته ، وسيف ، ويحمل حشية فوقها نجمان مرصعان بالجواهر . وتحرك صف المعزين الطويل فى بطء وتؤدة ، وهناك . . . وهناك إلى جانب القبر وقف الكاهن حاملاً معولا .

وكان بير يتلهف على سماع ما قد يقوله الكاهن عن أبيه . واقترب قليلاً قسراً عنه برغم شعوره ، على نحو ما ، بأنه لا يجوز له أن يقترب كل الاقتراب .

وعند حافة القبر رتلوا نشيداً صاحبه عزف الفرقة الموسيقية . ورفع بير قبعته عن رأسه ، وكان مشغول البال جداً إلى حد أنه لم يلاحظ وجود شخص بين المعزين يراقبه فى اهتمام . ولم يلبث هذا الشخص أن غادر المجتمعين وأقل صوبه . كان الرجل يلبس نظارة ، وقبعة عالية لامعة . ولم يعرفه بير إلا عندما عطس . كائن هو المدرس ، وقد أخذ يحرق فيه بوجهه يفيض استبشاعاً وغضباً إلى حد أن بدا كأن نظارته تقذف لهباً . وهمس فى وجهه بير وهو يقبض يديه المكسوتين بقفاز أسود : « أنت . . . أنت . . . أمجنون أنت ؟ ماذا تصنع هنا ؟ أريد أن تسبب فاجعة فى هذا اليوم الخطير ؟ اذهب . . . ابتعد فى التو ؟ أغرب من هنا ، بالله عليك ، قبل أن يراك أحد » ودار بير ، وهرب وهو يسمع خلفه فى أثناء هروبه ، تهديد الرجل : « إذا أنت تجرأت ثانية . . . فى يوم من الأيام . . . وفى هذا الحين كان يبدو أن أصوات أفراد الفرقة التي كان نشيدها يزداد ارتفاعاً ، تجلجل ظهره ، وتدفعه إلى الأمام .

وكان قد قطع شوطاً بعيداً إلى قلب المدينة قبل أن يستطيع التوقف ، وتعالى جأشه
وهناك أمر واضح له . . . وهو أنه لن يستطيع أبداً ، بعد الذي حدث ، أن يواجه ذلك
المدرس . . . لقد ضاع كل شيء ، أيستطيع حتى أن يتأكد من أن ما ارتكبه ليس
بالخطأ الجسم الذي قد يستحق السجن بسببه ؟

وفي اليوم التالي كانت أسرة تروين تجلس للغداء عندما نظر الابن الأكبر من النافذة
وقال : « ها هو ذا بير مقبل » .

وصاحت الزوجة الطيبة عند دخوله :

— رحمة بنا ! ما الأمر يا بير ؟ أنت مريض ؟

آه ، لقد طاب له في تلك الليلة أن يداف مرة أخرى إلى فراشه تحت غطاءه الجلدى
الغليظ . . . وجلست الأم المعجوز إلى جانب فراشه ، وحديثه عن الخالق على سبيل
مواساته . وشد بير قبضته تحت غطاءه ، ورأى وقتئذ ، على نحو ما ، أن الله يسوع عليه .
ومع ذلك وجد ، على أية حال ، بعض العزاء في جلوس المرأة المعجوز الطيبة هناك ،
وفي تحدثها إليه .

وكان على بير أن يتحمل الكثير في الأيام التالية ، فقد كثر الضحك عليه والهس
كلاماً مر بالصبية : « انظروا ، ها هو ذا القسيس . » وكان وهو جالس إلى مائدة الطعام
يشمر بالحجل عند تناول كل لقمة . وراح يتصيد عملاً كاشتهاله في المزارع النائية أجيراً
يوميّاً حتى يرجع القليل الذي يساعد على دفع شيء نظير إقامته . وعندما حل الشتاء كان
عليه أن يحمذو حمذو الآخرين ، ويؤجر نفسه للصيد في لوفوتن ، وهو على ما هو عليه من
صغر السن والحجم .

ولكن كلاوس بروك انتعش به في أحد الأيام ناحية بعد الخروج من الكنيسة ،
وحمله على الإفشاء بما حدث تفصيلاً . وقال له أولاً إنه سيرحل هو نفسه وسيبدأ العمل
في مصنع تكنيكى في المدينة ، ثم ينتقل منه إلى كلية تكنيكية يتخرج فيها
مهندساً ، وأراد ثانياً أن يعرف من بير الحقيقة الكاملة لما حدث له في ذلك اليوم بالمدينة
ذلك أن الناس عندما راخوا يضربون ركبهم بأكفهم ، ويهزأون من الصبي القدي أراد
أن يصبح قساً فظهر أنه متسول . . . شمر كلاوس بيل إلى أن يوسمهم جميعاً لطمأ ولكتاً .

وعلى ذلك راح الفلامان اللذان لم يتجاوزا السادسة عشرة ... راحا يتجولان ذهاباً وإياباً وهما يتحدثان . وفيما تلا ذلك من العمر لم يندس بير قط ~~صيف~~ أيده الآن شريكه المتواطيء معه يوم صيد سمكة القرش . وألح كلاوس في سؤاله : « اصنع مثلي ... إنك الآن تكاد تكون جزءاً من حداد يا رجل ، التحق بمصنع ، وذا كر في أوقات فراغك استعدداً لأدوية امتحان القبول في الكلية الهندسية . وبعد ذلك تقضى ثلاث سنوات في الجامعة — ومبلغ الألف والعشرون كروان يكفي لتغطية نفقات ذلك — ثم إذا بك تصبح مهندساً ... دون أن تحتاج حتى إلى اقتراض نصف قرش من أحد » .

وهز بير رأسه . كان متيقناً من أنه لن يجرؤ على مواجهة ذلك المدرس ثانية ، بله مطالبته بتقود صندوق التوفير ... لا ، لقد قضى الأمر ، وانتهى تماماً بالنسبة له . « ولسكن ، ليتول الأمر الشيطان ، يا رجل ... سترى ، دون ريب ، أن هذا المدرس القرد لن يجرؤ على صدك عن تقودك . دعني أذهب معك . سنتوجه إليه معاً ، ونتمكن منه سوياً ، وعندئذ ... عندئذ سترى . »

وشد كلاوس على قبضته ، ودفع إحدى كتفيه إلى الأمام بعنف .

ولسكن بير ، عندما حل شهر يناير ، كان يقف في معطفه المشمع ، على سطح مقدمة قارب من قوارب صيد لوفوتن ، يشق به طريق بحر الشمال الطويل إلى مناطق الصيد وسط الجليد والمواصف الثلجية ، وقضى الشتاء بطوله وهو يعيش عيشة الصيادين . فهو على اليابسة يعيش في كوخ من أكواخ الصيد الصغيرة ، حيث يحشر خمسة من الملاحين كالسردين في هواء تستطيع أن تقطعه بسكين لكشافته ... وفي البحر يعيش حيث يقضى المرء نصف يوم في مهب ريح عاتية ، ولا يصنع شيئاً في أثناء ذلك إلا أن يتجمد من البرد ... والرياح العاتية تعني أنه يخرج المرء المجاذيف ... وأنت يجذف ، ويجذف عبر سطح من قطع الثلج المتدحرجة لا نهاية له ... ويجذف ، ويجذف حتى تتحول يده إلى قطع من اللحم الدامي . وعاش بير خلال ذلك كله ، وكان يفكر بين حين وحين ، إذا ما استطاع أن يفكر في شيء ما ... كيف أن عليه القوم دفعوا به إلى هذه الحياة لأنه كان وقعاً إلى حد وجوده فيها . وعندما انقضت الأسابيع الأربعة

عشرة ، ورست على شاطئ الفيورد من جديد ، في يوم معتدل من أيام الربيع ،
قوارب صيد لوفوتن ، سهل على بير أن يحسب الأجر الذي كسبه ، وكان لاشيء في حقيقة
الأمر . فقد كان مضطراً إلى اقتراض لشراء زاده ومؤناته ، وإنه ليكون حسن الحظ
إذا كان أجره - وهو أجر صبي - يكفي لسداد ما هو مدين به .

وبعد مرور بضعة أسابيع وقف صبي على باب فناء مصنع هندسي بالمدينة ، وكان
الجرس وقتئذ يدق ، والعمال يخرجون متدققين من المصنع . وسأل الصبي عن
كلاوس بروك .

« هالو ، يا بير ... أهذا أنت ؟ هل ذهبت إلى لوفوتن وكسبت المال الوفير ؟ »
ووقف العلامة برهة يتبادلان الأخبار ... وكان كلاوس قذر الوجه في ثياب
العمل ، في حين لوح الجو وجه بير ، ودبغته العواصف ورشاش ماء البحر .

وكان مدير المصنع هو عم كلاوس . وقد جاء إليه ابن أخيه في مكتبه ، عصر ذلك
اليوم نفسه ، ومعه عامل جديد مطلوب النعاقه بالمصنع تحت التمرين . وقال عنه إن
له خبرة سابقة في أعمال الحدادة . وألحق الصبي بالعمل من فوره نظيراً أجر قدره قرهان
في الساعة الواحدة .

« وما اسمك ؟ » .

« ب ... بير » .

والتحق باقي الاسم بحلقه ... وأضاف كلاوس :

« هولم » .

« بير هولم ؟ حسناً جداً . يكفي . »

وخرج العلامة وهما يحسان كأنهما أقدا على امر أقرب أن يكون خطيراً . بيد
أنه إذا نشأت عن ذلك متاعب في المستقبل ، فسيكونان الآن اثنين يتصديان لمعالجته .

وعلى ذلك راح العلامة اللذان لم يتجاوزا السادسة عشرة . . . راحا يتجولان ذهاباً وإياباً وهما يتحدثان . وفيما تلا ذلك من العمر لم ينس بير قط كيف أیده الآن شريكه المتواطيء معه يوم صيد سمكة القرش . وألح كلاوس في سؤاله : « اصنع مثلى . . . إنك الآن تكاد تكون جزءاً من حداد يا رجل ، التحق بصنع ، وذا كر في أوقات فراغك استعداداً لنأدية امتحان القبول في الكلية التكنيكية . وبعد ذلك تقضى ثلاث سنوات في الجامعة — ومبلغ الألف والثمانمائة كروان يكفي لتغطية نفقات ذلك — ثم إذا بك تصبح مهندساً . . . دون أن تحتاج حتى إلى اقتراض نصف قرش من أحد » .

وهز بير رأسه . كان متيقناً من أنه ان يجرؤ على مواجهة ذلك المدرس ثانية ، بله مطالبته بنقود صندوق التوفير . . . لا ، لقد قضى الأمر ، وانتهى تماماً بالنسبة له . « ولكن ، ليتول الأمر الشيطان ، يا رجل . . . سترى ، دون ريب ، أن هذا المدرس القرد ان يجرؤ على صدك عن نقودك دعنى أذهب معك . سنتوجه إليه معاً ، ونتمكن منه سوياً ، وعندئذ . . . عندئذ سترى . »

وشد كلاوس على قبضته ، ودفع إحدى كتفيه إلى الأمام بعنف .

ولكن بير ، عندما حل شهر يناير ، كان يقف في ممطفه المشمع ، على سطح مقدمة قارب من قوارب صيد لوفوتن ، يشق به طريق بحر الشمال الطويل إلى مناطق الصيد وسط الجليد والمواصف الثلجية ، وقضى الشتاء بطوله وهو يعيش عيشة الصيادين . فهو على اليابسة يعيش في كوخ من أكواخ الصيد الصغيرة ، حيث يحشر خمسة من الملاحين كالسردين في هواء تستطيع أن تقطعه بسكين لكشافته . . . وفي البحر يعيش حيث يقضى المرء نصف يوم في مهب ريح عاتية ، ولا يصنع شيئاً في أثناء ذلك إلا أن يتجمد من البرد . . . والرياح العاتية تعنى أنه يخرج المرء المجاذيف . . . وأنت يجذف ، ويجذف عبر سطح من قطع الثلج المتدرجة لانهاية له . . . ويجذف ، ويجذف حتى تتحول يده إلى قطع من اللحم الدامى . وعاش بير خلال ذلك كله ، وكان يفكر بين حين وحين ، إذا ما استطاع أن يفكر في شيء ما . . . كيف أن عليه القوم دفعوا به إلى هذه الحياة لأنه كان وقعاً إلى حد وجوده فيها . وعندما انقضت الأسابيع الأربعة

عشرة ، ورست على شاطئ الفيورد من جديد ، في يوم معتدل من أيام الربيع ،
قوارب صيد لوفوتن ، سهل على بير أن يحسب الأجر الذي كسبه ، وكان لاشيء في حقيقة
الأمر . فقد كان مضطراً إلى اقتراض لشراء زاده ومؤناته ، وإنه ليكون حسن الحظ
إذا كان أجره - وهو أجر صبي - يكفي لسداد ما هو مدين به .

وبعد مرور بضعة أسابيع وقف صبي على باب فناء مصنع هندسي بالمدينة ، وكان
الجرس وقتئذ يذق ، والعمال يخرجون متدققين من المصنع . وسأل الصبي عن
كلاوس برونك .

« هالو ، يا بير ... أهذا أنت ؟ هل ذهبت إلى لوفوتن وكسبت المال الوفير ؟ »
ووقف الغلامان برهة يتبادلان الأخبار ... وكان كلاوس قذر الوجه في ثياب
العمل ، في حين لوح الجو وجه بير ، ودبغته العواصف ورشاش ماء البحر .

وكان مدير المصنع هو عم كلاوس . وقد جاء إليه ابن أخيه في مكتبه ، عصر ذلك
اليوم نفسه ، ومعه عامل جديد مطلوب النعاقه بالمصنع تحت التمرين . وقال عنه إن
له خبرة سابقة في أعمال الحدادة . وألحق الصبي بالعمل من فوره نظيراً أجر قدره قرهان
في الساعة الواحدة .

« وما اسمك ؟ » .

« بي ... بير » .

« والتصق باقي الاسم بحلقه ... وأضاف كلاوس :

« هولم » .

« بير هولم ؟ حسناً جداً . يكفي . »

وخرج الغلامان وهما يحسان كأنهما أقدما على أمر أقرب أن يكون خطيراً . بيد
أنه إذا نشأت عن ذلك متاعب في المستقبل ، فسيكونان الآن اثنين يتصديان لمعالجته .

الفصل الخامس

في زقاق ضيق ، على مسافة من « شارع البحر » ، أقام « جورسيث » ، مؤجر العربات والخيول ، مع أسرة تتكون من زوجة نحيلة عجفاء ، وحصانين نصف ميتين جوعاً ، وعربات وزحافات أبلاها القدم . وكان هو نفسه سكيراً كسولاً ، ذا أنف أحمر وعينين صفراوين في لون الجمعة ، ينفق ليلاليه في الشراب ، ويعود إلى بيته في الساعات الأولى من النهار عندما تكون زوجته قد أوشكت أن تستيقظ . وكانت الزوجة تتجول في أنحاء البيت طوال الصباح وهي تمنعه ، وترغى في وجهه وتزبد ، قائلة إن السكير لا يحسن عملاً أبداً ، في حين أنه كان يرقد مستريحاً وهو يغط في نومه .

وعندما وصل بير إلى ساحة هذا المسرح ، حاملاً صندوقه على كتفيه ، كان جورسيث يجثو على ركبتيه في الحديقة ، ويشعم قطمتين من جلود العربات ، في حين كانت زوجته تمسح على باب المطبخ مدلاة الشفة ، عنيفة النظرة ، وتسبه ناعته إياه بأنه سفيف خنزير ، وهباء من تراب . وكان جورسيث ينكفيء هناك على أربع ، والشمس تلمع فوق صلته والشمع يلوثه . ولكنه كان يرفع رأسه كل حين وحين ويزجر صائحاً :

« أطبق شديك أيتها الماهرة المعجوز اللعينة ! »

وسأله بير :

— أعندك غرفة للإيجار ؟

ودار صوب الفتى أنف سكير ، ونهض الرجل متثاقلاً ، ومسح يديه في سرواله وقال :

نعم ، عندي .

وقاده عبر الفناء ، وصعد به بضع درجات إلى غرفة صغيرة لها نافذتان زجاجيتان تطلان على الشارع ، ونافذة ضيقة تطل على الفناء ، وكان بها فراش مغطى بأغطية تيلية ، وبضعة مقاعد ، ومنضدة قائمة أمام النافذة الضيقة : « قيمة الإيجار ستة وستة شهرياً . » « موافق . » واستأجرها بير من فوره ، ودفع قيمة إيجار الشهر الأول ،

وبعد أن تخلص من الرجل جلس فوق صندوقه ، وجال يبصره فيما حوله . هناك أناس كثيرون لم تظلل رؤوسهم أسقف قط ، ولكن ها هو ذاير له هنا بيت خاص به وحده . وبدأت المرأة في الفناء خارج الغرفة ، تنبح بسبابها من جديد ، وكان الحصانان في « الاسطبل » ، تحت الغرفة ، يضربان في الأرض بأرجلهما ويصهلان . ولكن بير سبق له أن أقام في أكواخ صائدى السمك ، وفي دور الفلاحين ، وعلى ذلك لم يكن يدقق كثيراً في مثل هذه الأمور . وهو ينزل هنا ، لأول مرة في حياته ، بمكان خاص به وحده ، وهو بين جدران سيدة البيت ، وسيد نفسه .

وكان الطمام هو الأمر الثانى . وخرج واشترى زاده ، وملاً صندوقه بأطعمة ريفية بسيطة . وكان وقت الغداء يجلس على غطاء الصندوق ، كما يفعل الصيادون ، ويأكل وجبة طيبة مشبعة من فطير مفطاح ولحم خنزير مقدد .

وانهمك الآن في عمله الجديد . ولم يعد موضع سؤال أهذا العمل هو ما يرغب فيه أم لا . لقد أتاحت له هنا فرصة الصعود في مدارج الحياة ، وذلك دون أن يستجدى الإذن من أحد . وقد اعتزم أن يمضى قدماً . ولم يمر عليه زمن طويل قبل أن تتخذ أحلامه شكلاً جديداً مستمداً من حياته الجديدة . إنه يقف في أسفل السلم بحسبانه صبي حداد . . . ولكن هناك في أعلى السلم يجلس رئيس المهندسين القدير لابساً نظارته وصدريرته البيضاء . هذا هو المكان الذى سيتربع فيه يوماً ما . وإذا جاءه أى مدرس ، وحاول فى هذه المرة أن يصدده عن ذلك ، فدعه يحاول . . . لقد أخرجوه مرة من جبانة الكنيسة ، وسأخذ بثأره فى يوم من الأيام . وقد يستغرق منه ذلك سنوات وسنوات ، ولكنه سيصبح فى يوم مأمول مثل أفضل واحد فيهم ، وسيرد لهم عندئذ الصاع صاعين .

وفى الصباح المنتشر الضباب كان يمضى إلى عمله ، حاملاً بيده سلة غذائه ، وتبدو قدماه وهما تطآن ألواح الجسر الخشبية كأنهما تطرقانها طرقة بمزينة مركزة : « اليوم سأتعلم شيئاً جديداً . . . جديداً . . . جديداً ! »

إن الصناعات الكبرى هناك فى الميناء — من ترسانات ومسابك وآلات صناعية — هى فى ذاتها مدينة بأسرها . وفى وسط هذا العالم — عالم النار والدخان ، والحديد

المتوهج ، والمطارق البخارية ، والمجلات السريعة الدوران ، والضوضاء والجلبة . كان بير يشق طريقه ، مصمماً على شيء واحد هو أن يتعلم ويتعلم ، ولا يكف عن التعلم أبداً وكان هناك حوالب عمال كثيرون يقنعون بأن يصرفوا أمورهم في الركن الصغير الذي يقفون عنده ولكن هؤلاء لن يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام أبداً ، وسيختتمون حياتهم وهم عمال مضطربون القوي في حين هو مصمم على شق طريقه حتى يقف في مصاف السادة . وكان عليه أول الأمر أن ينفق بضعة شهور في العمل بقسم الحدادة ثم ينتقل إلى المصانع ، ثم يعمل مع النجارين والرسامين ، ثم يعمل آخر الأمر في ترسانة السفن . وسيستغرق الأمر كله بضع سنوات ، ولكن أقسام المصانع وما حوت أصبحت منذ الآن عنده الكتاب المقدس ، فهي الكتاب الأكبر الذي عليه أن يحفظه عن ظهر قلب وما عليك إلا أن تنتظر !

ويا له من مكان يتسع للمغامرات الجديدة ! وكم من مرة وجد نفسه ينظر إلى أعجوبة جديدة ؛ مجرد معجزة أو رؤيا مماوبة يبدأها ليست إلا من اختراع الإنسان اضبط زراً وانظر تجد معجزة تحققت ، وإنه كان يحدق في الأشياء ، وتحمله سلسلة تعلم أسرارها على البقاء في بعض الأحيان ساهراً طوال الليل . إن هناك شيئاً وراء ذلك ، شيئاً لا بد أن يكون موجوداً هو روح ، وإن لم يكن روحاً ديبياً . إن هؤلاء المهندسين كهنة من نوع ما ، وإن كانوا لا يعظون أو يصلون إن هذا العالم جديد .

وفي أحد الأيام نيط به أن « يرشم » المسامير في رجل هائل . ووجد نفسه ، لأول مرة ، مدفوعاً إلى العمل بقوة غير قوة يديه . كانت هذه القوة أنبوبة ملأى بهواء مضغوط يدفع المسامير إلى مواضعها في تتابع سريع ، وتنبعث من الرجل ولولة مقعقة تتردد أصداؤها في أرجاء المدينة . وأوجعت الضوضاء رأس بير وأذنيه ، ولكنه كان يتكلم برغم ذلك . لقد اعتاد أن يتعب نفسه وهو منهوك الجسد ، إنه يقف هنا أستاذاً إنه عبارة عن عقل وروح وإرادة موجودة . لقد شعر بذلك الآن لأول مرة فأجرى هذا الشعور في كل عرق من عروقه رجفة الانتصار .

ولكنه كان يقضي الليالي الطويلة وحده وهو يقرأ ويقرأ ، ويسمع ضرب الخيول بأقدامهم في الاسطبل تحته . ولم يكن يزججه هنالك ، عندما يفسل إلى فراشة بعد منتصف

الليل بكثير ، إلا شيئاً واحداً هو شعوره بالوحدة التامة ، فإن كلاوس بروك يمشي مع عمه في بيت جميل ، ويحضر الحفلات ، في حين يرقد هو هائلاً منفرداً . ولو حدث أن مات في هذه الليلة نفسها ، فمن الصعب أن يحضر إنسان يهتم به . كان وحيداً تماماً . . . في عالم غريب غير مكثرت .

وكان يخفف ما به قليلاً في بعض الأحيان تذكره لأمه المعجوز في بيت تروين ، ولكنيسة بلدته حيث يعلو سقفها المسكور الذي خلق عالياً فوق نفحات الأرغن المرتفعة إليه ، وحيث بدت الوجوه جميعها رائحة الجمال . ولكن صلاته المسائية لم تمتد كسابق عهده بها . فليس ثمة أسقف أشيب يجلس في أعلى السلم الذي ما اعزم أن يصعد فيه . إن رئيس المهندسين الذي يجلس هناك الآن لا شأن له بالسما وبالحياة الآخرة . ولن يذهب ببر الآن بعيداً إلى الحد الذي يستطيع عنده النزول إلى موطن العذاب حيث ترقد أمه ، والصعود بها ثانية إلى موطن الخلاص . ومهما تسكن القوة والقدرة اللتان سيحققهما فهو لن يستطيع أبداً أن يقف في أمسيات الحريف ، ويرفع إصبعه إلى أعلى . ويجعل النجوم جميعها تسترسل في القناء .

هناك شيء مضى وانقضى بالنسبة لبر . فهو كأنه يجذف مبتعداً عن شاطئ متعلق فوق سمته سحب حمر ، ويمتليء جوهر برؤى كرؤى الأحلام . . . يجذف مبتعداً مبتعداً صوب شيء جديد كل الجدة . إن قوة أشد من قوته شاءت ذلك .

وفي يوم أحد انفتح عليه الباب وهو يقرأ ، ودخل كلاوس مصفراً واضعاً قبعته في مؤخرة رأسه .

— هالوا يا صديقي ! أهذا إذن هو المكان الذي تقيم فيه ؟

— نعم هو ذاك . وهالك مقعداً لك هناك .

ولكن كلاوس ظل واقفاً ، واضعاً يديه في جيوبه ، محتفظاً بقبعته فوق رأسه ، محدقاً في أرجاء الغرفة . ثم قال آخر الأمر :

— إنني كنت أسر لو لم تضع صورتك الفوتوغرافية على المنضدة !

— عجباً ، ألم تر صورة فوتوغرافية من قبل ؟ ألا تعلم أن الناس جميعاً لهم مثل

هذه الصور ؟

— ولكنهم لا يعرضون صورهم يا حيوان ! . . لو أن أحداً رآك تفعل ذلك لما عرفت ماذا يكون مصيرك .

وأخذ بير الصورة وألقى بها تحت الفراش ، فمن الواضح أنه ارتكب خطأ . . . وقال منغمها :

— حسناً ، إنها كانت من سقط المتاع . ولكن ، ما رأيك في هذه ؟
وأشار إلى صورة ملونة كان قد سمرها في الحائط .

واتخذ كلاوس هيئة بلغت غاية الجد ، وعض على قطعة من الطباقي حشا بها فمه ، وقال وهو يحاول ألا يسارع إلى الضحك :

— آه ! هذه !

— نعم ، إنها متقنة الرسم ، أليس كذلك ؟ إنى اشتريتها بأربعة قروش .

— رسم ! ها ها ! هذا حسن ! ما هذا يا أبله ! ألا ترى أنها ليست إلا نسخة مطبوعة من صورة زيتية ؟

— أوه ، أنت تعرف كل شيء عن ذلك بالطبع . وكنت تلم بعثل ذلك دائماً .
وقال كلاوس :

— سأصطحبك يوماً إلى متحف الفن ، وستستطيع عنـدئذ أن ترى كيف يبدو الفن الحقيقي . وماذا عندك هناك ؟ . . كتاب المطالعة الإنجليزية ؟

وقال بير في لهفة :

— نعم : دعني أصممك قصيدة .

وبدأ إلقاء القصيدة قبل أن يتمكن كلاوس من الاعتراض .

وعندما أتم إلقاءها جلس كلاوس فترة من الزمن صامتاً يعض قطعة التبغ . وقال أخيراً :

— هم ! إذا تيسر لفروكن زييلين ، آخر مدرساتنا ، أن تسمع لفتك الإنجليزية هذه ، لاضطررنا أن نأتي لها بعمرضة ، وويل لنا إن لم تفعل .

٤٠
لقد زاد الأمر عن الحسد . . . وألقى بير بالكتاب عرض الحائط وطلب إلى صاحبه أن ينصرف ويذهب إلى الشيطان . وقال كلاوس عندما استطاع أن يجد فرصة للكلام :

— إذا كنت ستؤدى امتحان القبول للكلية التكنيكية فلا بد أن تتلقى دروساً خصوصية . . . وهذا لا يخفى عليك بالتأكيد . . . لا بد لك أن تظهر بدرس .

— سهل عليك أن تتحدث عن المدرسين ! دعنى أقل لك إن مرتبى يبلغ قرشين فى الساعة .

— سأجد لك مدرساً يعطيك كل أسبوع درسين فى اللغات والتاريخ والحساب . ولعل تلميذاً مفلساً سكيراً يرضى أن يتقاضى سبعة قروش عن كل حصة . وفى وسعك بالتأكيد أن تتمكن من دفع هذا المبلغ .

وهذا بير الآن ، وفكر قليلاً :

— حسناً . . . إذا أقلعت عن أكل الزبد ، وشربت الماء بدل القهوة . . .

وضحك كلاوس ، ولكن دمعت عيناه . فمن سوء الحظ أنه لا يستطيع إقراض رفيقه إلا بضعة شلنات ، ولكن هذا المبلغ لا يفي . وعلى هذا النحو انسلخ الصيف . وكان بير يرقب الشباب وهم فى طريقهم صباحاً إلى الريف ليقتضوا هناك نهارهم متجولين بين الحقول والغابات فى حين هو منكب فى غرفته على المكتب . وكان فى المساء يلصق وجهه بنافذته ذات اللوحين الزجاجيين المطلين على الشارع ، ويرى الفتيان والفتيات وهم يعودون متوردي الوجوه صائحين ، وقد تزينت قبماتهم بالأزهار والأغصان الخضراء وسلبت لهم أشعة الشمس والهواء الطلق فى حين عليه هو أن يظل جالساً ، ويواصل القراءة . ولكنه فى الحريف ، عندما تحل الليالى الطويلة ، كان يخرج ليتمشى فى الشوارع قبل أن يأوى إلى فراشه . ولم يكن يواصل السير ، فى الغالب ، حتى البيت الخشبي الأبيض الذى يقطن فيه مدير المصنع . . . كان هذا هو بيت كلاوس . . . نوافذه مضاءة ، والموسيقى تتردد فيه غالباً . والسعداء الذين يعيشون هنا يعرفون ويستطيعون ممارسة مختلف أنواع الأمور التى لا يتيسر تعلمها من الكتب أبداً .

ولا مراء في أن أمامه طريقاً طيباً عليه أن يسلكه... طريقاً طويلاً طويلاً . ولكنه مصمم على الوصول .

وحدث ذات يوم أن ذكر كلاوس عرضاً أين تقيم أرملة الكولونيل هولم . وفي ساعة متأخرة من إحدى الأمسيات اتخذ بير طريقه إلى هناك ، واقترب من المنزل على حذر . وكان ذلك البيت يقع في شارع البحر ، ويكاد يخفى بين مجموعة من الأشجار الكبيرة . ووقف بير هناك متسكئاً على سور الحديقة ، مرتجفاً بتأثير عاطفة غامضة . وكانت صفوف النوافذ في كلا الدورين مضاءة . واستطاع أن يسمع في الداخل ضحكات يرددنها الشباب . ثم صوت فتاة تغنى ... لا شك أنهم يقيمون حفلة . ورفع بير طوق سترته ليتقى البرد ، ومضى على قدميه خلال المدينة إلى مسكنه فوق اسطبل سائق العربات .

إن ليلة السبت أشبه بليلة عيد عند الفتي العامل الذي يكابد الوحدة ، فهو يسمح لنفسه باغتسال إضافي ، ويخرج ملابسه الداخلية النظيفة من صندوقه ، ويستبدل بها ملابسه المتسخة . وكانت رائحة تلك الملابس الداخلية ، المفسولة حديثاً ، تبتعث بقوة فكري امرأة عجوز ، مملوءة الوجه بالبثور ، اعادت أن تحوكمها وترفوها ، وتحفظها مطوية في عناية ... كان يلبسها عندئذ باهتمام وهو يكاد يحس كأن يوم الأحد قد حل فعلاً .

وعندما يبدو له يوم الأحد ، بين حين وحين ، طويلاً جداً ، كان بير يسرع إلى أقرب كنيسة . ولا شك أن كل ما يقوله الكاهن طيب جداً ، ولكن بير لم يكن ينصت إليه ، فليس لشيء وجود في نظره إلا الأناشيد والأرغن ، والسقف العالي المكور ، والنوافذ الملونة . والوجه هنا أيضاً تبدو مختلفة عما تبدو عليه في الشارع خارج الكنيسة ، فهي كأنها مسها شيء مما تطمح خواطر أعجابه إلى بلوغه . ما أشبه هذا المسكان بوطنه ، بل لقد شعر بير حتى بنوع من القرابة تربط بهم جميعاً ، رغم أن كل فرد هناك كان غريباً عنه تماماً .

ولكن حدث لدهشته في يوم ما ، آخر الأمر ، أن همس صوت في صدره يقول ، واللشيد في منتصفه : « عليك أن تسكتب لأخك ؛ فهي تعاني في الحياة وحيدة كوحدة تلك » .

وجلس بير ذات ليلة وكتب . . . واتخذ لهجة متعالية تماماً قائلاً إنها إذا كانت في حاجة لأى عون فما عليها إلا أن تنبشه بذلك . وإذا كان يهمها أن تأتى وتسكن في المدينة ففى وسعها أن تحضر وتقيم معه . وهو يمد أخوها الودود ، بير هولم ، المهندس تحت التمرين .

وورد خطاب بعد بضعة أيام مكتوب بخط جميل مائل . لقد تم إقرار تعميد لويز توأ . والفلاح الذى تقيم عنده يرغب فى بقائها معه لتعمل حلافة خلال فصل الشتاء . ولكنها تخشى أن يكون هذا العمل مرهقاً جداً لها ، وعلى هذا ستحضر إلى المدينة على ظهر السفينة التى تصل ليلة الأحد . ودمت لأختك لويز هاجن .

وجزع بير نوعاً ، وبدا أنه وضع حملاً ثقيلاً على كتفيه .

وفى ليلة الأحد ارتدى سترته الزرقاء ، وقبعته المقواة ، وانحدر إلى رصيف الميناء . ولأول مرة فى حياته كان له شخص آخر يرعاه - وعليه من الآن فصاعداً أن يكون أباً ومحسناً لمن هو أسوأ منه حالا . إن هذا شيء جديد وعادته ذكرى السيد المذهب الظريف الذى جاء فى عربته إلى تروين فى يوم من الأيام ليرعى أمس ابنه . نعم هذه هى طريقة معالجة الأمور ؛ وهذا هو الرجل الذى لا بد أن يكون مثيله . . . واتخذ بير ، من حيث لا يقصد ، شيئاً من نظرة أبيه ومشيته وابتسامته ، وهيئته المندفعة غير اللبالية ، وبدا كأنه يقول لنفسه : « حسناً ، حسناً ... حسناً ، حسناً ، حسناً . » ولعله كاد يتصور أن له لحية رمادية أنيقة تكسو ذقنه .

ودارت السفينة البخارية الخضراء الصغيرة حول رأس الأرض ، وألقت مراسيها عند الرصيف ، ومدت معابرها ، وقفز إليها الجمالون ، وخرج المسافرون إلى الشط يحملون صررهم ، وتساءل بير كيف يتاح له أن يعرف تلك الأخت التى لم يرها قط .

ولم يلبث الحشد المجتمع على ظهر السفينة أن خف زحامه ، وأخذ الناس ينصرفون من رصيف الميناء إلى المدينة .

ثم فطن بير إلى فتاة قروية صغيرة تحمل صندوقاً بإحدى يديها ، وغلافا باليد الأخرى . كانت ترتدى ثوباً رمادياً ، وتغطي شعرها الأصفر بمنديل رأس أسود وكان وجهها شاحباً جميلاً القسما . . . كوجه أمه إذ هى فى السادسة عشرة . وإذا الفتاة

تلتفت الآن فيما حولها ، وإذا عيناها تستقران الآن عليه في شيء من الخوف ، وشيء من التساؤل :

— أهذا أنت يا لوبز ؟

— أهذا أنت يا بير ؟

ووقفا كلاهما لحظة يتسلمان ، ويفحص كل منهما الآخر بعينية ، ثم تصالحا .

وحاملا معاً الصندوق ، واخترقا به المدينة . وكان بير قد أصبح الآن شبيهاً جداً بسكان المدن إلى حد أنه شعر بشيء قليل من الحجل حينما وجد نفسه يجتاز الشوارع حاملاً صندوقاً من أحد طرفيه في حين تحمل فتاة قروية طرفه الآخر وأية قمقمة أحدثها حذاؤها الغليظ وهو يصطدم ببلاط الشارع ! ولكنه كان يشعر طوال الوقت بخجل من خجله . ماذا كانت تقول عيناها الزرقاوان الماكرتان اللتان لم تكفيا عن النظر إليه ؟ إنهما كانتا تقولان : « نعم ، لقد جئت . » وظللتا تقولان : « وليس لي أحد في هذه الدنيا سواك وهأنذا هنا . »

وسألها وهو يلقي نظرة على علبة السكبان :

— أنستطيعين العزف على هذه الآلة ؟

وضحكت الفتاة :

— أوه ، حسناً . . . ليس عزفي إلا عثياً .

وأخبرته كيف أن خادم الكنيسة الهرم الذي كانت تمشي عنده أخيراً لم يستطع أن يهبها ثوباً جديداً في يوم إقرار تعميدها فأعطاهما السكبان بدلاً عنه .

— ألم يكن لديك إذن ثوب جديد يوم إقرار تعميدك ؟

— لا .

— ولكن ، ألم يكن ذلك . . . ألم تشعرى بأنك بشيء بين سائر الفتيات الواقفات إلى جوارك وهن في لباس حسن ؟

وأغمضت عينيها لحظة ، ثم قالت :

— أوه ، نعم ... كان ذلك بشعا :

وسألته بعد قليل :

— هل سكنت عند أناس عديدين ؟

— سكنت في خمسة بيوت على ما أظن .

— بوه ... إن هذا لا يعد شيئاً ... فأنا نزلت في تسعة بيوت ، تسعة بيوت ،

وكانت الفتاة قد عادت إلى الابتسام .

وعند ما وصلا إلى غرفته وقفت الفتاة لحظة تنظر فيها حولها . وكانت الغرفة

لا تكاد تشبه ما توقعته ... وهي لم تنزل من قبل قط في بيت بالمدينة ، فالتوى أنفها إلى

أعلى قليلا عند ما استنشقت هواء الغرفة المحتبس . وبدأ لها الجو مكتوماً جداً ، ومظلماً

جداً ... وقالت :

— منضيء مصباحاً .

ولم تلبث أن ابتسمت في شيء من الحجل ، وسألته أين تنام .

وحك بير رأسه وقال :

ليتداركنا الله برحمته ... في وسعك أن تسألي ! بيد أنك ترين أن ليس هنا

إلا سرير واحد .

وما قال ذلك حتى انفجرا كلاهما ضاحكين ... واقترحت الفتاة :

— على واحد منا أن يفتش الأرض .

وقال بير مسروراً :

— تماماً . هذا هو الرأي الصحيح . لدى وسادتان تستطيمان أن تأخذني

إحداها . ولدى غطاءان صوفيان ... إنك لن تبردي على أية حال .

وقالت الفتاة :

— ثم إنني أستطيع أن ألبس ثوبي الآخر فوق ثوبي هذا . وقد يكون لديك

معطف قديم ...

— هذا رائع !.. ولن نحتاج بعد ذلك إلى شغل بالتأهب هذا الأمر .

— ولكن من أين تحصل على طعامك ؟

إنها تقصد ، كما هو واضح ، أن تستجلى كل شيء من فورها .

وشعر بير بالحجل لأنه لا يملك نقوداً تكفي لدعوتها إلى تناول العشاء . في أحد المطاعم ، فهو مضطر إلى سداد أجر مدرسه في اليوم التالي ، وصندوقه زاده في حاجة أيضاً إلى ملئه من جديد .

— وقال الفتى :

— إنى أضع القهوة على الموقد هناك لتغلي طوال الليل ، ومن ثم أجدها معدة في الصباح . وإنى أضع في هذا الصندوق الطعام الجاف . ولنبيحت الآن عن شيء من الطعام للعشاء .

وفتح الصندوق ، وأخرج منه رغيفاً وشيئاً من الزبد ، ووضع إبريق القهوة على الموقد . وقامت الفتاة بمعاونته على رفع الأوراق عن المائدة ، ووضع الطعام عليها . ولم يكن ثمة غير سكين واحد ، ولكن هذا كان في الحق أدعى إلى التلهي من وجود سكينين . ولم يلبثا أن جلسا في مقعديهما — كان لكل منهما مقعد — وقد توفر لهما تناول وجبتهما الأولى وهما معاً في المنزل الخاص بهما .

واستقر الرأي على أن تنام لويز على الأرض . وضحكا كلاهما كثيراً عند ما دثرها بعناية حتى لا تشعر ببرد . ولم يلاحظا إلا فيما بعد ، عند انطفاء المصباح ، أن زوابع الحريف هب هبوبها ، وأن هناك ريحاً شمالية غربية شديدة تزمجر في أعالي البيت . وقد رقدا هناك يتسامران في الظلام قبل أن يغلبهما النعاس ..

وبدا شيئاً غريباً جديداً لبير أن يكون معه أحد أقربائه — وأن يكون هذا القريب بنتاً أيضاً ... فتاة . وهي ترقد هناك على الأرض بالقرب منه . وقد أصبح من الآن فصاعداً مسئولاً عما عسى أن يحدث لها في هذه الحياة الدنيا ... على أي نحو سيضطلع بهذه المهمة ؟

كان في وسعها أن يسمعها وهي تتقلب على جنبها ... أغلب الظن أن الأرض صلبة :

— لويز

— نعم .

— هل رأيت أمنا أبدا ؟

— لا

— وأباك ؟

— أبى ؟

وضحكت ضحكة قصيرة .

— نعم . ألم تريه قط هو أيضا ؟

— ومن أين لى العلم بذلك يا أبلة ؟ ومن ذا يستطيع أن يقول إن أمى نفسها تعرف من هو أبى ؟ -

وتوقفنا عن الكلام قليلا . ثم جاهر بير بقوله وهو مرتبك نوعا :

— نحن وحيدان إذن ، أنا وأنت .

— نعم ، نحن كذلك .

— لويز ! أى عمل تفكرين فى الاضطلاع به ؟

— وفيما تفكر أنت ؟

وعندئذ حدثها بير عن كل خطئه . ولزمت الصمت مدة قصيرة ... لا شك أنها كانت تفكر ، وهى راقدة ، فى الأعمال العظيمة التى تنتظره .

وقالت آخر الأمر :

— أنظن ... أيتكاف تعلمى لأصبح قابلة نفقات كثيرة ؟

— قابلة ؟ ... أهذا ما تريدينه يا فتاة ؟

ولم يتمالك بير نفسه من الضحك . هذا إذن هو ما كانت ترميه لنفسها فى هذه الأيام ... منذ عرض عليها أن يدها يد العون فى هذه الدنيا .

ولم تلبث أن تجرأت على القول :

— أظن أن يدي كبيرتان جداً ؟

ولم يستطع أن يسمع همستها إلا بصعوبة .

وشعر ببربصة الحسرة ، فقد سبق له أن لاحظ كيف أن هاتين اليدين الحمراءوين الوارمتين لاتناسبان وجه الفتاة الشاحب المشرق القسمات . وكان يعلم أن الناس في الريف ، عندما تكون لأية فتاة يدان صغيرتان جميلتان ، يقولان عنهما .

« هاتان يدا قابلة »

وقال بير وهو يدور ناحية الحائط .

— لعنا ندبر الأمر على نحو ما .

وكان قد سمع أن نفقات الدراسة في مدرسة القبالة تبلغ بضع مئات من الكراونات . وقد تمر سنوات قبل أن يستطيع توفير مثل هذا المبلغ . إنها لفتاة مسكينة ، فالأمر يبدو كما لو أن عليها أن تنتظر مدة طويلة من الزمان .

واستغرقا بعد ذلك في الصمت ، وزمجرت الريح الشمالية الغربية فوق الأسطح ، ولم يلبث الأخ وأخته أن غلبهما النعاس .

وعند ما استيقظ بير صباح اليوم التالي وجد لويز مستيقظة تغلي القهوة فوق الموقد الصغير . ثم فتحت صندوقها وأخرجت منه تدورة صفراء ، وعلقتها على مسمار ، ووضعت حذاء جديدا تجاه الحائط ، وأخرجت كذلك ملابس داخلية وجوارب صوفية ، وتطلعت إليها ثم أرجعتها إلى موضعها ثانية . كان هذا الصندوق الصغير يحوى كل ما تملك من متاع الدنيا .

وبينما كان بير ينهض من فراشه صاحبت الفتاة فجأة :

« رحماك يا إلهي ! ما هذا الصوت الشنيع المنبعث من الفناء ؟ »

وأجاب بير :

— أوه ، ليس هناك شيء يستحق الانزعاج ، فماها إلا مؤجر العربات وزوجته .

إنهما يعضيان على هذا النحو في كل صباح مبارك ، وعمما قريب ستمتادين الأمر .

ولم يلبثا أن جلسا مرة ثانية إلى المائدة الصغيرة ، وأخذ يحسبان القهوة ويضحكان ،

ويتبادلان النظرات . وكانت لويز قد وجدت مندوحة من الوقت لتمشيط شعرها ،
وتدات الضفيرتان الصفراوان من فوق كتفها .

وحان وقت انصراف بير ، ونزل على السلم ركضاً بعد أن حذر أخته من الابتعاد
عن المنزل حتى لا تضل الطريق .

وقابل كلاوس بروك في المصنع ، وأخبره بعجىء أخته إلى المدينة .
وسأله كلاوس .

— ولكن ، ما ذا ستصنع بها ؟

— أوه ، ستقيم معى فى الوقت الحاضر .

— تقيم معك ؟ ولكنك لا تملك إلا غرفة واحدة ، وفراشاً واحداً يارجل !

— حسناً ... إنها تستطيع الرقاد على الأرض .

وشهق كلاوس :

— هى ؟ أختك ؟ ... عليها أن تنام على الأرض ... وأنت تنام على السرير !

وأدرك بير أنه ارتكب خطأ من جديد ، وسارع إلى القول :

— أنا لم أقصد بالطبع إلا المزاح ... إن لويز هى التى تنام بالطبع على السرير .

وعند ما عاد إلى البيت وجد أنها اقترضت مقلاة من « معلم العربات » ، وقلت
فيها شيئاً من لحم الخنزير والبطاطس المسلوقة . وعلى هذا جلسا ليطعما غداء
جديراً بأمر .

ولكن عند ما وقع نظر الفتاة على الصورة الملونة المعلقة فى الحائط وسألت
أخاها أهى لوحة مرسومة تعظم الفن من فوره :

— أهذه ... لوحة مرسومة ؟ إنها ليست إلا نسخة مطبوعة بالزيت من لوحة
أصلية يا بلهاء ! لا ، إنى سأصطحبك يوماً إلى معرض الفن ، وأريك كيف تكون
اللوحات الأصلية .

وجلس ينقر بأصابعه على المائدة ويردد قوله :

— حسنا ، حسنا ... حسنا ، حسنا ، حسنا .

واتفقا على أنه يحسن أن تشرع لويز فوراً في البحث عن عمل للمعاونة على المعيشة .
وفي أول مطعم قصدها ألحقوها في التوبالعمل في المطبخ لتغسل الأرض وتغسل
البطاطس .

وعندما حل أوان الرقاد ألح على لويز أن تحتل السرير . وشرح لها الأمر قائلاً :

— إن كل ماجرى في الليلة الماضية لم يكن بالطبع إلا مزاحاً ، فالنساء هنا في
المدينة ينان دائماً أفضل الأشياء ... وهذا ما يسمونه أدب السلوك .

وتملكه شعور غريب جديد وهو يتمدد على الأرض اليابسة . وبدأ له أن غرفته
الضيقة الصغيرة القاعة تحت سقف البيت اتسعت الآن إلى حد أن وجد فيها مكاناً لزائر .
وكان هناك شيء غير كريه حتى في الرقاد على الأرض اليابسة ما دام قد اختار ذلك في
سبيل شخص آخر .

وبعد انطفاء المصباح رقد ينصت لفترة من الزمن إلى صوت تنفسها . ثم قال
آخر الأمر :

— لويز .

— نعم ؟

— هل أبوك ... أكان اسمه هاجن ؟

— نعم . هكذا ذكر في شهادة الميلاد .

— اسمك إذن الآنسة هاجن . إن له رنيناً حسناً ، أليس كذلك ؟

— أف ... أنت الآن تسخر مني .

— وعند ما تصبحين قابلة فاعلمي أن الآنسة هاجن قد تتوفر لها تماماً فرصة
الزواج بطبيب .

— إنك لأبله ... ليست ثمة أية فرصة لتحقيق ذلك ما دامت لي مثل يدي .

— اتظنين أن يديك كبيرتان إلى حد يحول دون زواجك بطبيب ؟

— أف ! إنك محبول العقل . ها ها ها !

— ها ها ها !

واستكنا كلاهما تحت أغطيتهما وهما يشعران بالراحة والسلام المتولدين من شعور

كل منهما بأنه يقتسم غرفته مع صديق مرح المزاج .

— حسنا ، طبت مساء يا لويز .

— طبت مساء يا بير .

الفصل السادس

وانقضت الأمور على هذا النحو حتى انقضى الشطر الأكبر من الشتاء . وما دامت لويز تحصل الآن على أجر أيضا ، وتستطيع المساهمة في دفع النفقات ، فقد أصبح في وسعهما أن يذهبا إلى مطعم عمومي كل يوم ، إذا طاب لهما ذلك ، ويتغديا فطيرا محشوا باللحم عن الوجبة منه أربعة قروش ، واستطاعا أن يدبرا أمرهما ، ويشتريا لغير سريرا يمكن طيه في أثناء النهار . ولم يلبثا أن تعلما أن أدب السلوك يتطلب منهما أن يسدلا شال لويز الصوفي الكبير ، ويجفلا منه ستارا متواضعا يحجب كلا منهما عن الآخر عند خلع ملابسهما وارتدائها . وبدأت لويز تتخلى عن لهجتها الريفية ، وتحدث بلهجة أهل المدينة كأخيها .

وكانت هناك فكرة تخطر ببال بير كثيرا وهو يرقد مستيقظا :

« إن الفتاة صورة طبق الأصل من أمها ، هذا لا شك فيه ... فكيف تكون الحال لو أنها سارت على منوالها ؟ لا ، لا . إنها لن تصبح كذلك . وأنت رجل إلى الحد الذي تستطيع معه أن تتكفل بهذا الأمر ... لن يحدث شيء من هذا القبيل يا آنستي العزيزة هاجن . »

على أن كلا منهما لم يكن يرى الآخر إلا لماسا في أثناء النهار ، ذلك أنهما يفترقان منذ الصباح الباكر حتى يعود بير في المساء . وكانت لويز لا تجيب أخاها إلا بالاسترسال في الضحك إذا ما وعظها ، ونبه عليها أن تكون حذرة ، وألا تعير الرجال الذين يحاولون محادثتها اهتماما . وفي أحد الأيام ، عند ما زارهما كلاوس بروك ، وتراقت عيناها وهو يحادثها ، شعر بير بعيل شديد إلى الإمساك به من قفاه ورميه إلى أسفل البيت .

وعند ما اقترب عيد الميلاد أخذ يقضيان الأمسيات الطويلة وهما يتجولان خلال الشوارع ، ويتطلعان إلى معارض الدكاكين المضاءة التي تخطف الأبصار بعروضاتها المتلاثة الذهب والزخرف . وظلت لويز تسأل أخاها دون انقطاع كم ترى ثمن هذه السلعة أو تلك — قطعة « المذتلة » هذه ، أو تلك العباءة ، أو الجورب ، أو هذه المشابك الذهبية . . وكان بير يقول : « انتظري حتى تتزوجي ذلك الطبيب ، وعندئذ

تستطيعين شراء كل هذه الأشياء . ولم يكن لأى منهما معطف حق الآن، ولكن بير كان يرفع « ياقة » سترته إلى أعلى كلما شعر ببرد ، وكانت لويز تقيّد أكبر فائدة من ثيابها الصوفية السمكية ، ومن قفازها الريفي الجيد ، ويدفئها ذلك تماماً . وجازفت الآن بشراء قبعة استبدلت بها منديل رأسها . ولم تستطع أن تمنع نفسها من التلفت حولها ظانة أن أغلب الناس لاحظوا كم تبدو رائعة .

وفي ليلة عيد الميلاد حمل الماء في دلو من فناء البيت ، وكثر حك أرض الغرفة كلها به . ثم اغتسلاهما أيضاً بدورهما ، وساعد كل منهما الآخر بحك كتفيه وظهره على طريقة أهل الريف .

وكان بير قد صار أشبه بمكان المدينة إلى حد أنه احتفظ جانباً ببعض الهدايا لتقديمها إلى أخته بمناسبة العيد ، ولكن لم يكن لدى الفتاة التي لم تعتد مثل هذه الأمور شيء تقدمه له ، وعندما أدركت الأمر أغرقت في بكاء طويل . وأكلا فطائر مشربة بالسكر المذاب اشترياها من بائع الحلوى ، وشربا شكولاتة مغلية ، ثم عزفت لويز على كانها لحنا أجادته على قدر ما استطاعت ، وقرأ بير فصولاً من كتاب الصلوات ... وجرى كل شيء طبقاً لما اعتادوا أن يقوموا به في تروين عند حلول عيد الميلاد . وبعد أن أطفأ المصباح في تلك الليلة استلقيا على فراشهما وظلّا مستيقظين يناقشان خطط مستقبلهما . وتوعدا كلاهما على أن يعملوا ، عند ما تستقيم لهما الحال في الدنيا ، هو من ناحيته وهي من ناحيتها ، على أن يسكن كل منهما إلى جوار الآخر حتى يتمكن أطفالهما من اللعب سوياً ، ويشبوا أصدقاء ... ألم تر هي أن هذه فكرة طيبة ؟ نعم ، لقد رأينا كذلك قطما . وهل عني هو ذلك ؟ نعم ، لقد عناه حقاً دون مراعاة

ولكن حدث بعد ذلك في الشتاء أن الخوف كان يكاد يساورها وهي تجلس في الغرفة مساء في انتظاره — وكان يقضى غالباً وقتاً إضافياً في العمل ... ها هي ذى خطواته على السلم ! فإذا كانت مسرعة مثلهفة ارتجفت الفتاة قليلاً . فهو لا يكاد يدخل الغرفة حتى تنفجر صيحته : « مرحى ، يا فتاتي . اعلمي أنني تعلمت اليوم شيئاً جديداً ! » « أهذا صحيح يا بير ؟ » وعندئذ يتدفق حديثه عن « الموتورات » والقوة الكهربائية ، والآلات الضاغطة ، و« السلندرات » والآلات الرافعة وللسامير اللولبية وما إلى ذلك . وكانت تجلس منصتة باسمة ، ولكنها لم تكن تدرك بالطبع شيئاً مما تسمع . وكان بير

يشهد ثورة جامحة على أثر فطنته إلى ذلك ، ويصتها بالصغيرة البهاء

ثم هناك الليالي الطويلة التي كان يقضيها وهو جالس يقرأ في غرفته ، بمفرده أو مع مدرسه ، في حين كان عليها أن تجلس في سكون يحمل على اليأس إلى حد أنها لم تكذب تجرؤ على استعمال إبرة الحياكة . ولكنه في يوم من الأيام نبئت في ذهنه فكرة أن أخته ينبغي أن تمكف هي أيضاً على الدراسة ، وعلى ذلك عين لها نبذة تاريخية لحفظها في اليوم التالي ... ولكن لا بد من وقت لحفظها ! ... ومن أين لها هذا الوقت ؟ ثم إنه جعلها تكتب ما عليه عليها ليتحسن هجاؤها للعروف — وكانت تستسلم دائماً للنماس ، فقد غسأت أرض حجر كثيرة في أثناء النهار ، وقشرت عدداً كبير من حبات البطاطس إلى حد أنها كانت تشعر بجسمها ثقيل كالرصاص .

وكان يهب فيها صارخا ، هائجا في الغرفة رانها غاديا :

— أنصتي لي هنا يا فتاتي الطيبة ! .. إذا ظننت أنك تستطيعين إدراك الفلاح في هذه الدنيا دون أن تتعلمي فأنت مخطئة خطأ شيطانيا .

ووفق في حملها على البكاء : .. ولكن لم يطل بها الوقت كثيراً حتى حال رأسها ثائية إلى الأمام على المسائدة ، واستغرقت في النوم . وعلى ذلك أدرك أن ليس أمامه إلا أن يمينها على بلوغ فراشها ... وأن يتوخى في ذلك ما استطاع من هوادة حتى لا يوقظها .

وعلى نحو ما أصيب بير في أثناء الربيع بمرض ، وعند ما جاء الطبيب داربعيليه في الغرفة ، وتشمم هواءها وقطب :

— أنسميان هذا مكانا يسكنه آدميون ؟

وسأل لويز التي تغيبت عن عملها في ذلك اليوم :

— كيف تتوقعين أن تحتفظا بصحتكما هنا ؟

ولخص بير الذي كان يسهل وهو راقد ، ووجهه يلتهب احمرارا :

— نعم ، نعم : إن به ما توقعت تماماً ... التهابا في الرئة .

وجال بطرفه في الغرفة مرة أخرى وقال :

— من الأفضل نقله حالا إلى المستشفى .

وجلست لويز هناك مرتبة من فكرة إبعاد بير . ثم إن الطبيب نظر إليها عند انصرافه مدققاً وقال :

— خير لك أنت أيضاً أن تحرصى على نفسك قليلاً يا فتاة الطيبة ، فيبدو عليك كأنك في حاجة ملحة إلى الانتقال لغرفة لائقة يدخلها قدر أكبر من النور والهواء .

وبعد رحيله بقليل وصلت عربة المستشفى ، وأنزلوا بير من السلم على محفة ، وإذا الصندوق الأخضر القائم على أربع عجلات يفتح بابه ويبتلع المريض . وقد أبوا حتى أن يدعوها تذهب معه . وجلست في غرفتها تصعد الزفرات طوال الليل .

وكان للمستشفى من النوع العتيق الطراز الذي لا يقترب الناس منه ماداموا يستطيعون ذلك ، فإن حيطانه تبدو كأنها تنضح بالمضايقة والتعاسة اللتين تسودانه في الداخل ، فأقسامه العمومية — حيث ينزل فقراء القوم — تزدهم دائماً ازدحاماً خائفاً إلى حد أن المرضى المصابين بأمراض مختلفة كانوا يحشرون في غرفة واحدة ، وتنقل العدوى غالباً من بعضهم إلى بعض . وعند إجراء العمليات الجراحية كانوا يرتبون الأمور عرضاً على أفك وجه ... كان المريض يمدد على محفة ، وينقل عبر فناء المستشفى المكشوف — وهذا يحدث كثيراً في صميم الشتاء — ونظراً إلى تغطيته دائماً بغطاء صوفي فإن الآخرين كانوا يحسبون عادة أن حامله ينقلونه إلى دار اللوثي .

وعند ما فتح بير عينيه فطن إلى وجود رجل في قميص أبيض يقف إلى جوار قدم فراشه . وقال ذلك الرجل الذي يبدو أنه طبيب :

— حسن ، أعتقد أنه أخذ يفيق .

وعلم بير بعد ذلك من إحدى الممرضات أنه ظل فاقدًا وعليه مدة أربع وعشرين ساعة . وظل يوماً بعد يوم راقداً هناك دون أن يشعر بشيء إلا وخز قضيبي حديدي ، محمى إلى حد الاحمرار ، يخترق صدره ، ويقطع أنفاسه . وبين حين وحين كان يحضر شخص ما ، ويصب في فمه شيئاً من التبيذ الحلو ، ومن سائل النفط . وكانت هناك أيد

رفيقة تغسله كل صباح ومساء بماء دافئ . ولكن الغرفة بدأت تبدو شيئاً فشيئاً أشد نوراً . وأخذ يستطعم الثريد بعض الشيء . ثم بدأ آخر الأمر بعيز الراقدين إلى جواره في الأسرة وبخادشهم .

وكان يرقد على يمينه شاب أسود الشعر ، أصفر الوجه يشغل عاملاً في رصيف الميناء ، وله أنف مكسور . ولم يخف أن مرضه — أياً كان هذا المرض — يختلف عن داء بير ، ركان ينهال على الممرضة بشكاوى بذية العبارات مقسماً أن يبلغ الأمر للرؤساء ... وعلى الشمال من بير رقد إسكافي هزيل ، لحيته شهباء ناعمة شبيهة باللحية التي تبدو في صور المسيح، ووجنتاه تتوهجان من الحمى . وكان يموت بداء السرطان ... وفي الركن الواقع على يمينه رقد رجل له وجه كوجه صور الأنبياء ، وهيئة كهنتهم ، ويغطي رأسه وذقنه شعر أبيض كثيف . كان يكابد آخر مراحل داء السل ، وأصبح سماله يشبه صوت آلة دق المسامير . وكان يزحر قائلاً : « هو ! لو أنى أستطيع الرحيل إلى ألمانيا لبقى لى نعمة أمل . » وكان إلى جانبه فتى له لحية قصيرة ، وعينان نقاذتان . وقد فقد شيئاً من عقله ، فهو يتصور أنه « أنباشى » في فرقة الحرس . وكثيراً ما كان سائر المرضى يستيقظون مساء على صوت هبوبه منتصب القامة في فراشه ، وصياحه : « انتباه ! »

وكان هناك رجل يئن ويتأوه طوال الوقت ، ويتقلب ذات اليمين وذات الشمال بجسمه المغطى بالقروح . ولكنه موصل في يوم من الأيام إلى ابتلاع كمية من الكحول الذي يستعمل غسولاً ، ومنذ ذلك اليوم رقد يغنى ويبكي على التماقب ، وهناك أيضاً رجل أحمر اللحية ذو عوينات كان تاجراً متجولاً ، وأودع رأسه رصاصة ، ولكن الأطباء توصلوا إلى إخراجها ثانية ... وهو يرقد الآن ويحمد الله على نجاته التي تعد معجزة .

وكان غريباً في نظر بير أن يرقد مساء وهو مستيقظ وسطه هذه القاعة الكبيرة الاتساع ، المضاءة بنور المصباح الليلي الخافت ، وخيل إليه كأن أناساً من عالم الأموات يتحركون في تلك الأسرة المحيطة به ، ولكن بير كان لا يكاد يمنع نفسه عن البكاء في النهار عند ما يحضر أصدقاء المرضى وأقاربهم لزيارتهم . كان للإسكافي زوجة وابنة محضران وتجلسان إلى جانبه ، ويحدقان فيه وكأنهما لا يستطيعان أبداً أن يتركا

يموت . وكان « للنبي » أيضاً زوجة تبكى دون أن تقبل عزاء — وبدأت لكل واحد من سائر المرضى أحداً ما يسأل عنه . ولكن أين هي لويز — لماذا لا تأتي لويز أبداً ؟

وكان للرجل الراقد على عيني بير أخت جاءت تجر ذيلها في أبهة وهي في ثوبها الحريري المتسخ المتهدل وراءها . وكان حذاءها من النوع الرخيص ، ولكن قبعتها كانت أعجوبة بريشها الهائل قالت : « هالو ، يا قبيح ! كيف حالك ؟ » وجلست ووضعت ساقاً على ساق . ثم أخذت كلاهما يتحدثان في غموض عن أناس يطلقون عليهم أسماء غريبة مثل « البرغوث » و « الصرصور » و « السفينة » و « خاتم الملك » وما إلى ذلك . ومن الجلي أن أصحاب هذه الأسماء كانوا أصدقاءهم . وتوصلت في أحد الأيام إلى إحضار زجاجة صغيرة من الخمر ، استطاعت تهريبها بإخفائها تحت أغطية الفراش التي جاءت بها ، وكانت الزجاجة هدية من « الخنزير » . وما غادرت القاعة ، وخلا الجو حتى سحب جار بير الزجاجة ، وعمل على رفع سدادةها ، وعرض على جاره أن يشرب منها : « هذا توفيق يا ولدي . . . سيفيدك . » لا ، إن بير أميل إلى الامتناع عن الشرب . ثم أعقب ذلك صوت انبعث من فراش عامل الرصيف . ولم يلبث أن رقد يغنى هو أيضاً بأعلى صوته .

وأخيراً جاءت لويز في أحد الأيام . وكانت تلبس قبعتها الدقيقة ، وتحمل بيدها حزمة ، ونظرت فيما حولها وهي تدخل الغرفة ، وبدأ أن الهواء الخانق في قاعة المرضى أدار رأسها قليلاً . ولكن بصرها وقع عندئذ على بير فابتسمت وجاءت إليه على حذر ، باسطة يدها . وعجبت إذ رآته متغيراً إلى هذا الحد . ولكنها عند ما جلست إلى جوار وسادته وظلت تبتسم برغم أن عينيها كانتا تشرقان بالدمع ، وقال بير :

— ها قد جئت أخيراً إذن ؟

وقالت وهي تنهد :

— لم يسمحوا لي قبل اليوم بالدخول .

وعلم بير عندئذ أنها كانت تحضر كل يوم ليقولوا لها فقط إن مرضه شديد إلى حد لا يسمح له برؤية زائريه .

ورفع الرجل ذو الأنف المكسور رأسه إلى الأمام ليزداد تمكناً من رؤية الفتاة

الصغيرة المتواضعة . وفي أثناء ذلك كانت لويز تخرج من الحزمة هديتها التي جاءت بها — زجاجة من عصير الليمون ، وشيء من حبات البرتقال .

ولكن لم يمر على ذلك يوم أو يومان حتى حدث أمر ظلم بير يذكره كثيراً فيما توالى عليه من أيام .

كان النعاس قد تمكن منه في أثناء العصر ، وعند ما استيقظ وجد المصباح مضاء ، والبقية الباقية من نور النهار تجثم على قاعة المرضى صفراء ثقلة . . وبدأ أن سائر المرضى كانوا نائمين . وسكن كل شيء إلا الرجل المثلخ بالجراح الذي كان ينتحب في هدوء . ثم فتح الباب ، ورأى بير أخته تدخل منسلقة في هوادة وحذر ، حاملة صندوق كأنها تحت إبطها . ولم يقبل إلى حيث يرقد أخوها ، ولكنها وقفت في وسط القاعة ، وأخرجت كأنها ، وبدأت تعزف لحن عيد القيامة : « الضيف الجبار متدرعاً بعدته البيضاء . »

وكف الرجل المصاب بالجروح عن البكاء ، وفتح المرضى الراقدون في الأسرة حول المكان أعينهم . وجلس عامل الرصيف المكسور الأنف في فراشه . وصحا الإسكافي من منامه المحموم ، ورفع جسمه مستنداً على مرفقه وهمس : « إنه الخالص . . . كنت أعلم أنك ستعود إلى الأرض . » ثم ساد الصمت . ووقفت لويز هناك وهي تركز عينيها على كأنها ، وتعزف باذلة قصارى جهدها البسيط . ورفع المصاب بالسل رأسه ، ونسى سعاله ، وشد الأنباثى عضلات جسده في بطاء ليقف وقفة انتباه ، وبسط البائع المتجول يديه وشخص إلى الأمام . وبدأ كأن أنغام اللحن البسيطة بعثت في هؤلاء الأشقياء حياة ، فقد شع نورها على وجوههم . ولكن بدا لبير وهو يراقب أخته الواقفة هناك في النور الضئيل ، أنها تحوات حتى أصبحت هي واللحن شيئاً واحداً ، وأنها منعت أجنحة تخلق بها .

وبعد أن أتمت عزفها جاءت إلى فراشه في رفق ، وربت جبينه بيدها المستفخة ، ثم انسلت إلى الخارج ، وتوارت في سكون على نحو ما جاءت .

وسكن كل شيء في قاعة المرضى الموحشة مدة طويلة إلى أن غمغم الإسكافي المحتضر أخيراً : « أشكر ذاك العلية . . . كنت أعلم أنك لست بمبدأ عنا . »

وعند ما غادر بير المستشفى أخبره الطبيب بأنه من الخير له ألا يعود إلى العمل
توآ ، فعليه أن يحصل على عطلة يقضيها في الريف ، ومن ثم يسترجع عافيته . وقال
بير لنفسه : « يسهل عليك أنت أن تقول هذا » وبعد بضعة أيام عاد إلى مصنعه ثانية .

ولكنه في معاملة لأخته أصبح أكثر رعاية لها من ذي قبل ، وبحث هنا وهناك
حتى وجد لها وظيفة « حائكة » ووفر عليها مشقة مسح البلاط .

ولفرحة لويز سرعان ما بدأت تلاحظ أن احمرار يديها وانتفاخهما خفا كثيراً
عن ذي قبل . وهما في حقيقة الأمر يزدادان نعومة وحسناً بالتدريج .

وفي الشتاء التالي كانت تجلس في الغرفة إلى جوار أخيها في أثناء قراءته ، وقد
حاكت لنفسها ثوباً ومغطفاً ، وصنعت قبعة ، وعلى ذلك لم يلبث بير أن أصبحت له
سيدة صغيرة أنيقة تخرج معه للتنزه . ولكن عند ما درج الرجال على التنازل والنظر
إليها في أثناء مرورها كان يكشر عن نابه ، ويشد قبضته . وحدث أخيراً أن وصل
الأمر إلى أبعد مما تحتمله لويز ، فتعدت قائلة :

— اسمع يا بير . . . أقول لك في صراحة إنك إذا داومت على هذه الحال
فأنا لن أخرج معك .

وزمجر بير :

— لا تخافي أبداً ، فأنا مع ذلك سأتهلك برعايتي . اننا لن ندع قصة أمنا تتكرر
معك ثانية .

— حسناً ، ولكنني فتاة غير صغيرة على أية حال . وأنت لاتستطيع منع الناس
من النظر إلى يا أبله !

وفي هذا الحريف التحق كلاوس بروك بالكلية التكنيكية ، وراح الآن يحول
هنا وهناك بقية عليها شارة الكلية ، ويتباهى بحمل عصي عشى بها ، ولقافة تبغ
يدخلها . وقد نما حتى أصبح فتى ضخم الهيكل ، عريض الكتفين ، وأخذ عشى وهو
يتأيل قليلاً في خطواته ، وتدلّت خصلة كثيفة من الشعر فوق جبينه . وكانت له
طريقة خاصة في التامت ، وكأنا يقول : « أيعا كانت أهمية الأمر . فإني له متأدياً ! »

وجاء اليهما ذات ليلة ، وطلب الى لويز أن تصحبه الى المسرح ، واصطنع وجه الفتاة بالإحمرار فرحاً ، ولم يستطع بير أن يرفض الطلب . ولكنه كان ينتظرها خارج باب الفناء عند عودتهما . وجاءهما كلاوس مرة أخرى عصر يوم أحد ، وطلب إليها أن تخرج معه في نزهة بالعربة . وفي هذه المرة لم تستأذن بير في الخروج حتى بنظرة ، بل قالت « نعم » من فورها . وقال بير لنفسه : « انتظري لنرى » وعند ما عادت أخته في ذلك المساء ألقى عليها درساً قاسياً .

وبعد مدة وجيزة لم يستطع إلا أن يرى أخته تسير في تجوالها . مغمضة العينين قليلاً ، مترسلة في أحلام لا تحدته عنها أبداً . وعلى توالي الأيام ازدادت يداها ايضاضاً ، وازدادت خطواتها خفة حتى كأنها تسير على وقع موسيقى غير مسموعة . ودرجت على الترنم بالأغاني وهي تضطلع بالواجبات المنزلية ، وبدأ كأن نعمة في داخل نفسها فرحة لا بد أن تجد لها مخرجاً .

وفي يوم سبت من أيام الربيع الماضي ، دخل عليها بير الغرفة مرتدياً أحسن ثيابه ، حاملاً لفافة ، وكانت قد عادت تواء إلى البيت ، وبدأت تناول عشاءها .

— هيه يا فتاة ! هالك هذه اللفافة ! سنولم الليلة وليمة من الولائم السالفة النادرة .

— ماذا . . . علام كل هذا ؟

— نجحت في امتحان القبول بالكلية التكنيكية . . . هورا ! في الحريف المقبل . . . في الحريف المقبل أصبح طالباً !

— أوه ، هذا رائع ! كم أنا مسرورة !

ومسحت يدها ، وصاغتته .

— ها هو ذا . . . سجع وأنشوجة . . . وها هي ذى زجاجة براندى . . . إنها أول زجاجة خمر اشترتها في حياتي كلها . . . وسيحضر كلاوس فيما بعد لي شرب معنا كأساً . وهناك جينا . . . سنجمل كل شيء يترنم هذه الليلة .

وجاء كلاوس ، وشرب الشابان خمرآ ، ودخنا لفافات تبغ ، وألقيا خطاباً ، وعزفت لويز على كيانها أغاني وطنية . وتطلع كلاوس إليها . وطلب « المزيد » . . . « وانزيد » .

وخرج بير معه عند انصرافه . وبينما الصديقان يسيران في الشارع تأبط كلاوس ذراع صديقه ، وأشار إلى القمر الشاحب الذي يعتلى الفيورد ، موضحاً في الارتفاع ، وقطع على نفسه عهداً لصديقه ألا يتخلى عنه أبداً حتى يصل إلى أعلى الشجرة ... لن يتخلى عنه أبداً ... أبداً ! وقال بالإضافة إلى ذلك إنه أصبح الآن اشتراكياً ، واعتزم أن يثير ثورة على جميع الفوارق الطبقيّة ... ولويز ... لويز هي أروع فتاة في العالم أجمع ... والآن ... الآن يمكن لبير أن يعلم ... وسيان علمه الآن وعلمه فيما بعد ... أنهما ، هو ولويز ، في حكم من تمت بينهما خطبة الزواج .

ودفعه بير بعيداً ، ووقف يحدق فيه ، ثم قال :

— عد إلى دارك الآن ... اذهب لتنام .

— ها ! أنت تظن أني لم أستكمل رجولتي إلى الحد الذي أستطيع معه أن أتحدى أهلي ... أنحدى العالم بأسره !

وقال بير :

— طبت مساء .

وبينما كانت لويز ترقد في فراشها صباح اليوم التالي ... طلبت أن تفطر حيث هي على نحو ماتفه — أحيانا قليلة ... ثم بدأت تضحك على حين فجأة ، وسألته بقصد إغاضته :

— وماذا تصنع الآن ؟

وقال بير :

— أحلق ذقتي .

وكان قد شرع في الحلاقة .

— تحلق ذقنك ! أنت متاهف على أن تكون عظيماً إلى حد لم تجد معه بدا من صالح جلدك كله ؟ أنت تعلم أن ليس هناك ما تحلقه غير جلدك .

— أمسكي لسانك ، فأنت لا تكادين تعرفين شيئاً عما ينتظرني اليوم .

يحين موعد التحاقه بالكلية في الحريف ، فهو لا يستطيع منذ الآن أن يتيح لنفسه التمتع بمطلة عن العمل .

وبينما هو يبدأ العمل ذات صباح مع جماعة من زملائه في «ستينكار» حيث كانوا يصلحون عطلا أصاب آلة سفينة حبوب روسية كبيرة ، جاءت إليه لويز ، وطلبت إليه أن يتطلع إلى حلقةا وقالت :

— أشعر بألم شديد هنا .

وتناول بير ملعقة وضغط لسانها إلى أسفل ، ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا غير طبعى وقال :

— من الأفضل أن نذهب ونستشير طبيبا حق نطمئن .

ولكن الفتاة استخفت الأمر وقالت :

— أوه ، هذا أمر لا قيمة له ، ولا يستحق أن نشغل بالنا به .

وتغيب بير عن البيت مدة تزيد على أسبوع حيث كان يبست على ظهر السفينة مع سائر زملائه . وعند ما عاد من مهنته أسرع إلى غرفته وهو يفكر في لويز وحلقةا الوجيع . ورأى « معلم العربات » يقوم بتشحم عجلات عربة ، في حين اتكأت زوجته على حافة نافذة ، وأطلت وهي تفرعه . . .

وقال « معلم العربات » وهو يلتفت بوجهه ذى الأنف الاحمر الكبير :

— أختك ، إنها ذهبت إلى المستشفى . . . ذهبت إلى مستشفى الدفترى . كان الطبيب هنا منذ أكثر من أسبوع ، ومضى بها . ومنذ هذا الحين ظلوا يواصلون تحرياتهم هنا ، ويسألون عنها ، ومن عسى أن تكون ، وإلى من تنتمى . . . ولكننا لم نعلم عن ذلك شيئا . وسألوا أيضا عن مكان وجودك . . . ولم نعلم ذلك أيضا . . . كانت حالتها سيئة جدا . . . إذا ما أردت أن تسأل عن ذلك . . .

وانصرف بير مسرعا . وكان اليوم حاراً ، والهواء راكداً ثقيلًا . وظل يواصل المسير ، مجتازاً شارع البحر بطوله ، مخترقاً حى الصيادين ، قاطعاً مسافة طويلة أخرى حول الخليج ، ثم رأى عربة مقبلة صوبه . . . عربة نقل عادية عليها نهش .

وكان سائقها يجلس فوقها ، في حين يسير خلفها رجل آخر يحمل قبعته بيده .
وواصل بير ركضه ، وראה له أخيراً البناء الأصفر الطويل القائم في آخر الميناء .
وتذكر جميع الحكايات البشمة التي سمعها عن سوء معاملة المرضى بالدفتريا . . . وكيف
أهم كانوا يقطعون حلقوم المريض ليتمكنوا من التنفس ، أو يحرقون أجزاء منه بقضبان
من حديد محمى إلى حد الاحمرار — أوه ! وعند ما وصل أخيراً إلى السياج العالي ،
ودق الجرس ، وقف هناك منقطع الأنفاس ، يتصبب عرقاً ، ويعيل متكتئاً على الباب .

وكان صوت وقع أقدام يتردد داخل المسكن ، ودار مفتاح ، وأطل البواب برأسه ،
وكان أحمر الشارب ، يحيط نمش بعينيه الزرقاوين القاسيتين .

— ماذا تريد حتى تظل تدق الجرس على هذا النحو ؟

— الأنسة هاجن . . . لويز هاجن . . . أتحدثت حالتها ؟ . . . كيف . . .
كيف حالها ؟

— لو . . . لويز هاجن ؟ فتاة تدعى لويز هاجن ؟ أمي التي جئت تسأل عنها ؟

— نعم ، إنها أختي . خبرني عنها . . . أو . . . دعني أدخل لأراها .

— انتظر قليلاً . . . ألا تقصد الفتاة التي جاءوا بها إلى هنا منذ حوالي أسبوع ؟

نعم ، نعم . . . ولكن دعني أدخل .

— إننا احتملنا متاعب ومضايقات لاحد لها بسبب هذه الفتاة ونحن نبحث عن
موطنها ، وهل لها أقرباء هنا . . . ولكننا لم نستطع بالطبع ، في هذه الحالة السيئة ،
أن نبقى على رفقها مدة أطول . ألم تقابل ، وأنت في طريقك إلينا نعيشاً محمولا على
عربة نقل ؟

— ماذا . . . ماذا . . . أنت لا تقصد . . . ؟

— نعم . كان عليك أن تأتي قبل ذلك . لقد أكرت من السؤال عن شخص
يدعى بير ، وطالبت من مديرة المستشفى أن ترسل لها خطاباً إلى مكان ما . . . أليس
هو ليفنجر ؟ أنت الشخص الذي كانت تسأل عنه ؟ إنك جئت أخيراً إذن ! أوه ،
حسنأ . . . إنها قضت نحبها منذ أربعة أيام أو خمسة أيام مضت . وقد ذهبوا بها توالاً
ليدفنوها في جبانة سانت مارتن .

ودار بير ، وتطلع منه فوق الخليج إلى المدينة الراقدة من ورائه ، المضائة بنور الشمس ، المحاطة بالدخان . وبدأ يسلك الطريق صوب المدينة ، ولكن خطواته أخذت تتلاحق على نحو أسرع فأسرع ، ثم رفع قبعته أخيراً ، وجرى وهو يلهمث وينشج ... وكان الحاطر الذى يدور في ذهنه هو : أ كنت أعاقر الحجر ؟ .. ولماذا لا أفيق ؟ ما الأمر ؟ ما الأمر ؟ ... وظل يواصل جريه . ولم تبد لناظره عربية النقل إلى الآن . وكانت الشوارع الصغيرة في حي الصيادين تتعرج دائماً وتلتف . وأخيراً وصل إلى شارع البحر مرة أخرى ... وهناك ... هناك أمامه عن بعد ظهرت عربية النقل المنمهلة في مسيرها . ودارت إلى اليمين دورة تكاد تكون مفاجئة ، وتوارت ، وعندما وصل بير إلى منفرج الشارع لم يكن لها هناك أثر . بيد أنه ظل يجرى حيثما اتفق . ويبدو أنه كان في الشوارع أناس آخرون ... أطفال يطرون « بالونات » حمراء ، ونسوة يحملن سلالاً ، ورجال يلبسون قبعات من خوص ، ويمسكون بمصى يتكئون عليها — ولكن بير حدد طريقه ، وجرى قدماً وهو يدفع الناس جانباً ، ويوقع من يقف في سبيله ، ويندفع في جريه من جديد . وفي شارع الملك وقع بهمه على العربية مرة أخرى ، وبدأت أقرب إليه في هذه المرة وكان للرجل الذى يسير خلفها ، ممسكاً قبعته بيده ، شعر أحمر ملفوف الحصل ، وقد التزم في مشيته هيئة الوقار ، غامزاً ركبته في خطوه ، دافعاً طرف حذائه إلى الأمام . ولا شك أنه يكسب قوت يومه من النواح وراء الجنازات التى لا يحضرها نائح سواه . وعند ما عرجت العربية على الجبانة لحق بير بها ، وحاول أن يسايرها ، ولكنه تعثر ولم يستطع الخطو إلا بصعوبة . ونظر إليه الرجل السائر وراء العربية وسأله :

— ماذا دهالك ؟

والتفت إليه السائق ، ولكنه عاد فساق العربية ثانية من فوره :

وتوقفت العربية . ووقف بير إلى جوارها ، متكئاً على شجرة ليستعين على الوقوف . وجاء رجل ثالث — ويبدو أنه كان « التربي » — وسمع بير ثلاثتهم يتجادلون عن اللدة التى قد يضطرون إلى قضائها في انتظار القسيس . وقال سائق العربية وهو يخرج ساعة جيبه :

— هذا هو الميعاد على وجه التحديد ، أليس كذلك ؟

وأجاب « التربي » موافقاً :

— نعم . لقد قال الموظف إنه سيحضر حوالى الآن .

وتمخط ... ولم يمض غير وقت قصير حتى بدا القسيس للعيان ، مرتدياً ثوبه الأسود ، و« ياقته » البيضاء ، وهذا يدل دون شك على وجود جنازات أخرى فى هذا اليوم . وارتعى بير على مقعد ! وتبع بنظره فى بلاهة رفع النعش عن العربة ، وحمله إلى القبر ، وإنزاله إليه ... وجاء رجل له نظارة ، وأنف أحمر ، ومعه كتاب صلوات ، وأخذ يرتل شيئاً فوق القبر . ورفع القسيس المعول ... وما سمع بير صوت أول رمية تراب من المعول حتى جفل كما لو أصيب بصدمة ، وكاذ يسقط من مقعده .

وعند ما رفع بصره ثانية وجد المسكان مهجوراً ... كان الناقوس يدق ، وحشد من الناس يتجمع فى ناحية أخرى من الجبانة . وجلس بير حيث كان ، مستسلماً للسكون التام .

وفى المساء إذ جاء « التربي » ليغلق باب الجبانة اضطر إلى أن يمسك الفتى من كنفه ، ويهزه ليعيده إلى صوابه ، وقال له :

— هذا أوان إغلاق الجبانة . لابد من انصرافك الآن .

ونهض بير ، وحاول المشى . وبعد قليل خرج من الباب ، وانحدر إلى الشارع ، متمثراً دون أن يتبين ما أمامه . ثم وجد نفسه ، بعد مدة ، يصعد فى درجات سلم يملو « اسطبلا » . وما دخل غرفته حتى ارتعى على فراشه بكامل ملابسه ، ورقد هناك بلا حراك .

وتمخفضت حرارة النهار للطبقة عن وابل من المطر أخذ يتقر على السطح فوق رأس بير ، ويتدفق فى سيول من خلال الميازيب .

وجفل بير دون وعى ... إن لويز فى الخارج تحت وابل المطر ... لابد أنها فى حاجة إلى معطفها ... وهب واقفاً على قدميه فى لحظة ، وكأنه أراد أن يبحث عن المعطف ... ثم توقف مترجعاً ، وعاد فاستلقى على فراشه فى بطل .

وطوى رجليه تحته ، ودفن رأسه بين ذراعيه . وازدحم ذهنه برؤى متغيرة
متعجلة ، بالعاصفة وبالموت ، بآدميين يحيون دون حول أو قوة في عالم يحكمه القدر
الذي لا يعرف الرحمة حكماً جافياً غير مكترث .

ولأول مرة بدا كأنه يرفع رأسه إلى أعلى ... وصاح : « لأمعنى لهذا كله ...
أنا لن أحتمله . »

وعند ما حل المساء بعد ذلك ، وجد نفسه يبسط ذراعيه في حركة آلية ليردد
صلوات المساء التي حفظها وهو طفل . . . انفجر على حين فجأة ضاحكاً ، وضم
قبضتيه وصاح : « لا ، لا ، لا ... أبدأ ... أبدأ . »

وخطر له مرة أخرى أن القدر يتصف بشيء يشبه ما يتصف به ذلك المدرس ...
فهو يناصر الدين هم أصلاً في خفض من العيش : « نعم ... إن الذين لهم أهل ومأوى
وإخوة وأخوات ، ووفرة من متاع الدنيا ... أولئك هم الذين أحبيهم وأعنى بهم ،
ولكن ها هو ذا صبي وحيد في هذه الدنيا ، يناضل ويقاتل ما أمكنه ليشق طريقه ...
سأخذ منه الشيء الوحيد الذي يمتلكه ... إن هذا الصبي لا يعد شيئاً في نظر الناس ،
فلينزل به المقاب إذن لأنه فقير ، ليلق به إلى الحضيض مادام أن ليس هناك أحد يهتم
به . إنه لا يعد شيئاً في نظر أى إنسان ... لا يعد شيئاً ، » أوه ... أوه ...
أوه ! ... وضم قبضتيه ، وأخذ يضرب بهما الحائط .

لقد تحطم عالمه الصغير كله ، وتنائر أجزاء . وكفر بربه وهو في سورة يأسه .
وتبدد عالمه السماوى ، وتحول إلى سحاب ، وذهب بدا ، ولم يبق في السماء إلا فراغ ...
لا تظل ترفع يديك متضرعاً ، ولكن سر على الأرض ، وتحد الأقدار كما تحدث
ذلك المدرس . إن أمك ليست في حاجة اليك لإنقاذها ... إنها لم تعد تحيى في أى
مكان ، فقد ماتت ، ومحوات إلى تراب . والأدهى من ذلك أن هذا هو مصيرها
ومصيرك ومصير كل مخلوق في هذا الوجود .

وظل راقداً هناك ، وود لو أدركه النعاس ، ولكنه ، بدلاً من ذلك ، بدا كأنه
غاص في غسق مبهم ببيد ... غسق أخذ يهدده — يهدده فوق أمواجه السوداء
الذهبية ... وممع الآن صوتاً — ما هو هذا الصوت ؟ صوت كان ... « الزائر الجبار

في حلتها البيضاء . « أويز — أهذا أنت ... تمزفين ؟ إنه يستطيع رؤيتها الآن هناك
غلالة العسق ، ما كان أشد شحوبها ! ولكنها ظلت تمزف ... والآن أدرك ماهو
ذلك العسق .

إنه عالم قائم وراء وعى الحياة اليومية ... وهذا العالم خاص به : « يا بير ، دعني
أبقى هنا » وأجاب وشيء داخل نفسه : « نعم ، ستبقين يا لويز ... ستبقين هنا يا لويز ،
حتى وإن لم يكن ثمة خلود . » وعندئذ ابتسمت لويز ... وظلت تمزف ... أما هو
فكان كأنه يبني لها كنيسة صغيرة ذات قبة يتعدى بها سائر الكنائس ... وكأنه
يقرع يديه ، في سبيلها ، ناقوساً أبدياً هائلاً .. ماذا يحدث داخل نفسه ؟ .. ليس ثمة
أحد يواسيه ، وانتهى به الأمر مع ذلك ، وهو راقد هناك ، إلى صب شيء من قرارة
نفسه قرباناً لجميع من هم على قيد الحياة .. إلى صبه قرباناً للأرض والنجوم حتى بدا
كل شيء يتأرجح معه ، ويتأرجح فوق أمواج النشيد الهائلة .. رقد هناك وهو يغمض
عيذه بقوة ، ويمد يديه كأنه يخشى أن يستيقظ ويجد كل هذا لا يعدو أن يكون
حلماً جميلاً .

« الفصل السابع »

ما بدأ جرس الكلية التكنيكية يدق معلناً حلول الساعة الثانية حتى ظهر من الأبنية المستطيلة المتراصة فيض من الطلبة ، وأخذ يتدفق من الباب ، ويتفرق إلى حلقات صغيرة وجماعات اتخذت إلى المدينة طرقها المتعددة .

كان حشداً متنوعاً من شبان اختلفت أعمارهم وتراوحت بين السابعة عشرة والثلاثين . . . طلبة من الطراز الذي لا يتقرض ، أرسلهم أهلهم إلى هذه الكلية بحسبانها الملاذ الأخير، ذلك أن الطالب منهم .. « يمكن دائماً أن يصبح مهندساً . » .. شبان أغرار يعنون بزيتهم أكثر مما يعنون بكتبهم ، ويؤمنون « أن ينجحوا على نحو ما » دون أن يشقوا أنفسهم بالعمل .. وشبان آخرون أعداء ذوو هيئة عسكرية، دربوا ليلتهمقوا بالجيش ، ولكنهم أيضاً يمكن دائماً أن يصبحوا مهندسين . وهناك صبيان من الريف حشروا أنفسهم في السيل المنحوس من المدارس الإعدادية ، ولبسوا الآن قبعة الكلية فوق ثيابهم الريفية الرمادية الخشنة ، وراحوا يحسدون بأن ينتهوا من دراستهم في لحظة عين ، ويصبحوا رجالاً عظاماً يلبسون قمصاناً مشاة الأكمام ، وعويات ذات زنبك من ذهب .. وهناك أيضاً شبان متحمسون ، كالحو الوجوه ، أكبر الظن أن ستنتهي بهم الحال إلى أن يصبحوا مماليين .. وهناك أيضاً ممثلون سابقون قتلهم النقاد ، ولكن يبدو أنه لا يزال بهم رفق كاف « ليصبحوا مهندسين . » وبينما يسرع أولئك الشبان وهم يجتازون المدينة على طريقاتهم المرحية غير المبالية . قد يتلفت رجل أكبر سناً هنا أو هناك ، ويشيخهم بنظره ، مبتسماً ابتسامة تنم على شيء من الحزن ، فمن السهل أن يتبين المرء ما يحبسه لهم القدر فبعد انتهاء دراستهم سيتشتتون في الحياة الواسعة كأسراب الطيور المتنقلة حيث يسقط بعضهم مصابين بضربة شمس في إفريقيا ، ويقتل بعضهم بأيدي الوطنيين في الصين ، ويصبح آخرون ملوك المناجم في جبال « بيرو » ، أو مديري المصانع الكبرى في سيبيريا على بعد آلاف الأميال من وطنهم وأصدقائهم . إن وطنهم هو الكرة الأرضية بأسرها . ونليل منهم — وهؤلاء القليل ليسوا المبرزين دائماً — يقعون في بلادهم ، ويشغلون وظيفة في مصلحة السكك

الحديدية ، ويجلسون إلى مكتب ، ويرقبون ازدياد مرتباتهم بما يتقاضون من علاوة تبلغ اثني عشر جنيهًا كل خمس سنوات .

قال كلاوس لير في أحد الأيام وهما يسيران معاً صوب المدينة ، ويحملان كتبهما تحت إبطيهما :

— إن أخاك الموجود هنا ما هو إلا شيطان .

— اسمع هنا يا كلاوس ، إنى أقولها للمرة الأولى والأخيرة : كن لطيفاً ولا تدع هذا الفتى أخى ، وهناك شيء آخر .. لا تقل أبداً لأى مخلوق كلمة واحدة عن أبى إلا أنه كان مجرد مزارع .. واسمى هرلم . وقد دعيت به تسمياً باسم مزرعة أبى . تذكر ذلك جيداً ، أسمع ؟

— أوه حسناً . لا تنفعل هكذا .

— أنحسبني سأتابع لهذا الغر أن يفتصر إذ يظن أنى أريد التودد إليه ؟

وهز كلاوس كتفيه :

لا ، لا .. بالطبع لا .

وواصل مسيره وهو يصفر .

— أو تظن أنى أريد إثارة القـالـقل فى سبيل الانتساب إلى أسرته الكريمة تلك ؟ .. لا ، فقد أجد طريقة انتزع بها حقى منه ، ولكنها لن تكون هذه الطريقة .

— حسناً ، ولكن سحقتاً لهذا ، يا رجل ! أنت تستطيع دون شك أن تسمع ما يقوله الناس عنه .

وراح كلاوس يسرد قصته . إن فرديناند هولم تسبب على ما يبدو فى بأس أسرته ، فقد كف عن مواصلة دراسته فى الكلية العسكرية على زعم أن الجنود والجنديـة أشياء تضحكه .. ثم كانت له تجربة قصيرة فى دراسة اللاهوت ، ولكنه وجد تلك الدراسة أشد سوءاً ، وإذ وجد أخيراً أن الهندسة حرفة شريفة على أية حال ألقي مراسيه عند الكلية التكنيكية .. وسأل كلاوس صاحبه :

— مارأيك في هذا ؟

— لا أرى شيئاً فيه جديراً بالنظر .

— انتظر قليلاً ، فزبدة القول سوف تأتي . لقد ضرب أحد رجال الشرطة في الطريق العام منذ بضعة أسابيع .. وزعم أن الرجل أهان طفلاً .. أو شيئاً من هذا القبيل . وحدثت فضيحة رهيبة .. اعتقال ، ومحاكمة أمام المحكمة المركزية ، وحكم بغرامة مالية ، وما إلى ذلك . وماذا كان عليه أن يصنع ، في الشتاء الماضي ، إلا أن يخطب .. أن يخطب ، رسمياً وعلانية ، إحدى خادمت أمه . وعند ما طردت الأم الفتاة خفية عنه رفع راية العصيان ، وغادر البيت إلى غير رجعة . وأصبح لا يتنفس إلا ليتوعد الطبقة العليا وما حققته من أعمال بالويل والدمار .. فما رأيك في هذا ؟

— يا صديقي الطيب ، ما شأنى أنا ، وحق الشيطان ، بهذا كله ؟

وقال كلاوس :

— حسناً ، الرأى عندى أن هذه جراءة مخزية منه على أية حال . بيد أنى سأعمل من ناحيتى على توثيق معرفتى به ، إن كان ذلك فى المستطاع ... ويقولون إنه قرأ كثيراً جداً ، وعلى كتفيه رأس ألمعى .

ومنذ أول يوم دخل فيه بير السكية عرف من هو « فردناند هولم » ، وأخذ يدرسه فى اهتمام . كان ذلك الفتى فارح الطول ، منتصب القامة ، شعره أشقر عيّل إلى الاحمرار ، ووجهه منقوط بالنمش ، وله عوينات إيطارها من عظم السلحفاة . وهو لا يلبس قبعة السكية المعتادة ، ولكن قبعة رمادية من لباد مقوى . ويبدو فى حوالى عامه الرابع والعشرين ، أو الخامس والعشرين .

وقال لبير لنفسه :

— انتظر ... انتظر يا صاحبي الرفيع القدر ! .. نعم ، إنك كنت هناك دون ريب عند ما طردونى من الجبانة فى ذلك اليوم ، ولكن هذا كله لن يغنى عنك هنا . وقد يكون لك سبق على فى البداية ، ولعلك تعلمت هذا وذاك وغيرها ، ولكن ... انتظر وحسب .

ولكنه لا حظ ذات صباح ، وهو في ساحة الكلية المربعة ، أن « فرناند هولم » يتطلع إليه بدوره ، وكان في الواقع يثبت عويناته ليزداد تمكننا من رؤيته . . فدار بير من فوره وابتعد .

وفضلاً عن ذلك نقل فردناند . من فوره تقريباً ، الى فصل أطل ، بفضل حصوله على شهادة الثانوية العامة . ثم إنه التحق بفرع آخر في الكلية غير فرع بير — وهو فرع إنشاء الطرق والسكك الحديدية — وعلى ذلك لم يكن يتم بينهما لقاء قط إلا في فناء الكلية أو ممراتها .

ولكن حدث في عصر أحد الأيام أن سمع بير وقع خطوات وراءه وهو يقوم بعمله في غرفة الرسم الكبيرة ، وإذا تلفت رأى كلاوس بروك . . وفردناند هولم .

قال هولم :

— كنت أريد أن تتعارف .

وعند ما قدمه كلاوس له مد الفم يدا عريضة بيضاء في إبهامها خاتم ذو فص أحمر، وأردف :

— علمت أنك سمى ، وأخبرني بروك أن اسمك مستمد من ضيعة في الريف تسمى « هولم » :

وقال بير :

— نعم . وأبي كان مزارعاً ريفياً بسيطاً .

وتضايق على الفور من نفسه بسبب نبرات المسكنة التي بدا أنها شابت صوته .

وقال الآخر :

— حسنأ ، والأصلح هو المناسب دائماً . ولكن اسمع ، أوصات فرقة السنة الأولى الى هذا الحد من مقرر « التصميمات الهندسية » ؟ عفواً عن سؤالي ، ولكن

اعلم أننا حصلنا في الأكاديمية العسكرية على قسط كبير من هذا النوع من الدراسة ،
ولذلك تراثى ملأ ببعض الشيء عنها .

وقال بير لنفسه : « أوه ، أنت تريد أن تعدنى بقليل من إرشادك النافع إن كانت
لديك الجرأة الكافية ، أليس كذلك ؟ » ثم قال بصوت عال :

— لا ، فهذا التصميم كان مرسوماً على السبورة — وقد تركته هناك فرقة السنة
الثانية — فوددت أن أرى هل أستطيع استخلاص شيء منه .

ونظر إليه الآخر بطرف عينه ، ثم أوماً وقال :

— وداعاً ، وأرجو أن نلتقى ثانية .

ومضى إلى سبيله ، وأحدث حذاؤه صريراً خافتاً وهو يغادر الغرفة ، وبدأ أن خلقه
الطبيعى السهل ، ومشيته ، ونبرات صوته .. بدا أن هذا كله أثار بير وأشعره بالمذلة .
ولكن ، ما علينا .. دعه فقط ينتظر !

ومرت الأيام والأسابيع . ولم يلبث بير أن وجد موضوعاً يشغل نفسه به ، غير
محاولة التغلب على فردناند هولم . وكانت ملابس لويز لا تزال معلقة في الغرفة دون أن تمسها
يد ، وكان حذاؤها لا يزال موضوعاً تحت الفراش . وقد ظل يبدو له أنها ستفتح باب
الغرفة يوماً ، دون سراء ، وستدخل عليه . وفي المساء وهو راقد هناك وحده ، لم
تكن الأحجية تفارقه أبداً : أين هى الآن ؟ .. لماذا كان لابد أن تموت ؟ .. أهوان
يلتقى بها أبداً ؟ .. إنه لا يكف عن رؤيتها واقفة على نحو ما وقفت في اليوم الذى
عزفت فيه للمرضى على السكبان فى جناحهم بالمستشفى . غير أنها تلبس الآن البياض ،
وبدا من الطبيعى جداً أن تكون لها اليوم أجنحة . وهو يسمع غناءها أيضاً ...
وهذا الغناء يهزه ويهدده . وقد أصبح هذا كله عالماً صغيراً منفصلاً يستطيع أن يتخلد
منه نجمة للهدوء والتعب يوم الأحد . ولم يكن لهذا العالم صلة بالمقيدة والدين . ولكنه
كان موجوداً هناك .. وفى أثناء عمله نهائياً ، كان يستطيع أن يستشف — بوعى منفصل
كل الانفصال — الحنان كان تجرى على الأوتار ، وكأنها أمواج مائلة الى الاحمرار
تقبل عليه من بعيد ، وتغسل نفسه نغماً متناسقاً إلى حد يحمله على الابتسام دون
أن يدري .

ومع ذلك كان يحدث غالباً أن يصاب بنوع من الجوع يجعل كيانه كله يتكشف عن موجة هائلة من نعم أرغن الكنيسة . ولكنه لم يعد يذهب الى الكنيسة قط . بل إنه لم يلبسها في شيء من التحدى . ولعل الإرادة العليا هي التي انتزعت لوز منه ، وهو لن يشكرها على ذلك ، ويطأ طيء رأسه .. وكأنما أصبح نصب عينيه حساب منتظر .. حساب مع شيء بعيد ، خارج نطاق هذه الحياة — وعند ما يحين ذلك الأول ، لا بد له من أن يعمل على التمكن من شعوره بأنه حر .. حر .

وفي صباح كل يوم أحد ، عند ما تدق أجراس الكنيسة ، كان يخرج الى كتبه ، وكأنما يريد أن يجد عندها الأمان .. المعرفة .. هل تستطيع المعرفة أن تشبع جوعه الى ترائيم الصلاة ؟ .. كم من مرة وقف مشدوها أمام بعض المعجزات الصناعية في أول عهده بالعمل في المصانع ، وهو اليوم يستجمع القوة ليصنع المعجزات بنفسه . وعلى ذلك راح يقرأ ويقرأ ، ونهل كل ما استطاع نهله من مدرس أو كتاب . وفكر ، وفكر مستخلصاً المعارف لنفسه . وكانت الدروس المقررة ، والواجبات المفروضة : كافية في ذاتها ، ولكن بير لم يكف قط عن النظر الى أبعد من ذلك ، وكانت هناك بالنسبة له مسائل ومسائل متزايدة ، ومعضلات ثم معضلات جديدة .. كان هناك الجديد دائماً ، وانتقدم ثم التقدم دون انقطاع صوب المجهول . إنه لم يخط حق الآن إلا خطوة واحدة في علوم الطبيعة والرياضة والكيمياء .. وتسكن بأنه لا تزال أمامه عوالم من المعرفة ، ولا بد له أن يتقدم ويتقدم ويتقدم دون إبطاء . وهل يمكن أن يحين ذلك اليوم الذي ينبغي أن يبلغ فيه النهاية . ماهي المعرفة ؟ .. وماذا أفاد الناس من كل ما تعلموه ؟ أنظر الى المدرسين الذين عرفوا أشياء كثيرة ؟ .. هل أصبحوا أعظم من غيرهم ، وأوفر مالا ونباهة ؟ أيمكن أطول الدرس أن يبلغ بالإنسان حداً يستطيع معه في ليلة من الليالي أن يرفع إصبعاً ويجعل النجوم تنفجر غناء ؟ من الأفضل أن يسير المرء قدماً على أية حال . ولكننا نتساءل مرة أخرى : ألتستطيع الدراسة أن تقبح الإنسان نشوة صلاة الأحد ، تلك النشوة التي تلقى الضوء على جميع المشكلات ، وتسعو بالإنسان الى سعادة لا توصف حيث تمتد روحه حق تستطيع احتضان العوالم الأبدية ؟ .. حسناً .. إن الأفضل ، على أية حال ، هو أن يسير المرء قدماً .. يسير قدماً ، مبكراً وغير مبكر .

وفي يوم من أيام ذلك الربيع ، إذ بدأت أشجار شوارع المدينة تزهر ، كان كلاوس بروك ، وفردناند هولم ، يجلسان في مقهى بشارع الشمال .. وقال فردناند :

ها هو ذا صديقك يسلك طريقه .

وشاهدا بير هولم ، وهما يتطلعا من النافذة ، ماراً بمكتب البريد في الناحية للقاء
من الشارع . وكان رث للابس ، متسخ الحذاء ، يسير الهوينى وقبعته المدرسية مائلة
الى الامام ، ويبدو انه ، برغم ذلك ، مدرك لكل ما يحدث في الطريق ...
وقال كلاوس :

— ترى ما الذى يمضى فى تدبيره الآن !

— انظر هناك .. اعتقد ان هذه العربة من طراز لم يره من قبل قط . عجبا .
انه اوقف سائقها ...

وقال كلاوس ضاحكا وهو يتراجع عن النافذة حتى لا تقع عليه عين :

— اراهن وأنا مطمئن على انه قمين ان يتسلل الى ما بين عجلاتها ليقف على
شيء يريد الوقوف عليه .

وقال فردناند وهو يزحزح نظارته :

— إنه يبدو شاحبا مكدودا ، وأحسب ان أهله ليسوا ميسورى الحال ،
أليس كذلك ؟

وفتح كلاوس عينيه محققا فى جليسه :

— يحيل الى انه لا ينوء بأكداس المال .

وشربا جمعهما ، وجلسا يدخنان ويتحدثان فى شئ الموضوعات الى أن لاحظ
فردناند عرضا :

— على فكرة ... فيما يتعلق بصديقك ... هل أبواه على قيد الحياة ؟

ولم يكن كلاوس يعيل ، بحال من الأحوال ، الى الحوض فى شئون بير العائلية ،
وأجاب فى اقتضاب ... لا ، انه لا يظن ذلك .

— أخشى أننى أضايك بأسئلتى ، ولكن هذا الفتى يثير فى الواقع اهتمامى نوعا .

ففى وجهه شيء ... شيء ... يستوقف النظر ... حتى طريقته فى المشي ... أين رأيت

من يشئ مثله ؟ وقد سمعت أنه يعمل كأنه آلة بخارية ، أليس كذلك .

وكرر كلاوس القول :

— يعمل !... إن الطريقة التي يعمل بها مستدرة صحتة عما قريب . وهو يحسب ، على ما أعتقد ، أنه بالدرس الوفير سيستطيع آخر الأمر أن يعرف . ها ها ها !

— يعرف ماذا ؟

— يعرف كيف يدرك الله !

وقال فرناند وهو ينظر متفرساً من النافذة :

— إنه مضحك إلى حد كبير .

— لقد صادفته بين التلال يوم الجمعة الماضي . كان هناك يدرس الجيولوجيا ... إن كان ذلك يرضيك ... ولو كانت هناك أية محاضرة ، في أى مكان ... سواء كانت خاصة بعلم الفلك ، أو بشاعر فرنسي ، فأياك تستطيع أن تقسم مطمئناً بأنه جالس هناك يدون مذكرات عنها . إنك لا تستطيع أن تجارى فتى كهذا ! .. وقد تقع عينه على اسم جديد في مكان ما .. على أرسطو مثلاً .. إن ذلك شيء جديد ، فلا بد له إذن من الذهاب إلى دار الكتب ليبحث عنه ، ثم انه يقضى الليالي بعد ذلك ساهراً مالئاً ذهنه بترجمات إغريقية بحق الشيطان إلى كيف يمكن للمرء أن يجارى رجلاً يقتحم سبل المعارف على هذا النحو .. بيد أن هناك أمراً لا يعرف عنه شيئاً .

— وما هو هذا الأمر ؟

— حسناً .. لنقل الحمر والنساء .. والمزاج عموماً .. والله إن شيئاً واحداً ينقصه .. وهو « الشباب » .

وقال فرناند وهو يصمد شيئاً أشبه بزفرة :

لعله لم يستطع أن يوفر لنفسه مثل هذا الرغد

واستمرت جلستهما بعض الوقت . وكان فرناند يدس بين حين وآخر ، كلما وجه كلاوس غير حذر ، سؤالاً صغيراً آخر عن بير . وعند ما فرغا من شرب الكأس الثانية سلم كلاوس بأن الناس قالوا عن أم بير إنها لم تكن .. حسناً .. لم تكن خيراً عما هو حري بها أن تكون

وألقي فرناند بهذا السؤال عرضاً :

— وماذا عن أبيه ؟

وعند ذلك احمر وجه كلاوس خجلاً ، وتلعثم شاعراً بالضيق :

— ما من أحد .. ما من أحد يعرف عنه شيئاً يذكر ولو أنى عرفت شيئاً لأفضيت به إليك .. ولينزل بي العقاب إن لم أفعل .. ليست لأحد أية فكرة عمن يكون . وأغلب الظن هو .. هو في أمريكا .

وقال فرناند ضاحكاً :

— لقد لاحظت أنك تبدو دائماً شديد الغموض عند ما تعرض لموضوع أسرته .

ولكن خطر لكلاوس أن شيئاً من الشجوب بدا على صاحبه .

وبعد بضعة أيام ، بينما كان بير جالساً وحده في غرفته فوق « الاسطبل » ، سمع وقع خطوات على السلم ، وفتح الباب ، ودخل فرناند هولم .

ونفض بير مكرها ، وأمسك بظهر كرسيه كأنما أراد أن يحفظ توازنه . إذا كان هذا الغرق قد أتى — موفداً مثلاً من قبل ذلك المدرس — أو ليس له لقيه — فهو سيلقيه إذن فوق السلم .. هذا كل ما هنالك .

وبدأ الزائر يقول وهو يضع قبعته جانباً ، ويجلس في أحد المقاعد :

— فكرت في أن أزورك وأرى أين تقيم .. يبدو لي أني جئت على غرة بؤسفي أني أزعجتك ولكن الواقع أن هناك أمراً أردت أن أحدثك في شأنه .

— وجلس بير بعيداً عن زميله إلى أقصى حدوده، لكن أن يبدل لائقاً ..

— أوه ، أهكذا الأمر ؟

— أنا لاحظت ، حق في المرات القليلة التي تقابلنا فيها ، أنك لا تميل إلى . حسناً ، ولكن اعلم أن هذا أمر لن أصبر عليه .

وسأله بير وهو لا يكاد يرفأضحك أم لا :

— ماذا تقصد ؟

— أريد أن نصبح أصدقاء . هذا كل ما في الأمر . وإملك تعرف عن أشياء كثيرة تزيد على ما أعرفه عنك ، ولكن هذا لا يهم . عجباً .. أنت تنقر دائماً بأصابعك على المائدة هكذا ؟ ها .. ها .. ها ! ماذا ، لقد كانت هذه عادة أبي أيضاً .

وحملق بير في جليسه ملتزماً الصمت ، ولكن أصابعه توقفت عن النقر .

— اعلم أنني حري أن أحسدك على الحياة التي تحياها . وعند ما تصبح مليونيراً سيكون لك ماضٍ لائق بعلايتك . ولا بد أنك ستعرف عندئذ عن الحياة أكثر كثيراً مما نعرف نحن .. ولا بد أن يكون العلم الذي تستخلصه أنت من الكتب ذا قيمة روحية تختلف كل الاختلاف عن القيمة التي نستخلصها نحن جميعاً .. نحن الذين زودونا على نحو آلي بالدروس والتعليم وما أشبه منذ كنا أطفالاً .. وهل أنت تزمع الآن دراسة الهندسة ؟

وقال بير :

— نعم .

وأضافت هيئة وجهه هذه العبارة في وضوح :

— وما شأنك أنت بهذا ؟

— حسناً . يخيل إلي أن « التكنيكي » المعاصر كاهن « على طريقته » ..

أو لعله حري أن أدعوه خلفنا لبرومثيوس^(١) القديم الذي هو أيضاً سلف جدير بالاحترام الكامل ، ألا تظن ذلك ؟ ولكن ألم يطرق ذهنك قط أن كل انتصار تحرزه فطنة الإنسان على الطبيعة يستخلص من يد الأقدار جزءاً من القدرة الإنسانية ؟ .. إنني أشعر دائماً كما لو كنا نستعمل النار والصلب والقوى الميكانيكية ، وانفكر الإنسان ، أسلحة تمرد على استبداد الأقدار . وسيجل اليوم الذي أن يحتاج فيه الإنسان إلى الاستعانة بالصلاة^(٢) ، متدق الساعة التي تضطر فيها قوى الأقدار أن تستسلم وتخضع بدورها .. إن الله لا يحب المهندسين .. هذا رأي .

وقال بير في إيجاز :

— هذا القول يبدو حسن الوقع .

ولكنه أقر لنفسه أن صاحبه عبر عن شيء كان يناضل في ذهنه التماساً للتعبير .

واستطرد فردناند يقول :

— في الوقت الحاضر ينبغي لنا نحن الاثنين بالطبع أن نقنع بأمور أصغر شيئاً . ولست أجد بأمراً في الاعتراف بأن تمهيد جزء من طريق ، أو مد جزء من سكة حديدية ، أو إقامة جسر على خندق ، ليست بالأعمال التي تستعملني أشد الاستمالة . ولكن إذا استطاع الإنسان أن يخرج إلى العلم الفسيح فهناك أشياء كثيرة واجبة التحقيق تتيح له فرصاً كثيرة لتطوير ما بنفسه . لو حدث وكان بنفسه شيء ما . وقد اعتدت أن أحسد العسكريين العظام الذين رحلوا إلى أقاصى الأرض ، وقهروا القبائل المتوحشة ،

(١) برومثيوس في الأساطير الأغريقية هو الذي وهب الإنسان النار فأغضب ذلك جوبيتر الذي قيده بصخرة في القوقاز وسلط عليه نسرأ يأكل كل يوم كبده التي كانت تتجدد وظل الأمر كذلك حتى أنقذ هرقل الأسير .

(٢) يقصد المؤلف أن هذه هي خواطر الشباب المتمرد ، ولكن سيتضح في سياق القصة ، بعد أن يجرب أولئك الشباب ، أن الإنسان لا يستطيع أن يستغني عن خاتمه .

وأسسوا الامبراطوريات ، وأشاعوا النظام والحضارة أينما حلوا^(١) . ولكن المهندسين في أيامنا الراهنة يستطيع هو أيضا أن يجد مهامما يستطيع القيام بها فيما إذا خرج إلى العالم .. إنه يستطيع أن يحفر المصاريف المستقدمات تباع آلاف الأميال المربعة ، وأن يتحكم في مياه النيل ، أو يصل ما بين أوقيانوسين .. هذا هو نوع الأعمال التي سأضطلع بها يوما ما .. إنني سأرحل على أثر إتمام دراستي هذا . وسوف تترك للمهندسين المقبلين .. ولنقل إن ذلك سيتم في مائتي عام أو ما يقارب ذلك .. سوف تترك لهم بدء إقامة خطوط جوية للسائحين بين النجوم .. أسمح لي أن أدخن سيجارة ؟

وقال بير :

— لا .. تفضل ودخن .. ولكن يؤسفني ألا تكون لدى سيجائر ..

— أنا عذري .. شكراً على أية حال .

وأخرج فردناند علبة سيجائره ، وأشعل لنفسه سيجارة عندما اعتذر بير عن أخذ واحدة .. وقال :

— اسمع . ألا تود أن تخرج معي ، وتتغدى في مكان ما ؟

وحلق بير في زائره .. ما القصد من هذا كله ؟

أنا اسبارطى من حيث المبدأ ، ولكنهم انتهوا أخيراً من تقسيم تركية أبي ، وأصبحت بذلك أملك نفوداً في الوقت الحاضر ، فذاذا لا أقم لك وليمة غداء صغيرة احتفالاً بهذا ؟ وإذا أردت استبدال ملابسك فإنني أستطيع انتطارك في الخارج .. ولكن تعال كما أنت .. هذا إذا آثرت ذلك بالطبع .

وازدادت حيرة بير شيئاً فشيئاً . أهنالك أمر مقصود من وراء هذا كله أم أن

(١) لم تقصد الدول الاستعمارية من غزواتها إلا استغلال الشعوب ، ولكنها تنسّر دائماً وراء ادعاء نشر الحضارة ، ودعواها هذه أصبحت اليوم مفضوحة لا يجهل حقيقتها أحد .

الفتى ببساطة من صنف طيب الى حد يثير الدهشة ؟ وأذعن له آخر الأمر فبدل « ياقه » قميصه ، وارتدى أحسن ثيابه ومضى معه .

ولأول مرة وجد نفسه في مطعم من الطراز الأول يضم موائد صغيرة مغطاة بأغطية ناصعة البياض ، وأزهاراً في آنية زحرفية ، ومناشف ملفوفة على هيئة أقماع السكر ، وكؤوساً زجاجية مزركشة ، وأقداح نبيذ ملونة . وبدأ على فردناند أنه معتاد على مثل هذه الجلسة تماماً ، وعامل رفيقه بمعاملة ودية . وعمل خلال تناول الطعام على إدارة الحديث ، في معظمه حول طفولة بير وأيام صباه .

وعند ما انتهيا من تناول القهوة والتدخين مال فردناند فوق المائدة صوب رفيقه وقال :

— اسمع ألا تظن أنه ينبغي لنا أن نسقط الكلفة بيننا ، ولا نتنادى بالألقاب ؟

وقال بير ، وقد تأثر الآن فعلاً :

— أوه ، نعم !

— كلانا يدعى هولم كما تعلم .

— نعم . هذا صحيح .

— وفضلاً عن ذلك من يدري ألا تكون بيننا صلة من نوع ما ؟ دع عنك هذا الآن ، ولا تبد هكذا ! أنا لا أريد منك إلا أن تنظر إلى على أنى صديقك الحميم ، وأن تلجأ إلى فيما إذا كانت هناك أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك . وليس هناك ما يدعونا بالطبع إلى أن يعتمد كل منا على الآخر عند ما يكون الناس على مقربة منا ، ولكن يجب أن نضم كلاوس إلينا ، ألا ترى ذلك ؟

وشعر بير بدافع قوى يدفعه إلى الهروب . أيعرف رفيقه الأمر كله ؟ ... إن كان الأمر كذلك فلماذا لا يجاهر في صراحة .

وبينما هما يسيران عائدين إلى دارهما تحت الضوء الصافي في ليلة من ليالي الربيع تأبط فردناند ذراع رفيقه وقال :

— لست أدري هل بلانك أتى على غير وفاق مع أهل بيتي ... ولكنني في نفس المرة الأولى التي رأيتك فيها خالجت شعور بأن كلامنا ينتمي إلى الآخر . ويبدو على نحو ما أنك تذكرني بـ ... حسناً ، أقول لك حقاً إنك تذكرني بأبي ... ودعني أقل لك إنه كان سيداً نبيلاً ...

ولم يحرر جواباً . وتوقف الأمر عند هذا الحد .

ولكن الأيام القليلة التالية كانت مثيرة لبير . وهو لم يستطع أن يتبين مدى ما يعرفه فردناند عنه . وليس ثمة شيء في الدنيا يمكن أن يحمله على أن يفضي هو نفسه بأي شيء جديد . ولم يسأله صاحبه أية أسئلة أخرى ، بل كان مجرد صديق من الطراز الأول يعامله كما لو أن صداقتهما ترجع إلى سنوات خلت . ولم يعاود حتى سؤاله عن طفولته ، ولم يشر مرة أخرى قط إلى أسرته هو . وظل بير يذكر لنفسه دائماً أنه لا بد من بقائه على حذر ، ولكنه لم يستطع ، على أية حال ، أنه يجد مهرباً من الشعور بالغبطة كلما قدر لهما أن يتقابلا .

وقد دعى ذات مساء ، هو وكلاوس ، إلى حفلة شراب في بيت فردناند ، ووجد نفسه في غرفة بديعة الأثاث ذات لوحات معلقة بالحيطان ، وصور فوتوغرافية لأفراد أسرة المضيف من بينها صورة لأبيه وهو بعد شاب يرتدي السترة العسكرية ، وصورة أخرى لجده الذي كان قاضياً من قضاة المحكمة العليا ... وقال فردناند مبتسماً :

— ياله من لطف بالغ منك أن تهتم بأهلي كل هذا الاهتمام .

وتنقل لحظ كلاوس من أحدهما إلى الآخر ، وتساءل في سره عن حقيقة الأمور القائمة بينهما .

وحلت عطة الصيف ، واستعد الطلبة للتفرق وانصراف كل إلى سبيله . وأقبل فردناند يوماً على بير وقال له :

— اسمع يا صديقي ، إنني أرجوك أن تسدي لي معروفاً كبيراً ... لقد رتبت أمري على قضاء هذا الصيف على شاطئ البحر ، ولكن لدى فرصة أيضاً للاصطياف فوق التلال . وأنا لا أحتطع أن أحضر بمكانين مختلفين في وقت واحد ... فهل

بوسمك الذهاب الى أحدهما نيابة عني؟ وسأدفع بالطبع جميع النفقات .

وقال بير ضاحكا :

— لا ... شكراً

ولكن عندما أقبل كلاوس بروك في اللحظة السابقة على اقتراق الصديقين قال :

— اسمع يا بير ، ألا تظن أنه يمكن أن أشارك معك في وضع لوحة مرمرية على ... قبر لويز ؟

وتأثر بير ، ورأيت كتفه وقال :

— يا لك من صديق طيب يا كلاوس .

وفي أواخر الصيف قام بير وحده بجولة في أنحاء الريف ، وكان يذهب إلى إحدى الضياع ، كلما وجد الفرصة متاحة ، ويقول لأهلها : « أنزغبون في الحصول على خريطة جيدة لضيعتكم ؟ إن ذلك يكلفكم عشرة « كراونات » بالإضافة إلى نفقات إقامتي في خلال قيامي برسمها » وجعله ذلك يقضى عطلة ممتعة حقاً ، وعاد إلى بيته وفي جيبه مبلغ قليل من المال ينفعه .

وكانت سنته الدراسية الثانية في الكلية شديدة الشبه بسنته الأولى . وبذل جهده في العمل . وكان صديقه يحضران بين الحين والحين ، ويدفعانه إلى قضاء ليلة لهو وأنس . ولما كان بعد أن يصبح مرحاً مع الآخرين ، وينفى ويصبح وسط المدينة المستسلمة للنوم .. وبعد أن يخلو آخر الأمر الى نفسه ، راقداً في فراشه تحت ستر الظلام ، كانت حياة جديدة مختلفة أشد الاختلاف تبدأ بالنسبة له وهو ينفرد وجهها لوجه بأعماق نفسه . الى أين أنت سائر يا بير ؟ وأي هدف تستهدفه من وراء جهودك ؟ .. ويحاول الفتى أن يجيب متورعاً كما يفعل في قيامه بصلوات المساء .. أين ؟ ولم السؤال .. إنني سأصبح بالطبع مهندساً عظيم القدر . . وماذا بعد ؟ .. سأصبح واحداً من أبناء برومبيوس الذي رأس الثورة على آلهة الأساطير . وماذا بعد ؟ .. سأساعد على رفع السلم الهائل الذي يستطيع الناس أن يتسلقوه ، ويرتفعوا الى قمم أعلى وأعلى صوب النور والروحانية والتسلط على الطبيعة . . وماذا بعد ؟ .. أعيش سعيداً وأتزوج

وأرزق أطفالاً ، وأهبي بيتاً نفماً جيلاً . . . وماذا بعد ! أوه حسناً ، لا بد أن أهرم بالطبع في يوم من الأيام وأموت . . . وماذا بعد ؟ . . . نعم ، ماذا بعد ؟

وفي هذه الآثناء كان يجد راحة غامضة عند ما يلوذ بالعالم الذي وقفت فيه لوي . . . مسترسلة في العزف على نحو ما كان يراها دائماً . . . ويتأرجح على أمواج موسيقاها الناعمة القرمزية . . . ولكن لماذا كان يشعر هنا ، على الأخص ، بذلك الجوع الم . . . الى شيء يزيد على الواقع ؟

وأتى فردناند دراسته في الكلية ، وخرج ، كما قال فيما مضى ، الى العالم الفسيح ، ورحل كلاوس معه . وعلى ذلك كان يرى بمفرده غالباً في أثناء سنته الدراسية الثالثة ، وكان يتأبط كتيبه دائماً ، ويبدو منحنيّاً الى الأمام .

وفي نفس الآونة التي كان يستعد فيها لامتحان آخر العام وردت إليه رسالة من فردناند رسالة إليه من مصر . وقد جاء فيها « تعال إلينا هنا أيها الصديق . لقد التقمنا أخيراً بوظيفتين طيبتين في شركة بريطانية . . . شركة براون بروس اللندنية — وهي تقيم سككا حديدية في كندا ، وجسوراً في الهند ، وتبنى موانئ في الأرجنتين ، وتحفر قناة وتقيم سدوداً هنا في مصر . . . ونحن نستطيع أن نلحقك بوظيفة صغيرة لطيفة . . . وظيفة رسام تبدأ حياتك العملية بها . . . وإنى أرفق بهذا الخطاب مبلغاً من المال لنفقات سفرك ، فتعال إذن »

ولكن بير لم يرحل الى صديقيه على الأثر ، بل قضى عاماً آخر في الكلية عمل خلاله مساعداً للأستاذ المحاضر في الميكانيكا ، وواصل في الوقت نفسه دراسة هندسة الطرق والسكك الحديدية كما فعل أخوه من أبيه . فقد كان هناك دافع غريزي ما يلح عليه ألا يتخلف عنه حتى في هذا .

وبينما العام يمر ازدادت رسائل صديقيه إلحاحاً وإغراء على التوالي ، وكتب له كلاوس يقول : « إن المهندس في الخارج هنا رسول لا يبشر بالله ولكن بقدرة أوربا وثقافتها . وعليك يا صديقي أن تشترك في هذا . . . هنا عمل ينتظرك جدير بقائد عظيم . »

وأخيراً ، في يوم من أيام الحريف ، عند ما امتدت أشجار الغابات صفراء اللون حول المدينة ، غادر بير بيته مستقلاً عربة ، حاملاً حقيبة سفر كبيرة جديدة ، ربطها

الى جانب السائق . وكان قد عرج على الجبانة قبل بدء رحيله ، وحمل معه باقة أزهار صغيرة ليضعها على قبر لويز . ومن ذا يستطيع أن يعرف هل يرى ذلك القبر ثانية ؟

ووقف في محطة القطار لحظة وهو يدور بعينه الى المدينة القديمة وكاتدرائيتها ، وقلمتها القديمة ، حيث يروح ديدبانها ويندو تجاه خط الأفق . . . أهذه هي نهاية صباه ؟ . . . نهاية لويز . . . والفرقة القائمة فوق الأسطبل . . . والمستشفى ، والمصحة والكلية . . . وهناك ينبسط الفيورد . . . وفي مكان ما على الشاطئ ، بعيد كل البعد ، يقع دون شك كوخ من أكواخ الصيادين ؛ صغير أشهب ، به زوج طيبة تملأ وجهها البشور ، ورجل طيب مقوس الساقين ، لعله تسلم الآن « طرد » البن والقهوة المرسل إليه هدية وداع

وهكذا رحل بير الى العاصمة ؛ ومن ثم الى العالم الفسيح .

الكتاب الثاني

الفصل الأول

مضت سنوات ... سنوات كثيرة العدد ... وحل الصيف مرة أخرى ، وحل شهر يونيو . وكانت باخرة ركاب ، آتية من « أنتويرب » الى كريستيانا ، تشق ذات مساء بحراً بلغ من هدوئه التام أن بدا كأنه مرآة كبرى ملامى بسحب شهباء ، وأخرى ملونة باللون الأحمر . وكان على ظهر الباخرة ركاب عديدون لم يشعر أى واحد منهم بميل إلى النوم ، فالجو دافئ كل الدفء ، جميل كل الجمال . وكان بعض الفنانين العائدين الى وطنهم من باريس أو ميونخ ينطلقون هنا وهنا باحثين عن متع يزجون بها الوقت . وهناك آخرون طلبوا نبيذاً ، واكتشف غيرهم من يعزف لحنا موسيقيا . ولم يلبث الرقص أن حمى وطيسه دون أن يعلم أحد كيف حدث هذا . وقالت واحدة من الأمهات الحذرات ... أو اثنتان منهن ... قالت هذه وتلك لابنتها : « لا ، يا عزيزتى ، لا بالتأكيد . » ولكن لم يعص على اعتراض الأمهات وقت طويل حتى أخذن يرقصن هن أيضاً . ثم ظهر هناك طبيب ذو عوينات يقف على برميل ، ويلقى كلمة . ولم يلبث أن أمسك اثنان من الفنانين بالربان ذى اللحية الشهباء وطاقوا منوهين به فى أرجاء ظهر الباخرة . ولكم كان الليل صافياً ، والسماء بديمة الحمرة ، والهواء ناعماً ! ... وكانت جميع القلوب هنا فى عرض البحر تشعر بخفة الطرب والسعادة .

وسأل الرسام ستوريكر صديقه المثال براآس :

— من هذا الثقيل ذو الوجه الجامد الذى يبدو هناك شديد التعاطم والتعالى على الفكاهة الخفيفة اللطيفة ؟

— هذا الرجل لا ... أوه ، إنه هو الذى أنار أذهاننا على نحو خارق للمادة عند ما كنا نتحدث وقت الغداء عن الآنية المصرية .

— هذا صحيح والله ! ... أظن أنه يشتغل بالتدريس فى الخارج وعند ما أخذنا

تحدث عن أئتنا ، وعن النحت الإغريقي تفضل علينا و صوب معلوماتنا عن هذا الموضوع أيضاً

— إني سمعته هذا الصباح ينوء للطبيب بعلم الآثار الآشورية ، فلا عجب إذا هو لم يرقص مع الراقصين !

وكان الراكب الذي يتعدثون عنه رجلاً ربعة القامة تتراوح سنه بين الثلاثين والأربعين على ما يبدو ، يضطجع متمدداً على مقعد من مقاعد الباخرة ، متباعداً قليلاً عن سائر الركاب . وكانت ثيابه كلها رمادية اللون ابتداء من قبعة سفره الى غطاءى حذائه الأسمر . وكان وجهه شاحباً ، ولحيته السوداء يخطها الشيب . ولكن عييه لم تحمل من ومضات سرور طفيفة وهما تتابعان الراقصين . كان هذا الرجل هو بير هولم.

وبينما هو جالس هناك يرقب ما يحدث ضايقه أن يشعر بمجزه عن ترك نفسه تنطلق مثل الآخرين . ولكن وقتاً طويلاً جداً كان قد مضى على اختلاطه بأبناء وطنه الى حد أنه يشعر الآن بعدم ثبات قدميه ، وبأنه يكاد يكون غريباً بينهم . وفضلاً عن ذلك فإنهم سيشاهدون بعد بضع ساعات جزائر الصخر على شاطئ التروج . وأثارت هذه الفكرة في نفسه انفعالا غريباً ... كانت هذه لحظة حلم بها مراراً وتكراراً هناك في العالم الخارجى الفسيح.

وبعد فترة من الوقت خيم السكون على ظهر الباخرة ، ونزل إلى أسفل ولكنه تمدد على فراشه دون أن يخلع ملابسه ، وفكر في تلك الآونة التي قطع خلالها ذلك الطريق راحلاً الى العالم الخارجى ، فقيراً مغموراً وأخذ يرقب آخر جزيرة من جزائر وطنه وهى تفوح وراء الأفق . وكم من أحداث وقعت منذ ذلك الوقت ... وأية حياة تنتظره الآن هنا وقد عاد أخيراً الى وطنه ؟

وصعد الى ظهر المركب ثانية بعيد الساعة الثانية صباحاً ، ولكنه وقف ساكناً ذاهلاً إذ وجد الباخرة تشق طريقها بين سدائل صوفى كثيف من الضباب وقال لنفسه « يا للشيطان ! » وبدأ يذرع ظهر السفينة راثماً غادياً : قد الصبر ، وبدأ أن اللحظة

العظيمة المرتقبة أضاعها الضباب وأفسدها ! ولكنه تواف فجأة عند حاجز السفينة ، وبقي هناك يحدق في الناحية الشرقيه .

ما هذا ؛ هناك بقعة متألقة بدت عن بعد في أعماق الضباب الشبيه بالصوف . وأخذت الكتلة الرمادية المحيطة به تنتعش ، وبدأت تتحرك وتحمر ، وتقل كثافتها حتى لكانها تفساب متحولة الى لهب... آه ! لقد عرف الآن الأمر ! إنه قرص الشمس يصعد من ماء البحر . وأخذت كل بقعة على ظهر الباخرة مبللة بأنداء المساء تسطع في لون الذهب . وأخذ الجو يزداد في كل لحظة وضوحا وخفة ، وازداد مرمى النظر اعتمادا . وقبل أن يستطيع التنبه الى ما يحدث تسكورت الشبهة المظلمة متحولة الى ربي وجبال أخذت تزداد خفة وتسبح الى أعلى وتبتدد . وانبسط هناك الصباح الساطع بعد أن انكشف كل خفي ، وخيمت على البحر سماؤه الصافية الطافحة بأضواء الشمس .

وحان الآن وقت إخراج منظاره المكبر . ووقف هناك بلا حراك مدة طويلة محققا من خلال عوينات المنظار في اهتمام .

هناك ! .. أهذا وهم منه ؟ .. لا ، إنه يستطيع الآن أن يرى أمامه عن بعد ، في وضوح ، شقا أشد سوادا بين السماء والبحر ... إنها الجزيرة الصخرية الأولى ... إنها التروج ظهرت أخيراً !

وشمر بير فجأة بصعوبة التنفس ، ولم يستطع الوقوف دون حراك إلا بصعوبة ، ولكنه كان يتوقف عن مسيره المرة تلو المرة لينظر ثانيا الى الشق الأشهب البعيد كل البعد . والآن ظهرت أيضاً طيور البحر بأعناقها الطويلة ، وأجنحتها التي تخفق في سرعة ... مرحباً بك في وطنك !

إن الباخرة تشق الآن طريقها بين الجزائر الصخرية ، ومن كل ناحية يتكشف عالم من الصخور والجزائر الصغيرة . وهناك بدا أول كوخ أحمر من أكواخ صيادي السمك . ثم الطريق المؤدى الى رمال كوستيانا بين التلال المغطاة بالغابات ، وبين الجزائر التي تسطع فيها الأكواخ البيض التي تقع أمام كل منها بقعتها الخضراء المكسوة بالحشائش ، وسارية عليها .

وراقب بير ذلك كله ، ونهل منه وكأنه يجد فيه غذاء . ما أطيب مذاق هذا

جميعه ... وشعر بأنه سيمر وقت طويل قبل أن يرتوى منه إلى حد الشبع .

ثم سارت الباخرة إلى جانب الشاطئ في يوم ساطع الشمس دون انقطاع ، وليل مضيء دائماً . ثم رأى الخلدجان الزرق مع أسراب طيور الماء التي ترفرف فوقها ، ورأى الثغور الصغيرة مع بيوتها الخشبية المستطيلة البيضاء ، ونوافذها المزدانة بالأزهار . إنه لم يمر من هذه الجهة قبل اليوم قط ، ولكن شيئاً في أعماق نفسه بدا كأنه يوحى إليه ويقول : « إنني أعرف نفسي ثانية هنا . » وانتشرت على طول الطريق إلى فيورد كريستيانا رائحة أوراق الشجر والمروج . وقامت المزارع الكبيرة إلى جانب الشاطئ ساطعة تحت أضواء الشمس . . هكذا تبدو المزرعة الكبيرة إذن . وأوماً ثانية . كم كان كل شيء دافئاً مشمراً عزيزاً عليه بحسبانه جزءاً من وطنه . ولكنه لم يجهل ، على الرغم من كل شيء ، أن حاله لن يكون أحسن كثيراً ، وهو في وطنه ، من حال سائح عابر . لم يكن هناك أحد ينتظره ، ويضمه إليه . يبدو أن الأمور قد تتغير كل التغير في يوم من الأيام .

وبينما كانت الباخرة تقترب من رصيف ميناء كريستيانا اصطف سائر الركاب عند حاجز ظهر المركب ، وصعد إليهم الأصدقاء والأقرباء ، وكانت هناك دموع وضحكات وضم وتهييل . ورفع بير قبمته وهو يهبط من ممر الباخرة ، ولكن لم تتح لأحد ، في هذه الآونة ، مندوحة من الوقت ليفطن إليه . وعند ما وجد حمالاً من حمالي الفنادق عهد إليه الاهتمام بأمته ، سار وحده خلال المدينة وكأنه أحد الغرباء .

وكانت أضواء المساء قد جعلت النوم عسيراً — فهو قد نسى فعلاً أن المدينة تظل مضادة طوال الليل . وهذه المدينة من عواصم المدن . . ولكنها مع ذلك صغيرة إلى حد مؤثر ، فهو أينما سار يبدو له أنه لم يقطع إلا خطوات قليلة . وهؤلاء هم مواطنوه ، ولكنه لا يعرف من بينهم أحداً . . ليس شئاً فرد واحد يحويه . وعاد مع ذلك فقال لنفسه إن هذا كله قد يتغير كل التغير في يوم من الأيام .

وحدث أخيراً أن سمع صوتاً يقول وراءه وهو واقف يتأمل « قترينة » أحد الحوانيت :

— ماذا ! ليتداركني الله برحمته ! إنه بير هولم دون أدني ريب !

كان المتكلم أحد زملائه الطلبة في الكلية التكنيكية اسمه « رايدر لوجبرج » ، وهو فق شاحب الوجه ، نحيل كما كان دائماً ، وكان نجماً لامعاً في الكلية ، ولكنه الآن .. لكنه يبدو الآن رث الهيئة .. مضطرباً ، متقدم السن .

وقال بير وهو يشد على يذميه :

— أنا لم أكد أعرفك .

— وأنت مليونير .. هكذا يقولون .. ومشهور في العالم المتراعى الأطراف ؟

— لم يبلغ الأمر هذا الحد من سوء يا صديق العزيز .. ولكن ما حالك أنت ؟

— أنا ؟ أوه ، لا تتحدث عني أنا .

وبينا هما يسيران معاً في الشارع أفاض لانجبرج في الحديث عن قصته ، وعن الحال كيف بلغت من سوء حد اليأس ، وعن ظروف المعيشة هنا في وطنه كيف أنها باختصار تكتم الأنفاس . فهو منذ عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً بدأ يعمل رساماً في مصلحة السكك الحديدية ، وهو لا يزال يعمل هناك كما كان مع أن له أسرة يتزايد عدد أفرادها .. وأى مرتب .. أى مرتب أتقاضاه أيها الصديق العزيز ! .. ورفع عليه إلى السماء ، وضم قبضتيه في يأس . وقاطمه بير قائلاً :

— أنصت إلي ، ابن خير مكان في كريستيانا نذهب إليه لنقضي وقتنا طيباً في المساء ؟

— حسناً .. هناك « سانت هانز هيل » مثلاً ، وبه فرقة موسيقية .

— عظيم — أتأني وتتمشى معي الليلة هناك ... وهل توافق على الاقامة في الثامنة ؟

— شكراً ... أحسب أنني سأحضر !

ووصل بير في ميعاد مبكر ، واحتل منضدة قاعة في شرقية . وظهر لانجبرج بعد ذلك بقليل ، مرتدياً ثياب يوم الأحد المعني علي قدر الإمكان بصيانتها ... ستره

« فراك » حائلة اللون ، وسروالا خفيفاً بارزاً من ناحية الركبتين ، وقبعة من « خوص » اصفر لونها بمرور الزمن .

قال بير :

— إنه لما ييمت سرور الإنسان أن يجد ثانية شخصاً يحادثه . وقد قضيت السنة الأخيرة أو ما يقاربها ضارباً في كل مكان وأنا بفردى تماماً .

— هل غادرت مصر منذ مدة طويلة إلى هذا الحد !

— نعم ، بل وأطول . فقد ذهبت إلى الحبشة منذ غادرتها .

— أوه ، بالطبع ؛ فأنا أذكر ذلك الآن ، لقد نشر الخبر في الصحف ... مد سكك حديدية للملك مينيليك ... أنت الذى تولى هذا الأمر ، أليس كذلك ؟

— أوه ، نعم . ولكنى قضيت الأشهر الثمانية عشرة الأخيرة متكاسلاً منطلقاً إلى المسارح والمتاحف وما إليها ... وبدأت ذلك فى أثينا حتى انتهيت منه فى لندن . وأذكر أنه فى يوم من الأيام ، وأنا جالس على درجات « بارثينون » ألقى فقرات من قصة « أنتيجون » ... حانت فى آخر الأمر لحظة من لحظات الحياة بدا أن لها بعض المعنى .

ولكن ، سحقا لذلك يا رجل . إنك لن تقارن هذه الترهات بشيء مثل خزان النيل العظيم ؟ ألم تقض سنوات عديدة مساهماً فى بنائه ؟ . . . لنسمع شيئاً عن ذلك . . . ابتداء من الشلال الأول ، أليس كذلك ؟ . . . ألم تكن لديك هناك محاجر هائلة ؟ أرى أن صلتى بك لم تنقطع تماماً وأنا مقيم هنا فى بلدى ... ولكن أنت ... أنت يا إلهى ! . . . أن شيء لا بد أن تكون عينك قد وقعت عليه ! . . . تصور الإقامة فى ... أعود فأسألك ما إسم تلك البلدة ؟

وأجاب بير فى غير مبالاة وهو يعد بصره إلى ما وراء الحديقة حيث ظل زوار المكان يقبلون فى أعداد متزايدة .

— أسوان .

— يقولون إن خزان أسواق معجزة لاتقل عظمة عن معجزة الأهرام .. قل لي
ثانية كم عدد عيون الخزان .. مائة و ..

وقال بير :

— مائتان وست عشرة عيناً .

وأضاف فجأة :

— أنظر !.. أتعرف أولئك الفتيات الجالسات هناك ؟
وأشار صوب جماعة من الفتيات جالسات إلى مائدة مجاورة لماثدتهما ، ومرتديات
ملابس خفيفة .

وهز لانهجرج رأسه ، وكان يشعر بنهم إلى أبناء العالم الخارجى الكبير الذى لم
يتوفر له حظ رؤيته ، فواصل قوله :

— كم عجبت لك كيف استطعت أن تصل إلى القمة فى مثل هذا النوع من العمل ..
مد السكك الحديدية ، وبناء الخزانات وما شابه ذلك . . فى حين أن دراستك الأصلية
كانت الهندسة الميكانيكية .. إنك بالطبع قضيت عاماً إضافياً فى دراسة هندسة الطرق
والسكك الحديدية ، ولكن ...

أوه ، هذا الشهاب الذى تألق فى المدارس !

وقال بير :

— ما رأيك فى احتساء كأس من الشمبانيا ؟ كيف تريدها ؟ أمحلاة ياسكر
أم بلا سكر ؟

— ماذا أهناك أى فرق بينهما ؟ أنا فى الواقع لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك ..
ولكن عندما يكون المرء مليونيراً .. فهو بالطبع ..

وقال بير وعلى ثغره ابتسامة :

(م - ٧ الجوع الكبير)

— أنا لست مليونيراً .

وأوماً إلى الساقى .

— أوه ! إنى سمعت أنك كذلك . ألم تخترع مضخة بخارية أبعدت عن ميدان المنافسة جميع أنواع المضخات الأخرى ؟ يضاف إلى ما تقدم ذلك الخط الحديدى فى الحبشة ...

أوه حسناً ، حسناً ! ...

وتنهذ مردفاً :

— إنه لأمر طيب أن يكون هناك إنسان محظوظ ، ولا يلغى لنا نحن الباقين أن نتذمر . ولكن ما أنباء الاثنين الآخرين .. كلاوس بروك ، وفردناند هولم ؟ ما ذا يصنعان الآن ؟

— كلاوس يشرف على العمل فى أملاك الحديدى بإدفيينا . وعلى الخط الحديدى الخاص بها ، وهو الذى مد لنقل المنتجات وما إليها ، نعم ، إن الأمر انتهى بكلاوس إلى الإقامة بمكان صغير لطيف خاص به . والإقليم الذى يشرف عليه أكبر حجماً من ملكة الدنمارك .

وكاد لانجبرج يقع من فوق ككرسيه :

— يا إلهى ! وفردناند هولم ، ما أخباره ؟

— أوه ، إنه يضطلع بأعمال أكبر شأنًا . لقد راح يتشمم الصحراء الليلية ، ووجد بها أصقاعاً شامخة تجرى عروق الماء تحت أديمها على عمق لا يزيد على بضعة أقدام . وإذا كان الأمر كذلك فالمسألة لا تتجاوز إقامة آلات مناسبة لتحويل مساحة هائلة من تلك الصحراء إلى جنة ينمو فيها القمح .

وأخذ لانجبرج يلهث ، وكادت أنفاسه تنقطع الآن .

— يا إلهى ! ... ياله من كشف !

وأطل بير على الفيورد ، وواصل قوله :

— وأخيراً تمكن في العام الماضي من إثارة اهتمام الخديوى ، وقد أنشأ الآن شركة مساهمة رأسمالها بضعة ملايين ، وفردناند يشغل منصب رئيس مهندسيها .

— وما هو مرتبه ؟ أبلغ خمسين ألف كراون ؟

وقال بير دون أن يسلم من الخوف على صديقه أن تصيبه نوبة إغماء .

— يبلغ مرتبه مائتي ألف فرنك في العام نعم إن فردناند فق قدير .

واحتاج لا نجبرج الى بعض الوقت ليلتقط أنفاسه من جديد . وسأل أخيراً وهو ينظر بطرف عينه :

— وأنت وكلاوس بروك ، أظنكما ساهمتما بملايينكما في الشركة .

وابتسم بير وهو يطل بنظره على الحديقة وقال وهو يرفع كيأسه :

— في صحتك .

وكان هذا رده الوحيد .

واسترسل زميله يقول :

— أذهبت الى أمريكا أيضاً ؟ لا ، أظنك لم تذهب .

— أمريكا ؟ نعم ؛ أرسلوني مرة إلى هناك منذ بضع سنوات مضت وأنا أعمل في شركة براون بروس ، لأشتري آلات مصنع . ولا شيء في هذا يدعو إلى الدهشة ، أليس كذلك ؟

— لا ، لا . . . لا بالطبع . إن الذى اتجه إليه تفكيرى فقط هو أنك ربما ذهبت إلى هناك ، ورأيت الأشياء العجيبة كافة . . . معجزات العلم التى يحققونها ون انقطاع .

— يا صديق العزيز ، ليتك تعلم فقط كم أصابتنى معجزات العلم بضيق مميت ! إن ما أنوق إليه طاحون في الريف تحتاج إلى أربع وعشرين ساعة لتطعن كيساً من القمح .

— ماذا ؟ ... ماذا تقول ؟

وهب من مقعده واستطرد :

— ها ... ها ... ها . إنك نفس الصديق القديم ، ولا يعجزنى أن أرى ذلك .

ورفع بيركأسه صوب صديقه وقال :

— إنى أجد كل الجد فيما أقول . هيا . هذا نخب أيامنا القديمة التى قضيناها معاً !

— نعم ، شكرآ ... ألف شكر ... نخب أيامنا القديمة التى قضيناها معاً ! آه ، خمر لذيذة ! حسناً ، أظنك وقعت فى حبائل الحب هناك فى بلاد المتوحشين ؟ أليس كذلك ؟ ها ... ها ... ها !

— أتسمى مصر بلاد المتوحشين ؟

— ألا يربط الفلاحون زوجانهم فى محاريثهم إلى الآث .

— إن الفلاح يقضى الليل بطوله أمام بيته ، ويتطلع إلى النجوم ، ويتيح لنفسه مندوحة من الوقت لينعم بالأحلام ... فى حين أن التاجر الكبير فى فيينا على الرسائل الخاصة بأعماله وهو فى سيارته منطلقاً بها إلى المدرج ، ويبحث بالبرقيات وهو فى مقعده بين النظارة . وسيأتى يوم ينصت فيه بإحدى أذنيه إلى الأوبرا ، وهو جالس فى مقصورته الخاصة ، ويضع سماعة التليفون على الأذن الأخرى ... هذا هو ما تصنعه معجزات الفن بنا ... إنها تبث فىنا الرهبة ، أليس كذلك ؟

— أتحدث على هذا النحو ... وأنت الرجل الذى ساعد على كبح جماح نهر

النيل ، ومد السكك الحديدية عبر الصحراء ؟

وهز بيركتفيه ، وأعطى زميله سيجاراً من علته ، وظهر غلام الخان وهو يحمل أقذاح القهوة .

— مساعدة البشرية على التقدم بخطى أسرع . . . أهذا أمر لاقيمة له ؟

— يا إلهي ، إن الذي أود أن أعرفه هو أين تتجه البشرية حتى تسرع هذا الإسراع .

— هل كوفت بناء خزان النيل ضائع محصول القمح في مصر . . . وهياً فرص المعيشة لملايين عديدة من البشر . . . هل هذا أمر لاقيمة له ؟

— يا صديقي السليم الطوية ، أنظن حقاً أنه لا يوجد الآن عدد كاف من الحمقى على وجه الأرض ؟ أنظن أن لدينا قدرأ قليلاً جداً من العويل والبؤس والسخط والكراهية الطبعية الموجودة الآن . . . لماذا نسمى لنضائف هذا كله ؟

— ولكن دعنا من هذا كله يا رجل . . . وحدثني عن الثقافة الأوربية ؟ لقد شعرت دون ريب هناك في البلاد التي أفت فيها بأنك مبشر على نحو ما بالحضارة .

— إن انتشار الحضارة الأوربية في الشرق لا تعني إلا أن بعضاً من كبار رجال المال في لندن أو في باريس أعجبوا بصقع في إفريقية أو آسيا ، وإذا هم يضغطون زراً كهربياً فيحضر إليهم الوزراء والقادة العسكريون والمبشرون والمهندسون فيحنون أمامهم : — نحن رهن إشارتكم ياسادة . . .

واستطرد يقول :

— الثقافة . . . إن عجلة واحدة تدور فتتولد منها عشر عجالات جديدة . . . بر . . . بر . . . وتزداد السرعة . . . وتزداد المنافسة . . . ولم هذا كله ؟ للثقافة ؟ . . . لا يا صديقي ، بل للمال . . . إرساليات التبشير ! أقول لك الحق إنه ما دامت أوربا الغربية لم تستطع بكل عجائب علومها الحديثة ، ومسيحياتها ، وإصلاحاتها السياسية ، أن تستحدث نماذج من البشر أفضل من أولئك الأسافل المنحرفين الموجودين بيننا الآن . . . نغير لنا أن نبقي في بلادنا ونسدد قنا اللعين . . . هذه هي حقيقة أنفسنا !

وأفرغ يركأسه .

وكان هذا قولاً محزوناً للسكين لا يخرج ، ذلك أنه اعتاد ، وهو يقوم بعمله اليومي ، أن يعزى نفسه بفكرة أنه ، حق هو ، يضطلع في محيطه المتواضع بنصيبه في العمل الكبير الخاص بتحصير العالم .

ومال إلى الخلف أخيراً ، وقال وهو يرقب الدخان المتصاعد من سيجاره ، ويتسمم ابتسامة خفيفة :

— إنى أتذكر في الكلية فنى اعتاد أن يتحدث كثيراً عن بروميثيوس ، وعن العمل الكبير الخاص بتحرير الإنسانية ، وذلك باختلاس قبس جديد بعد قبس من جبل الأولمب .

وقال يير وهو يرسل ضحكة :

— هذا الفنى هو أنا .. نعم .. ولكنى فى الواقع كنت أنقل قول فردناند هولم .

— ألا تؤمن بذلك الآن ؟

— إنه ليصدمنى أن أرى الناس يتحولون بالحديد والنار إلى وحوش . إن الصناعة الآلية تقتل فىنا باطراد مانسميه النفعة الإلهية .

— يا إلهى ! ولكن الإنسان يستطيع يا رجل أن يظل مسيحياً حق فيما إذا ..

— مسيحياً إلى الحد الذى تشاء . ولكن ألا تظن أنه عما قريب قد يحين الوقت الذى نجد فيه شيئاً نعبده أفضل من متصوف ممدود على صليب ؟ هل نظل إلى الأبد نغنى مسبيين لأننا نجونا بجلودنا ، وما زلنا نستطيع الماحكة لدخول الجنة ؟ أهذا هو الدين !

— لا ، لا ... لعله ليس كذلك . ولكنى لا أدرى ...

— وأنا مثلك لا أدرى . ولكن الأمر سيان ، لأنه لم يمد هناك على أية حال وجود لذلك الشيء المسمى شعوراً دينياً . إن الصناعة الآلية تقتل كذلك تشوقنا إلى الأبدية .. أسأل الناس الطيبين فى المدن الكبيرة عن ذلك . إنه يقضون ليلة

عيد الميلاد منصتين إلى الحن « أميرة الدولار » يعزفه لهم الحاكي .

وجلس لانجبرج برهة وهو يرقب زميله بانتباه في حين جلس بير يدخن سيجارة في بطة . وكان وجهه قد احمر من شرب النبيذ ، ولكنه ظل من آن لآخر يغمض عينيه نصف إغماضة ، ويبدو أن خواطره تسبح في ميادين غير هذه .

وسأله رفيقه آخر الأمر .

— وماذا تنوى أن تعمل الآن وقد عدت إلى وطنك ؟

وفتح بير عينيه :

— أعمل ؟ أوه ، لست أدري . سأجيل بصرى قبل كل شيء فيها حولي . ثم إنى قد أعتز بعد ذلك ، في مكان ما ، على حقل صغير أفاحه ، واستقر فيه ، وأزوج حلاية ابن .. فالحظ في ذلك !

وأمتست الحديقة الآن ملأى بأناس يرتدون الملابس الصيفية الخفيفة . وصعدت إليهما من خلال المساء الساطع بالألوان رنات لا تنقطع من الضحكات والأصوات المرحية . ونظر بير إلى الرهط المحتشد مستظلاً ، وكانوا جميعاً غرباء بالنسبة إليه ، وسأل رفيقه عن أسماء بعضهم . وأشار لانجبرج إلى واحد أو اثنين من مشاهير الرجال ... وزير يجلس بالقرب منهما ، ومستكشف شهير يجلس أبعد قليلاً ..

وأضاف لانجبرج قوله :

— ولكنى لا أعرفهما شخصياً ، فأنا لا أقدر بالطبع على مخالطة مجتمع بلغ هذا المستوى .

وقال بير وهو ينظر مرة أخرى إلى تألق الضوء الأصفر فوق الفيورد :

— ما أجمل المنظر هنا ! وما أمتع أن يجد المرء نفسه في وطنه ثانية !

الفصل الثاني

جلس في القطار وهو في طريقه إلى الريف ، وأخذ يرقب من نافذة العربدة ما مر أمامه من مزارع وحقول وطرق مصطفة الأشجار على الجانبين . إلى أين هو ذاهب؟ إنه يجهل ذلك هو نفسه . لماذا لا يبدأ الإنسان المسير حينما اتفق ، ولا ينطلق حينما يحمله مزاجه على ذلك؟ ها هو يستطيع آخر الأمر أن يرحل متنقلاً بين أرجاء وطنه دون أن يشغل باله بالفروش التي ينفقها . وفي وسعه أن يدع الأيام تمر به دون هم أو بلبال ، وأن يوفر لنفسه فراغاً طويلاً ليستمتع بأي نوع من الجمال يصادفه في طريقه .

وهناك بدت له « مياسن » ، تلك البحيرة الواسعة ذات الأراضي الزراعية الغنية ، وحفافى الغابات الممتدة على جانبيهما . وهو لم يذهب إليها من قبل قط ، ومع ذلك خيل إليه كأن شيئاً داخل نفسه يومئذ إيماءة من يعرف كل ما حوله ... ومرة أخرى جلس ينهل من مناظر الصقع الغنى الشمر ... وبدأ كأن التلال المكسوة بالغابات ، وكأن الحقول والعياض تمتد في ذهنه فتكسو أما كن خاوية .

وفي ساعه متأخرة من ذلك اليوم أخذت رقعة المناظر الطبيعية تضيق . . ووصلوا إلى « جود براندزدالن » حيث تقع الضياع على منحدرات خضراء ممتدة بين النهر والجبال . وكان رأس بير ممتلئاً بصور رآها في الخارج ابتداء من رمال الصحراء وأشجار نخيلها التي لفحتها الشمس حتى قنوات مدينة البندقية . ولكنه ... أوماً هنا ثانية . إنه هنا في دياره وإن كان لم يرد ذلك المكان من قبل قط . . . وهذا هو الذى كان يهب طوال السنوات التي قضاها في المنفى .

وأخيراً لم شباهه على حين فجأة ، وخرج من عربدة القطار دون أن تكون لديه أدنى فكرة حتى عن اسم المحطة . وتناول وجبة طعام في الفندق ، ووضع مزوداً على ظهره وهيه . . . هناك . أمامه يمتد الطريق إلى قمة الجبل . وحده؟ وما أهمية ذلك مادامت أشياء لا حصر لها نجمية من كل جانب قائلة : « مرحباً بعودتك إلى وطنك » إن الطريق شديد الميل ، والهواء بزدادخفة ، وملاحظات البيوت بزداد

صغراً . وبدأت الأكواخ أخيراً وكأنها لشدة صغرها غلبة كبريت ، ولا بد أن القاطنين في الوادى يبدو لهم أن الناس هنا يعيشون وسط السحاب . ولكن لا بد أن عدداً كبيراً جداً من الشبان سلكوا ذلك الطريق حتماً في الأمسيات ، صاعدين ليفازلوا حبيباتهم القاطنات في الأكواخ الصغيرة . تنفس الطريق ، ونفس الهدف يقصده جيل بعد جيل . وخيل إلى ير الآن أن أولئك الشبان يرافقونه في المسير . . نعم ، وكأنه استكشف في نفسه بقية من نزع الشباب تحاول أخيراً أن تتحرر .

بوه ! . . ينبغي أن يخلع سترته ، ويضع قبعته في مزوده . والآن إذ يزداد الوادى تحت هبوطاً على التوالي يزداد كذلك اتساع للنظر البادى من خلاله فوق المرتفعات الممتدة وراءه . . تلال شهب وزرق ، وقم داكنة تبدو رمادية طحلبية تحت ضوء الشمس الغاربة ، وأمواج تملو وتهبط موجة بعد أخرى ووراء هذا كله ميدان كبير مكسو بالجليد وكأنه بحر من الأمواج البيضاء تقذف زبدتها تجاه السماء . ولكن اليس من المؤكد انه رأى هذا كله من قبل ؟

آه ! لقد عرفه الآن ، إنه بحر لوفوتن عاد إليه ثانية . . بحر لوفوتن بأمشاطه البهيم المتوجة بالزبد ، وانتفاخ صدره وهو يتنفس تنفسه الطويل الثقيل . . بحر رجراج يتحول الى صخر . وتوقف بحر برهة متكثاً على عصاه ، مغمضاً عينيه نصف إغماضة . ألا يستطيع أن يشعر في أعماق نفسه بذل تنفس البحر في علوه وهبوطه ؟ ألم تكن هذه الأمواج نفسها تهيش على مر القرون ، وتحمل الأجيال معها بعيداً الى العجائب الكبرى ؟ وفي الحياة اليومية تندرج الموجه بناطلي وقع النغم القديم المألوف ، ولا يوجد واحد في الألف منا من يرفع رأسه الى أعلى ليسأل : الى أين ! ولماذا ! . . بل إنه ، حتى الآن بالذات ، تستعوذ عليه مثل تلك الموجه الصغيرة ... فإلى أين ، ولماذا ؟؟ حسناً ، قد تكشف الأيام المقبلة الأمر ، وفي أثناء ذلك ينبسط هناك بحر الأحجار الذى يرسل نغماته الأبدية الموزونة متدحرجة تحت قبة السماء اللانهائية .

وجفف جبينه ، ودار ومضى في طريقه .

ولكن ما هذا الذى يبدو في الشمال الشرقى ؟ ... ثلاث أخوات يتشعن بشيلان بيض ، ويرفنن رؤوسهن الى السماء ... لا بد أن تسكون هذه بلدة « روندانى » ...

وانظر كيف تشعل الشمس عند المغيب قم التلال التي تتوهج قرمزية ذهبية .

پوه . . . لم يبق أمامه الآن إلا تل واحد آخر ثم يبلغ أخيراً القمة . وهناك تنبسط
تجاهه النجاد الكبرى بغياضها وأكائها وبحيرات الساطعة . . آه ، ياله - ما من فرجة .
ما أعجب أن تخف خطواته وتزداد سرعة ؟ وطمق يغنى بصوت عال ، شاعراً بجذل
قلبي محض قبل أن يفطن الى ما يفعل . آه ، أيها الأب الرحيم ، ماذا لو أنه لا يزال
أمامه - على أية حال - متسع من الوقت لينعم بالشباب !

منزل ريني . . كوخ صغير قائم وسط بقعة من الأرض خضراء ذات سياج من
قضبان متفرقة ، وحظيرة بقر مستطيلة مشيدة بألواح خشبية غير مصقولة . . لابد أن
هذا منزل ريني ! . . أنصت . . أليست هذه فتاة تغنى ؟ وانسل يرفى خفة من الباب ،
ووقف ينصت مستنداً الى حائط الحظيرة . وتوالى صوت تدفق اللبن في الدلو : شاب ،
شاب ، شاب ، « . لا بد أن تكون فاتنة تجلس هناك وتحلب اللبن . ثم أوصول الى
سمعه صوت يغنى :

« أوه ، يا ليلة الأحد ، يا ليلة الأحد ،

« لقد كنت لى دائماً أعز الليالى ! »

وتدفق اللبن ثانية فى الدلو : « شاب ، شاب ، شاب ! » وضم يرفى صوته الى
صوت المغنية فجأة :

« أوه ، يا ليلة الأحد الساطعة ، يا ليلة الأحد اللطيفة . . .

« أتكونين دائماً أعز الليالى عنى ! »

وتوقف صوت تدفق اللبن ، ورن الجرس المعلق برقبة البقرة إذ أدارت رأسها
مستفسرة ، واندفع الى خارج الباب شعر فتاة ذو لون أصفر خفيف ، ثم تبعته الفتاة
نفسها ، وهى ممشوقة القمد ، فى نحو الثامنة عشرة ، محمرة الوجنتين غضة مبتسمة .

وقال يرفى باسطة يده :

— أسعدت مساء .

وتطلعت إليه الفتاة لحظة ، ثم ألقت نظره على ولادها - كما تفعل النساء عند وقوع نظرهن على رجل يستهوين . . . وسألته :

— ومن تكون أنت ؟

— أتستطيعين أن تطهي لي ثريدا باللبن ؟

— نعم ، ولكن لا بد أن اقتهى من حلب اللبن أولا .

وكانت هنا مهمة يستطيع برآن يماون على أدائها . وخلع مزوده ، وغسل يديه ، ولم يلبث أن جالس على كرسى فى جو الحظيرة الراكد اللطيف ، وانهمك فى حلب اللبن ، ثم أحضر ماء ، وخرط بعض الحشب لإشعال النار ، وظلت الفتاة تنتظر إليه طوال الوقت ، متعجبة دون شك من يكون هذا الخبول ، وعند ما وضع الثريد جاهزاً على المائدة ألح بير على الفتاة أن تشاركه فى وجبته . وأكلا قليلا ، ثم ضحكا قليلا ، ثم طفقا يثرثران ، ثم عادا فأكلا ، ثم ضحكا ثانية . وعند ما سألها أى مبلغ عليه أن يدفعه قالت له : « ادفع ما تشاء . » فنفعها « كروانين » ، ثم أمال رأسها الى الوراء ، وقبل شفيتها . وسمعتها تقول لاهثة من ورائه وهو يخرج من الحظيرة : « ماذا يستهدف هذا الرجل ؟ . . » وبعد أن قطع مسافة طويلة دار ملتفتاً الى الوراء ، فإذا هى هناك على عتبة الباب تظلل عينيها وترقبه .

الى أين يذهب الآن ؟ حسناً . . لقد كان متأكداً تماماً من أنه سبصل الى مكان مأهول قبل حلول المساء . أما هذا المكان فليس يمكن إقامته . لا ، ليس هذا بالمكان الذى سيقم فيه .

لقد أوشك الليل أن ينتصف عند ما وقف على شاطئ بحيرة عريضة من بحيرات قم الجبال تقع أسفل هضبة منمنمة بندق الثلج ، وقامت هنا بضع دور ريفية . وكان هناك منزل صغير حسن الشكل يقع فى جزيرة ، عبر البحيرة ، مكسوة بالأشجار ، ويبدو كأنه كوخ معد لمصيف قوم من قطان المدن . . انظر لقد ظهر فوق متن البحيرة التى لا تزال تعكس احمرار الغسق قارب يتجه صوب الجزيرة ، وجلست فيه فتاتان أردانهما بيضاء ، تجذقان وهما تغنيان . واستولى عليه شعور غريب . هناك . هنا سيقم .

وقفت في الكوخ الريفي امرأة ضخمة بدنية تعقد وسطها بحبل ، وبدأ أنها تتأهب للرقاد . أفى وسمها أن تؤويه هذه الليلة ؟ لم لا ، إنها تستطيع ذلك بحسب ماتزن .. ودلفت الى غرفة أخرى .. وبعد مدة وجيزة كان يرقد بين جدران غرفة صغيرة في فراش ذى حشية جبلية ولحاف . وفاحت هناك رائحة غضة من أغصان المرعر المنثورة على أرض الغرفة المغسولة حديثاً ، ومن آنية الجبن القائمة في صفوف على الأرفف الملتفة حول الحيطان . آه .. سبق له أفى نام في أماكن عديدة على نحو مختلف .. نام في عرض البحر على ظهر مركب من مراكب لوفوتن .. ونام على ظهر جمل يتأيل .. وفي خيام منصوبة في صحراء ساطعة القمر .. وفي قصور أشبه بقصور ألف ليلة وليلة حيث كان الأقزام يتخذون من أغصان النخيل مراوح يخففون بها حرارة الجو ، وكانوا يدعونه « باشا » . ولكنه وجد أخيراً هنا مكاناً تطيب الإقامة فيه . وأغلق عينيه ، واضطجع ينصت الى خرير جدول صغير ينساب خارج الكوخ في الليلة الصيفية اللطيفة ، وظل كذلك حتى استولى عليه النعاس .

وفي ساعة متأخرة من ضحى اليوم التالى استيقظ إثر دخول المرأة المعجوز حاملة إليه فنجان القهوة . ثم غطس غطسة في الماء الأزرق المخضوضر للبعيرة الجبلية ، وأمضى وقتاً قصيراً في السباحة . ثم عاد ليجد غداده مكوناً من سمك مشوى وفطير مخبوز حديثاً ، وحليب دسم .

وقالت المرأة المعجوز : نعم ، يمكنه أن يبقى هنا بضعة أيام ، وهي ترحب به لو أنه يستطيع استساغة ذلك النوع من الطعام الذى فى وسمها أن تطهوه . والفراش قائم هناك على أية حال دون أن يحتله أحد .

الفصل الثالث

وعلى هذا أقام بيرهناك ، وراح يصطاد السمك ، ولم ينجح في صيد الكثير منه ، ولكن الزمن كان يمر رويداً ، والصيف يرقد ناعماً دافئاً على سفوح التلال الرمادية واللازوردية . ولم يلبث أن علم بأن تاجراً من « رينجين » يدعى « أوتھوج » ، هو الذى يقيم فى بيت الجزيرة مع زوجته وابنته . . وما عاقبة ذلك ؟

وكثيراً ما كان يضطجع فى قاربه ، مدخناً غليونه ، مستسلماً لأحلام هادئة تقبل وتغضى الى سبيلها . . فتاة فى قارب أبيض ينساب فوق الماء الأحمر فى المساء . . ولقاء فى الخفاء على أديم جزيرة . . ينبغى ألا يعلم أحد شيئاً عن هذا الآن . . أيمكن أن يحدث له ذلك فى يوم من الأيام ؟ . . آه ، لا .

الشمس تغرب ، وعندئذ يقترب رنين أجراس البقر من المنزل الريفى ، وتقرب الصيحات الموسيقية ، ونداآت فتيات ذلك المنزل ، وخوار البقر . . وترتفع الجبال صامتة على مسافة بعيدة وقد أصبحت قممها المكسوة بالثلوج ذهبية اللون . . والجدول ينساب متموجاً مرسلًا خريره وسط الليالى المضيئة .

وأخيراً حان اليوم الذى هو أهم الأيام .

وخرج ليقوم برحلة بين التلال حيثما اتفق ، مسترشداً فى طريقه ببوصلة ، وملاحظاً معالم معينة ليستطيع الاهتداء بها عند عودته . فهنا مستنقع مغطى بظلال شجر التوت . . وتذوق المشهد فأعاد له مذاقه أيام طفولته وهام على وجهه صاعداً الى قمة شهباء باهتة مرققة بأعشاب الخليج الأحمر . . وما هذا الذى يبدو أمامه ؟ دخان ؟ وسار صوبه . نعم ، إنه دخان . وخرجت أمامه قطاة ترفرف بجناحيها ، وفى أعقابها سار أولادها الصغار الحجم . . رباه ، لقد كاد يدهس الصغار . وتوقف من فوره ليتعاشى دهسها . وهذا الدخان يدل على أن بعض الناس قرييئون من هنا . . لعله معسكر لبعض المواطنين . . لنذهب ونر .

وصعد الى قمة آخر هضبة ، وكانت النار الموقدة مشبوبة تحته تماماً . وقفزت فتاتان فوقفتا على أقدامهما . وكان هناك فوق النار إبريق قهوة لامع ، وفوق الأرض المكسوة بالطحالب ، وعلى مقربة من النار ، خبز وزبد و« شندوتشات » موضوعة على غطاء من ورق .

وتسمر بير في مكانه مأخوذاً . ومضت لحظة من الزمن والفتاتان تتطلعان إليه ، وهو يتطلع إليهما ، وعلى ثغورهم جميعاً ابتسامة مترددة .

ورفع بير قبعته أخيراً ، وسألها عن الطريق الى منزل روستاد الربي . واستغرق شرحهما لذلك بعض الوقت ، ثم سألاه عن الساعة . ودلها على الوقت المضبوط ثم أطلعهما على ساعته ليستطيعا تبين الوقت بنفسيهما . واستغرق ذلك كله مدة أطول من الزمن . ولخصت كل منهما الأخرى بنظرها في أثناء ذلك ، وام تجداً سيباً يدعو الى الافتراق عن الرجل الآن . وكانت إحدى هاتين الفتاتين طويلة القامة ، نحيلة القد ، وجهها يبطاوى دافئ الألوان ، وشعرها أسود داكن ، وحاجباها كشيغان يقتربان فوق أنفها ، ويمتد النظر إليهما على البهجة . وكانت ترتدى ثوباً من الصوف أزرق اللون طرفه مرفوع قليلاً على نحو يكشف كميها . والأخرى كانت شقراء ، أصغر حجماً من رفيقتها ، ذات وجه حزين بالرغم من أنها كانت لا تكف عن الابتسام .. وقالت فجأة :

— أوه ، أياكون معك مدية على سبيل المصادفة ؟

وكان بير قد هم بالانصراف ، ولكنه انهمز مسروراً فرصة بقائه قليلاً .

— أوه ، نعم ، معنى مدية .

وقالت الفتاة السوداء الشعر :

— لدينا هنا علبة سردين ولا توجد أداة نفتحها بها .

وقال بير :

— دعيني أحاول .

واستطاع كما شاء له الحظ أن يجرح يده جرحا طفيفا . وتمثرت كل من الفتاتين
بالأخرى لتسارع إلى تضميد الجرح . وانتهى الأمر بالطبع الى أن سألتاه قبول شرب
القهوة في محبتهما .

وقالت الفتاة السوداء الشعر وهي تنحنى في جمالة :

— اسمى ميرل أوتووج .

— أوه ، هو أبوك إذن صاحب الدار القائمة في الجزيرة وسط البحيرة ؟

وقالت الشقراء :

— اسمى « مارك » وحسب . . ثينيا مارك . وأبى محام ، ولنا كوخ يقع على
مسافة أبعد وراء البحيرة .

وكان بير على وشك أن يعرفهما بنفسه عند ما قاطعته الفتاة السمراء قائلة :

— أوه ، نحن نعرفك من قبل . فقد رأيناك كثيرا وأنت تجذف في البحيرة ،
وكان علينا أن نتبين من أنت . . إن لدينا منظارا مكبرا جيدا .

وتدخلت صديقتها محذرة :

— ميرل !

— ثم أرسلنا أمس خادمة لتسقط الأخبار وتتحرى وتمودالينا بتقرير واف عنك .

— ميرل ! كيف تستطيعين أن تنفوهى بمنزل هذه الأقوال ؟

كانت وليمة صغيرة مبهجة . ما أصغر هاتين الفتاتين ! . . وكيف تضحكان للكتابة !
وأية كمية من الخبز والزبد والقهوة وفرتاها له ! . . كانت ميرل ترسل بين حين وآخر
نظرة من طرف عينها الى رفيقيهما في حين كانت ثينيا تضحك من العبارات الجريئة
التي قالتها صديقتها ، وتؤنبها على ذلك ، وتنظر الى بير في توجس .

وكانت الشمس تقترب الآن من كتف تل يقع بعيدا من ناحية الغرب ، وبدأ

المساء ينشر ظلاله . . وحزموا أشياءهم ، وحمل بير على ظهره حقيبة كبيرة مملوءة
بمحبات من التوت الجبلى ، كما حمل بيده إناء من صفيح .

— أعطيه أشياء أخرى يحملها ، فسوف يفيدته العمل بدلا من البطالة .

— ميرل، إنك فى الحق سيئة جدا !

وقالت الفتاة :

— هالك هذا .

وزحزحت الى يده الأخرى مقبض سلة

ثم شرعوا فى النزول من التل . وغنت ميرل وترنمت وهم سائرون فى طريقهم .
ثم غنى بير بدوره ، ثم غنى ثلاثتهم معاً . وكانوا كلما اعترضت سبيلهم كومة من شجر
الخلنج أو بركة من ماء المطر المتجمع لم يكلفوا أنفسهم الدوران حولها بل اجتازوها
قفزا ، ثم قفزوا مرة أخرى بقصد اللهو .

وتجاوزوا المنزل الريفي منحدرين الى الشاطئ ، واقترح بير عليهما أن يتولى
التجذيف حتى يوصلهما الى دارهما ، وعبروا البحيرة بالقارب ، وجلسوا فيه يتحدثون
مما طوال الوقت وتبادلوا الضحكات حتى لكان بعضهم يعرف بعضا منذ سنوات .

ولس القارب الأرض عند أسفل الكوخ مباشرة ، وجاء لقا بلتهم رجل عريض
السكتفين ، ذو لحية شهباء ، يرتدى قبعة من « خوص » . وصاحت ميرل :

— أوه ، يا أبى ، أعدت ثانية ؟

وإذ قفزت إلى الشاطئ ، ألقت ذراعيها حول عنقه . وتبادلا كلاهما الهمس ،
ورمق الأب بير ، ثم رفع قبعته وأقبل صوبه ، وقال فى أدب :

— إنه لكرم بالغ منك أن تعاون الفتاتين على العودة .

وقالت ميرل :

— هذا هو المهر هولم ، مهندس ومصرى ، وهذا أبى .

وقال أوتهوج:

— بلغنى أننا جيران ، ونحن على وشك أن نشرب الشاي ، ولعلك تشترك معنا في ذلك إذا لم يكن لديك شاغل آخر أفضل منه .

وكانت تقف خارج الكوخ سيدة وخط الشيب شعرها ، وشعب لونها . وكانت تستعمل نظارة ، وتضع على كتفها شالا من صوف أبيض ، وبدأ مع ذلك أنها لم تزل تشعر بالبرد .

وقالت :

— مرحباً :

وحسب بير أن صوتها يرتجف .

وكانت في الدور الأسفل غرفتان تشتمل إحداها على وجاق مكشوف ، وعلى مائدة تم إعدادها لشرب الشاي . ولكن لم تدخل ميرل البيت حتى أشرفت على كل صغيرة وكبيرة ، ومرقت هنا وهناك . ولم يلبث أن انبعث من المطبخ صوت قلو سمك ، وبعد لحظة جاءت الفتاة تحمل إناء مملوءاً خساً وقالت :

— أيها السيد المصرى... أنت تستطيع أن تعد لنا سلطة عربية ، اليس كذلك ؟

وسر بير وقال :

— أحسب أنى أستطيع ذلك .

— ستجد على المائدة هناك ملعاً وقلعلاً وخلاً وزيتاً ، وهذا كل ما نملك هنا من أنواع التوابل ، ولكن لا بد أن تعد لنا مع ذلك سلطة عربية حقيقية ... من فضلك !

وخرجت ثانية في حين اشتغل بير بإعداد السلطة .

وقالت السيدة أوتهوج وهي تدور يوجهها الشاحب صوبه ، وتنتظر إليه من خلال نظارتها :

(م — ٨ الجوع الكبير)

— أرجو أن تغفر لابنك تصرفها ، فهي في الواقع ليست خشنة الخلق كما يبدو عليها .

وكان أوتهوج نفسه يذرع الغرفة رائحة غاديا ، متحدثاً إلى بير ، موجهاً إليه سيلاً من الأسئلة عن أحواله مصر . وكان يعلم شيئاً عن ثورة المهدي ، وعن الجنرال غوردن ، والخرطوم ، والعلاقات المتوترة بين الحديوي والسلطان . ولم يخف أنه قارئ مثابر للصحف ، وأدرك بير مما تجمع له من قرائن أنه « راديكالي » ، وأن له وزناً ما في حزبه . وكان يبدو عليه كأن تحت جفنيه المحمرين نارا شديدة تضطرم . وخطر لير « أن هذا الرجل سيء في حالة الاصطدام به . »

وجلسوا الى مائدة العشاء ، ولاحظ بير أن السيدة أوتهوج صارت أقل شعوباً وقلقاً عند ما أخذت ابنتها تضعك وتمزح وتثرثر . بل حتى لقد توهج خداهما الشاحبان قليلاً آخر الأمر ، وبدا كأن عينيها من وراء نظارتها تلتمهان بنور مقتبس من عيني ابنتها . ولكن لم يبد على زوجها أنه لاحظ شيئاً من ذلك ، وقد حاول طوال الوقت أن يواصل الحديث عن المهدي والحديوي والسلطان .

هكذا جلس بير لأول مرة ، منذ سنوات عديدة ، الى مائدة ممدودة في منزل برويجي وكم كان هذا ممتازاً ! وتساءل هل يقدر له يوم أن يكون له منزل خاص به .

وبعد العشاء جيء بمود ، وجلسوا حول نار الوجدان الكبير واستمتعوا بشيء من الموسيقى ، وظلوا كذلك حتى نهضت ميرل آخر وقالت :

— والآن حان الوقت يا أمي لتأوي إلى فراشك .

وجاء الرد في استسلام :

— نعم يا عزيزتي .

وحيت السيدة أوتهوج الحاضرين ، واقتادتها ميرل الى خارج الغرفة .

وعند ما عادت ميرل نهض بير مستأذناً في الانصراف ، فقالت له :

— ماذا ! لا أحسبك ستصرف حقاً قبل أن تصحب ثيبا في القارب الى بيتها ؟
وقالت الأخرى :

— أوه ، ياميرل ، أرجوك ..

ولكنهما عنه ما اتخذا كلاهما مكانهما في القارب ، وأوشكا أن يبدأ عبور البحيرة ، جاءت إليهما ميرل ركضا وقالت إنه يمكنها كذلك الذهاب معهما .

وبعد مرور نصف ساعة ، والوصول بالفتاة سالمة حتى بيت أبيها ، اختلى بير بميرل وهو يجذف في الليل الساكن ، عائداً بالقارب المنساب على صفحة مياه ذهبية تحت الأنواء ، زرقاء داكنة وراء الظلال . ومالت ميرل إلى الوراء مضطجعة في مؤخرة القارب صامتة ، مخرجة وراءها فرع شجرة فوق سطح الماء وبعد فترة من الزمن تخلى بير عن مجذافيه ، وترك القارب ينساب من تلقاء نفسه . . . وقال :

— ما أجل هذا !

ورفعت الفتاة رأسها ، ودارت بنظرها فيما حولها وأجابت :

— نعم .

وخيل الى بير أنه صوتهما اكتسب نبرة جديدة

وتجاوز الوقت منتصف الليل . وكانت القمم والغابات والأكواخ ترقد بلا حياة تحت الضوء الرقيق المصطبغ بالاحمرار . ولم يعد سمك البحيرة يرتفع الى سطح الماء . ولكن الأذان كانت تستطيع بين الحين والحين أن تلتقط صيعة قطاة منبعثة من بين أشجار الصفصاف .

وسألت الفتاة فجأة :

إني لأعجب ماذا دعاك الى الحضور هنا بالذات لقضاء عطلتك !

— أنا أدع كل شيء لتصرف الأقدار يا آنسة أوتنوج ، وهكذا حدث أن جئت الى هنا ، وأيتا سار الإنسان في هذا المكان يجد كل شيء أليفاً . وما أبداع أن يجد الإنسان نفسه ثانية في وطنه الترويج !

— ولكن ألم تزر أهلك؟ .. ألم تزر أباك وأمالك منذ عودتك الى وطنك؟

— أنا ..! أتظنين أن لي أباً وأماً؟

— ولكن هناك أهلاً أقربين .. لا بد أن لك دون مرء أخاً أو أختاً في مكان ما من هذه الدنيا؟

— آه لو كان للمرء فقط أخ أو أخت ، يمد أنه يستطيع ، على أية حال ، أن يعصى في حياته بدونهما .

وأخذت تنظر إليه بعين فاحصة ، وكأنها تحاول أن ترى أهو جاد فيما يزعم .. ثم قالت :

— أتعرف أن أمي حملت بك قبل هجيتك؟

واتسعت حدقتا بير :

— حملت بي ؟ وماذا كان حلمها ؟

وصبغ الاحمرار وجه الفتاة فجأة ، وهزت رأسها :

— إنها لحماقة منى أن أجلس هنا وأحدثك عن هذا كله . ولكن ذلك الحلم هو السبب ، كما ترى ، في أننا أردنا في إصرار أن نقف على حقيقة أمرك منذ حضورك . وقد بحث هذا في نفسى نوعاً من الشعور بأن كلا منا يعرف الآخر منذ زمن بعيد .

— يبدو يا آنسة أوتروج أن بين جوانحك فيضا لا ينقطع من المرح !

— أنا ؟ لماذا تظن ..؟ أوه ، حسناً ، نعم . إن الإنسان يستطيع كما تعلم أن يكتسب أغلب الصفات فيما إذا كان لا بد له من ذلك .

— حق المرح ؟

ودارت بوجهها ونظرت صوب الشاطيء :

— لعل في يوم ما أحدثك عن ذلك بتوسع .. فيما إذا حدث وأصبحنا أصدقاء .

وانمحي بير على محذافيه ، وواصل التجذيف . وقرب سكون الليل بينهما شيئاً

فشيئاً ، وحملهما على التزام الصمت . ولم يحدث إلا أن كلا منهما كان ينظر إلى الآخر كل حين وحين ، ويبتسم .

وقال بير لنفسه : « ماهذه المخلوقة الغامضة التي انتقيت بها ؟ » .. إنها قد تكون في نحو الواحد والعشرين ، أو الثاني والعشرين .. وهناك جلست منعنية الرأس ، وتحت ذلك الوهج الرقيق بدا على وجهها قبس من أحلام غريبة . ولكن نظرتها عادت أدراجها فجأة ، واستقرت على وجهه ثانية . ثم ابتسمت فرأى أن فيها هريض ، وشفيتها بمتلثتان حمراوان .. وقالت :

— كم أود لو أرى طففت بأصقاع العالم مثلك .
وسألها :

— ألم تقوى برحلة الى الخارج قط يا آنسة أوتهوج ؟
— إنى قضيت الشتاء مرة في برلين ، وأمضيت بضعة أشهر في جنوب ألمانيا .
وإنى أمارس العزف قليلا على الكمان كما تعلم ، وكنت آمل أن أدرس الأمر جديا في الخارج ، وأخرج بشيء من هذه الدراسة .. ولكن ..

— حسنا ، وماذا لاتحققين ذلك ؟

وصمتت قليلا ، ثم قالت أخيراً :

— أحسب أنه من المؤكد أنك ستقف على الأمر يوما ما ، وعلى ذلك يتساوى الآن أن أنبئك به .. لقد أصيبت أذى بلوثة .

— يا آنسى العزيزة ..

— وعنده ما عادت إلى البيت .. احتاج الأمر إلى المرح حق يعينها بقدر ما على العودة إلى طبيعتها .

وشعر بحافز يدفعه إلى النهوض والتوجه إلى الفتاة وضم رأسها بيديه ، ولكنها رفعت ناظرها مبتسمة ابتسامة حزينة وتلاقت عيونهما في نظرة طال أمدها ، ونسيت أن تستعيد نظرتها ، وقالت آخر الأمر :

— لا بد أن أعود إلى الشاطئ الآن .

— أوه .. بهذه السرعة ! إننا لم نكبد نبداً حديثنا !

وكررت قولها :

— لا بد أن أعود إلى الشاطئ الآن .

ولم يكن صوتها يسمع بالمعارضة . برغم أنه ظل رقيقاً .

وأخيراً أصبح بير وحيداً يجذف عائداً الى كوخه . وراقب الفتاة في أثناء تجذيفه وهي تصعد في بطن صوب كوخها . وإذا وصلت إلى الباب التفتت اليه لأول مرة ، ولوحت له بيدها . ووقفت لحظة وهي تشيحه بنظرها ، ثم فتحت الباب وتوارت خلفه . وظل يحدق في الباب بمض الوقت وكأنه يتوقع أن يفتح ثانية ، ولكن لم يبد هناك أثر للحياة .

وبدا قرص الشمس يظهر الآن في المدى البعيد من الناحية الشرقية . وسطعت القمم البيض شمالاً وشرقاً في وهج الصباح ، وترك بير متجذافيه ثانية ، واستراح واضعاً مرفقيه على ركبتيه ، وممسكاً رأسه بيديه . ماذا يمكن أن يكون هذا الذي وقع له اليوم ؟

وكيف يمكن أن تقوم هذه القمم حوله بعيدة ، غير مكترثة إلى هذا الحد ، وتتركه هنا حزينا وحيدا ؟

ماذا عسى أن يكون هذا الدوى الجديد في أذنيه ، وهذا الإيقاع للوزون لنبضه ؟ .. واضطجع أخيراً على ظهره في قاع المركب موشجاً يديه وراء رأسه ، وترك القارب وكل شيء ينساب أيان سار .

وعندما انحدر سناء الشمس المشرقة الى القارب وصدم وجهه خاطفاً بصره ، لم يكن منه إلا أن أدار رأسه قليلاً ، ومكن ذلك السناء من أن يسطع فوقه سطوعاً كاملاً .

وهي ترقد الآن هناك مستسلمة للنعاس في حين يتدفق الصباح من نافذتها أحمر اللون .. عن تحلم في أثناء نومها ؟

أرأيت من قبل قط جاجيين كهاجيبها ؟ آه لو ضغطت المرء خفتيه عليهمسا ... آه

لو أمسك رأسها بين يديه . . . أهكذا إذن تفرطين في أحلامك لتتقذى أمك ،
وتحافظين على شمعة المرح متأججة بين جوانحك لتدفئ روحها ؟ أنت إذن على
هذا النحو ؟

— ميرل . . . أهنأك مثل هذا الاسم ؟ أيدعونك ميرل ؟

وانتشر النهار في أرجاء السماء ، وأضاء سحب السماء ، كبيرها وصغيرها ، فتحوّلت
إلى ذهبية وقرمزية . . . وها هو ذا يرقد هنا متأرجحاً ، لافوق بحيرة ، ولكن فوق
عباب محيط أحمر اللون ، شديد الجيشان .

آه ! إن عقلك كان ممثلاً كل الامتلاء حتى الآن بعلم الميكانيكا الجاف ، وعلم الحساب ،
وبالحديد والنار . . . كنت تطلب مزيداً من العلم لا يقف عند حد ، ولم تكف قطعاً عن
الجهاد في سبيل إدراك الأشياء كافة ، في سبيل معرفة كل شيء ، والسيطرة على كل
شيء . ولكن ماتت في نفسك نغمة النشيد القدسي في هذه الأثناء ، وأخذ جوعك
الروحي إلى ما وراء الأشياء يزداد ضراوة شيئاً فشيئاً . لقد كنت تظن أن بلاد
الترويج هي التي تحتاج إليها . . . وهأنذا هنا الآن . . . ولكن أهذا يكفي .

— ميرل . . . هل اسمك ميرل ؟

ليس هناك شيء يمكن أن يعاثر اليوم الأول من أيام الحب . إن كل معارفك
ورحلاتك وأعمالك وأحلامك . . . كل هذه لم تكن إلا خطباً جافاً جئت به وكومت
بعضه فوق بعض . والآن اندلعت الشرارة فإذا الكومة تلتهب كلها ، وتلقى بوجهها
الأحمر على الأرض والسماء ، وتعد أنت يديك الباردتين لتدفئهما ، وترتدش من فرط
الفرح لأن سمادة جديدة هبطت على الأرض .

وكل مالم تستطع من قبل إدراكه . . . العلاقة بين ومضة الأبدية في نفسك ،
والقدرة السماوية العليا ، والفضاء اللانهائي بأسره . . . كل هذا وضح فجأة كل الوضوح
إلى جد أنك ترقد هنا مرتشياً من فرط الابتهاج ، وترى أعماق اللفز الأبدي .

ما عليك إلا أن تمسك بيدها وتقول لقوة الحياة والموت : « إننا هنا نحن الاثنين . . .
هاهي ذى هنا ، وهأنذا هنا . . . نحن الاثنين هنا » وترسل الدعاء متغافلاً إلى أعلى . . .

مخططة بنعمة من كان لوزير الصغير .. صاعدا لا إلى قبة أية كنيسة ، ولكن إلى
 الفضاء اللانهائي نفسه ، وأنت أيتها القدرة العلوية ، إنى أدركك الآن . كيف كنت
 أستطيع أن آخذ مأخذ الجد قدرة .. حسبتها فيما مضى .. تتلاعب بالإثم والغفرة ..
 ولكنى أرى ذاتك العلوية الآن .. أنا لم أعد أرى إلهام تمطشا للدماء ، ولكنى أراك
 في مبة الصبي ، ذهبي الشعر ، أراك النور نفسه .. إننا نبحث الاثنين نعيد ذاتك
 لا بصوات نائمة ، ولكن بدعاء أكبر يضم بين طياته العالم بأسره ، إن جميع قدراتنا
 وعلومنا وأحلامنا كامنة فيه .. كل شيء كامن فيه هناك . وكل فرع له وتره الخاص
 به .. له نغمته في الترتيل الجماعي الأعظم . إن الفجر الذي يحمر فوق التلال منضم
 معنا . والغز الذي يرعى في سفح التل الشمالي ، ويخطف بصره شمع الشمس الذهبي
 حينما يدور رأسه صوب الشرق ، هو أيضا معنا ، والعصافير التي تستيقظ الآن معنا ..
 وهناك صنفدع يقفز صاعدا من بركة ماء ، ويتوقف لينظر إلى الصباح في عجب ..
 إنه موجود هناك .. وحتى الحشرة الصغيرة المرصعة الجناحين بالأس — وأوراق
 الحشائش حاملة لآلئ الأنداء ، ياذلة ما تستطيع من جهد لتعكس السماء .. إنها
 موجودة هناك . نحن نقف وسط اليوم الأول من أيام الحب ، ولم يعد هناك مجال
 لمزيد من الكلام عن الغفران أو الشك أو الإيمان أو الحاجة أو المعونة .. ليست
 هناك إلا نغمات موسيقية متدفقة تصعد إلى السماء من الينابيع الذهبية المنبثقة من قلوبنا .

وبدأت الأكواخ تستيقظ . وترامت صيحات موسيقية تردد صداها حين كانت
 فتيات المنازل الريفية تدفع الماشية وهي تصعد في ببطء إلى قمم التلال الشمالية ، متصاعدة
 الخوار ، مرناة الأجراس . ولكن بير ظل مضطجعا حيث كان .. ولم تلبث الفتاة التي
 تحلب بقر الضياع أن شاهدت القارب الذي بدا خاليا يجرفه ماء البحيرة ، وخشيت
 أن يكون نمة مكروه قد وقع .

وقال بير لنفسه وهو لا يزال راقدًا بلا حراك : « ميرل ، هل اسمك ميرل ؟ »

ونزلت حلاية اللبن إلى الشاطئ الآن ، ونادت متجهة بصوتها إلى ناحية القارب
 ورأت آخر الأمر رجلا يهب من رقدته جالسا ، ويفرك عينيه .. فصاحت :

— اللهم عفوك ورضاك .. شكراً لله على أنك هنا .. إنك لم تمد إلى الدار

طوال هذه الليلة المباركة !

وكانت هناك عنزة كسرت ساقها ، وجبروها لها ، وتركوها تهيم على وجهها في حظائر الماشية ، وتدخل الدار وتغادرها في أثناء تمائل عظام ساقها للشفاء . وشعر بير بدافع يدفعه الى التقاط هذه المخلوقة وحملها بين ذراعيه ، والتجول بها فترة من الزمن برغم أن الحين بدأت تنحصر لحيته من فوره . وعند ما جلس إلى مائدة الإفطار وجد شيئاً في منظر القشطة والزبد والخبز والقهوة أثر في نفسه تأثيراً بليغاً الى حد أن خيل إليه أن الإنسان يحتاج الى قلب من حجر ليشرم بالرغبة في أكل مثل هذه الأشياء . وعند ما قالت له العجوز إن عليه حقاً أن يعلأ جوفه بطعام ما قفز من مقعده ، واحتضنها بالقدر الذي استطاعت ذراعاها أن تحيط بجسم تلك المرأة الضخم . وصاحت هذه الأخيرة وهي تناضل لتتخلص منه « هذا تصرف لطيف ! » ولكنه عند ما عادى الى حد أن طبع على جبينها قبلة مر نانة ، دفعتة دفعة عنيفة وقالت :

— يا إلهي ! ألم يفقد هذا الأبله صوابه في الليلة الماضية .

الفصل الرابع

بلدة رينجي تجثم على شاطئ بحيرة كبيرة ، وهي إحدى البلدان التجارية الدائمة الحركة ، وقد طمرت في السنوات الخمسين الأخيرة منبعثة من نواة كانت تتألف فيما مضى من « ورشة » نجارة ، وطاحون قاعة الى جوار مساقط مياه وقد انتشر فيها الآن عدد كبير من المصانع الحديثة على طول شاطئ النهر ، وأصبح ذلك المكان بلدة يبلغ عدد سكانها زهاء أربعة آلاف نسمة ، لها كنيسة خاصة بها ، ومدرسة ضخمة البناء ، وعدد من منازل صفراء للمال متناثرة في كل اتجاه حيثما اتفق . وفيما عدا ذلك فإن « رينجي » شديدة الشبه بأية بلدة صغيرة أخرى . وبها محاميان يناضلان في سبيل الظفر بفتات الأعمال القضائية ، ورئيسا تحرير الصحفين المحليتين الموجودتين بها لا يكفان عن التشاجر أمام « مجلس المصالحات » ، وهناك أيضاً مجمع للوعظ والإرشاد ، ونقابة للمال ، وكنيسة صغيرة ، ومعرض صور ، واعتاد أهالي رينجي الطيوف أن يمشوا على طول الشاطئ بعد ظهر أيام الآحاد متأبطين أذرع فسائهم . وكان أغلب الرجال يرتدون في هذه المناسبة سترات « الفروك » والقبعات الصوفية الرمادية . ولكن إنبياك ، دباغ الجلود ، كان يؤثر لبس قبعة حريرية طويلة نظرا الى أنه أحذب ، ومثل هذه القبعة تلاءمه لأنها تزيد طولاً .

وفي أمسيات السبت ، عند ما يبدأ الغسق في التبدد ، يجتمع الشبان في الركن الواقع خارج متجر هامر ليناقشوا أحداث الأسبوع .

وسأل لوفلي ، للمصرف بالبنك ، صديقه الموظف بالتلغراف الذي جاء إليه :

— أسممت آخر الأنباء ؟

— الأنباء ! .. أقول إن هناك أية أنباء في هذا الجعر اللعين ؟

— عادت ميرل أوتهورج من الجبال .. وقد جاءها خاطب يطلب زواجها .

— أحدث ذلك فعلاً ! وما رأى الرجل المعجوز في ذلك ؟

— أوه ، إن الرجل المعجوز يريد مهندسا فيها إذا أراد الهيمنة على مصنع الخشب الجديد .

— هل الرجل مهندس ؟

— إنه من مصر .. ولعله مسلم .. ولونه أسمر كعبيات اللبن . وهو يتقلب على أكداش المال .

— أسمعت هذا يا آنسة بول ؟ انتظري لحظة ؛ فهناك نبأ يهمك .

ودارت الفتاة التي وجه الكلام اليها ، وانضمت لهما :

— أوه ، أحسب أنه نفس النبأ المنتشر في البلدة كلها .. حسنا ، أستطيع أن أقول لكما إن الرجل لطيف الى حد كبير .

وهمس موظف التلغراف قائلا .. « هشا ! »

وكان بير هولم في هذه اللحظة يغادر « جراند أوتيل » ، مرتديا سترة رمادية ، واضعاً معطفاً أسود على ذراعه ، وقد حاول أن يشد نفساً من سيجار أشعله حديثاً وهو يمر بالشبان المجتمعين في ذلك الركن سائراً بخطوات خفيفة مرنة .. وبمداجتيازه مسافة قصيرة من الطريق قابل ميرل ، وتأبط ذراعها ، ومضيا معاً في حين راقبهما الشبان المجتمعون في الركن وهما يسيران .

وسأل موظف التلغراف :

— ومق يتم الزواج ؟

وقالت الآنسة بول :

— أعتقد أنه أراد إتمامه من فوره ، ولكنني أظن أن عليهما الانتظار حتى توافق الكنيسة على إعلان الزواج على نحو ما يحدث أغيرها من الناس .

كان منزل « لورينتر د . أوتنوج » المرتفع الخشبي ، المدهون باللون الأصفر ، يواجه ميدان السوق . وطابقه السفلي يضم المكتب ومتجر الحداثد الكبير ، في حين يسكن أفراد الأسرة الطوابق العليا . وكان الناس يقولون : « هذا هو المكان الذي يعيش فيه . » وعند ما يقطع ذلك الرجل المريض الكتفين ، الأشهب الإحية ، شارع البلدة ، كانوا يقولون « هاهو ذا يسير » فهل كان إذن رجلاً كبيراً على هذا النحو ؟ وهو يصعب أن يقال عنه إنه غني حقاً ، وإن كان يملك « ورشة » للتبر

الحشب ، ومصنع آلات ، ومطبخنا ، ويملك أيضا منزلا ريفيا يقع على مسافة ما من البلدة . ولكن كان فيه نفحة من زعيم .. نفحة من نبي . كان يكره القساوسة ، ويقرأ البحوث الفلسفية العميقة ، ويحظر على أهله الذهاب الى الكنيسة .. وقد زاره « بيورسون » نفسه . ومن الخير لك أن يكون من أنصارك ، فإذا عاداك كان ذلك وبالا عليك .. ويجمل بك في هذه الحالة أن تغادر البلدة كلية . وكانت له يد في كل ما يجري من الأمور ، فكانت ما هو يملك البلدة بأسرها . ومن المعروف عنه أنه قد يقابل شابا في الطريق لم يخاطبه من قبل قط فيبادره بهذا القول القاطع : « افهم ما أقوله لك أيها الشاب : عليك أن تزوج هذه الفتاة . » بيد أن لورتنز أوتروج لم يكن ، برغم هذا كله ، راضيا كل الرضا ، فهو حقيقة أسمى قدرا من قطان رينجبي جميعا ، ولكن الذي أراده في الواقع هو أن يكون أعظم رجل في بلدة أكبر من هذه مائة مرة .

والآن إذ وجد له ضحرا ، فهو يبدو كأنه يدور في صمت حول هذا الغريب المقبل من عالم كبير ، ويسير غوره ، ويسائل نفسه : « من أنت في حقيقة أمرك ؟ ماذا رأيت ، وماذا قرأت ؟ . أنت تقدمي أم رجعي ؟ أنت تقدر التقدير الصحيح ماحققته هنا من أعمال ، أم أنك تمضي ضاحكا في سرك ، وتدعوني حوثا وسط سملك صغير ؟ »

كان بير يفرك في كل صباح عينيه عند ما يستيقظ . في غرفته بالفندق . وهناك صورة فوتوغرافية لافتاة في ريمان الصبا موضوعة فوق مائدة قائمة الى جوار فراشه . ماذا ؟ يا بير ، أهو أنت الذي وجد حقا ، آخر الأمر ، إنسانا يقف الى جواره ؟ إنسانا يهتم به في هذه الحياة .. فإذا أصابك برد وجدت أناسا يحضرون ، ويلتفون حولك ، قلقين عليك ، سائلين كيف أصبحت .. وهذا يحدث لك أنت !

اعتاد أن يتغدى في منزل أوتروج كل يوم ، وكانت الأزهار تنثر دائما الى جوار صحفة طعامه . وغالبا ما كانوا يمدون له مفاجأة صغيرة ، فإما لمعة أو شوكة من فضة خالصة ، وإما حلقة منشفة نقش عليها الحروف الأولى من اسمه . وكان ذلك أشبه بجمع قطع من القش لبناء عشه الجديد . واعتادت المرأة المعجوز الشاحبة ذات العيون أن تنظر اليه في رفق ، وكأنها تقول : « إنك تأخذ مني ، واسكني أغفر لك ذلك »

وكان يجلس يوماً في فندقه عاكفاً على القراءة عندما دخلت ميرل عليه
الغرفة ، وسألته :

— أتود أن تخرج للتنزه ؟

— فكرة طيبة ، وأين نذهب اليوم ؟

— حسناً إننا لم نذهب حتى الآن لزيارة عمى ماريت في بروسيث ، وينبغي في
الحق أن نذهب إليها كما تعلم . وسأصحبك الى هناك اليوم .

وكان بير يجده زيارات المجاملات هذه لأقاربه الجدد مسلية للغاية . وقد دأب على
الطواف فعلاً ، وجمع الأعمام والعلمات . وها هي ذى عمة جديدة اليوم .. حسناً ،
لم لا يذهب ؟

— وسألها فجأة وهو يضم رأسها بين يديه :

— ولكن .. أكنت تبكين يا عزيزتى ؟

— أوه ، هذا أمر لا أهمية له .. لنذهب الآن

وصدته برفق وهو يحاول تقبيلها . ولكنها ارتعت في اللحظة التالية على أحد
المقاعد ، وجلست تنظر إليه مفكرة من خلال عينيها المغمضتين نصف إغماض ،
ومومئة برأسها إيماء خفيفاً . وبدأ كأنها تسائل نفسها : « من ذا يكون هذا الرجل ؟
وما هذا الذى آخذه على عاتقى ؟ لقد كان منذ أسبوعين غريباً عنى تماماً .. »

ومرت بيدها على جبينها وقالت :

— إنها أمى .. كما تعلم .

— أوقع اليوم أمر مكدر معين ؟

— إنها شديدة الخوف من أن ترحل بي الى الدنيا الواسعة في لحظة تشير فيها بذلك .

ولكنى أنبأتهما أننا سنقيم هنا في الوقت الحاضر .

ولوت الفتاة لها الى جانب في ابتسامة ، وكاد جفناها يغلقان .

— وما رأى إذن فيما يتعلق بي ؟ ... وقد عشت كل هذه السنين متلهفة على
الرحيل إلى الخارج ؟

وقال بير ضاحكا :

— وأنا الذى يتلهف على البقاء فى بلده ! ما أمتع أن يكون للانسان ، آخر الأمر
بيت وأسرة ... وأمان وهدوء ؟

— ولكن ما رأى فيما يتعلق بي !

— ستكونين هناك أنت أيضا . سأدعك تعيشين معي .

— أوه ، ! كم أنت أخرق اليوم ! آه لو تعرف فقط معنى تبديد المرء لأحسن منى
صباح فى جعر كهذا ! ويضاف الى ذلك ... أنه كان فى وسمى أن أحقق شيئا ذا قيمة
فى ميدان الموسيقى .

وقال بير وهى يجمد جبينه كأنما يريد أن يضحك .

— فلنرحل الى الخارج إذن على أية حال .

— أوه ، هذا هراء ، فأنت أدري بأنه من المستحيل علينا تماما أن نرحل ونترك
الآن أمي . ولكنك جئت بالتأكد فى وقت ملائم تماما . فأنى على أية حال كنت فى
هذا الوقت بالذات أتوق وأتوق الى رجل يقبل ويمضى بي .

— آها ! أنا لم أكن إذن إلا نوعا من تذكرة سفر للقيام برحلة .

وتقدم إليها ، وقرصها من أنفها .

— أوه ! خير لك أن تكون حذرا ، فأنا لم أعدك بعد حقا بأن أتزوجك ...

كما تعلم .

— لم تعدينى ؟ فى حين أنك فى الواقع طلبت ذلك أنت بنفسك .

ودقت يدا بيد :

— يا لها من صفاقة وقعة ! أتزعم ذلك بعد أن قضيت أياما بأسرها وأنا أقول لك لا ، لا ، لا ... لا أريد ، لا أريد ، لا أريد ... وظللت أكرر لك ذلك عدداً كبيراً من المرات . وكنت تجهيني بأن ذلك لا يهم ... لأنك « تريدني » . نعم ، إنك أخذتني على غرة أخذ جائر مستبد ... ولكن حذار الآن .

وفي اللحظة التالية ألفت ذراعيها حول عنقه . ولكنها صدته عنها ثانية عند ما حاول تقبيلها ، وقالت :

— لا ، ينبغي ألا تظن أني طوقت عنقك لهذا !

وبعد قليل كانا يقطعان الطريق الزراعى متجهين إلى العمة ماريت في بروسيت ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر . وكان الشهر شهر سبتمبر ، وكل ما يحيط بالسهل المكسوة بالأشجار يترأى قائماً أصفر اللون ، وكانت حقول القمح ذهبية ، وتوت الجبال قرمزياً ، ولكن الصيف كان لا يزال شائماً في الجو :

وصاح ميرل وقد توقفت عن السير مبهورة الأنفاس :

— أوج ! كم أنت تسير بسرعة غير مستطاعة !

وجلسا فوق الحشائش إلى جوار الطريق عند ماوصلا إلى « البوابة » . وكانت البلدة تقع تحتهم بأسطحها العديدة ، ومداخلها القاعة تجاه البحيرة المتألقة التي تنبسط محاطة بالضياح والحقول الواسعة الامتداد .

وسألت ميرل فجأة :

— أتعرف كيف حدث وأصبحت أمي ... على ما هي عليه ؟

— لا ، أنا لم أود أن أسألك عن هذا .

وجذبت من بنى شفيتها عوداً من الحشائش

— حسناً ، اعلم ... أن جدى لأمي كان قسا . وعند ما ... عند ما حضر عليها أبى الذهاب إلى الكنيسة أطاعته . ولكنها لم تستطع أن تنام بعد ذلك . لقد أحست كما لو أنها باعت روحها .

— وماذا قال أبوك في ذلك ؟

— قال إنها حالة هستيريا . ولكن سواء أكانت هستيريا أم لا فإن أمي لم
تستطع النوم . وأخيرا اضطروا لنقلها الى مصحة .
وقال بير وهو يمسك بيد الفتاة .
— مسكينة !

— وعند ما عادت من هناك كانت قد تغيرت الى حد يصعب معه على المرء أن
يعرفها . وتراجع أبي قليلا... تراجع أكثر مما اعتاد طوال عمره... وقال: «حسنا ،
حسنا ، أحسب أنه لا بد من ذهابك الى الكنيسة فيما إذا رغبت في ذلك ، ولكن
عليك ألا تبالي بعدم ذهابي معك . » وعلى هذا أمسكت بيدي في يوم أحد ، ومضينا
سويا ، ولكننا عند ما وصلنا الى باب الكنيسة ، وسمعنا عزف الأرغن داخلها دارت
على أعقابها وقالت : « لا ، لقد فات أوان ذلك الآن ... فات أوان ذلك ياميرل . »
ولم تذهب الى الكنيسة منذ ذلك اليوم قط .

— وظلت غريبة الأطوار دائما ... منذ ذلك الحين ؟ ...
وتنهدت ميرل :

— وأساء ما في الأمر أنها تجدد شرورا كثيرة تحيط بها ، وتقول إن الشيء
الوحيد الذي يمكن عمله هو التنفيس عن تلك الشرور بالضحك ، ولكنها لا تستطيع
هي نفسها أن تضحك ، وعلى ذلك اضطرت أنا الى الضحك . ولكنني عند ما ابتعد
عنها ... أوه ! عندئذ لا أستطيع احتمال ذلك .

وخبأت وجهها في كتفه ، وبدأ يمسح شعرها .
ورفعت بصرها ، مبتسمة ابتسامتها الجانبية :

— خبرني يا بير ... من منهما على حق ؟ أمي أم أبي ؟

— أحاولت حل هذه المشكلة ؟

— نعم ، ولكن ذلك ميثوس منه كل اليأس ... ومن المستحيل كل الاستعالة
أن يصل المرء الى أي نوع من اليقين . وماذا ترى أنت في ذلك ؟ قل لي يا بير ، ماذا
ترى في ذلك ؟

وجلّسا هناك في خلوة وسط يوم الحريف الذهبي ، وكانت تضغط كتفه برأسها ...
لماذا يقوم بدور الرجل المتفوق ، ويحاول تضليلها بعبارات مبهمّة ؟

يا عزيزتي ميرل ، أنا لا أعرف بالطبع أكثر مما تعرفين ... لقد مر بي وقت رأيت فيه الخالق يمسك عصا بإحدى يديه ، وقطعة من الحلوى باليد الأخرى ... مجرد عقاب وثواب إلى أبد الآبدين . ومن ثم ابتعدت عنه لأنه بدا لي جبارا ... وفي آخر الأمر توارى عني في السموات العلى بين الأفلاك الشمسية ، وبين الفضاء اللامتناهي هنا في هذه الحياة الدنيا ، فماذا كانت حياتي بالنسبة لهذا ؟ وماذا كانت أحلامي وأفراحي وأحزاني ؟ وما الذي كنت أهدف إليه ؟ .. لقد ظل في نفسي شيء يقول لي على الدوام : إنه موجود ! .. ولكن أين ؟ .. في مكان ما وراء الأشياء التي تعرفينها ... هناك هو موجود . ولذلك عقدت العزم على أن أعرف قدراً أكبر من الأشياء ... قدراً أكبر وأكبر وأكبر وكنت أكثر حكمة ؟ وإذا حطمت رأسي مطرقة بخارية في يوم من الأيام . . . فماذا يكون مصير ما فزت به من نصيب في التقدم والثقافة والعلم ؟ إن وجودي لا يزيد عن مصادفة وجود أية ذبابة أو نملة ؟ ألا يعني وجوده شيئاً أكثر من ذلك ؟ هل أتبدد ولا أترك إلا مثل ذلك الأثر الضئيل ؟ أجيئني على ذلك يا صغيرتي ميرل ملا رأيك ،

وجلّست الفتاة دون حراك ، تنفّس في هدوء ، مغمضة العينين ، ثم بدأت تبسم .
وكانت شفتاها ممتلئتين حمراوين ، واتخذتا أخيراً شكل الاستعداد لقبلة .

كانت بروسيث ضيعة كبيرة تقع في أعلى البلدة بمحيطتها النضاء ، وطرقها المحاطة بالأشجار ، وشرفات بيوتها الأبيض المستطيلة الدائرة حوله . وما أجمل المنظر البادي تحتها حول البحيرة والريف الممتد عن بعد في مختلف نواحيها ! ووقف كلاهما لحظة عند البوابة ، ملتفتين خلفهما .

كانت عمة ميرل أرملة غنية ، ذات وجاهة وحل وعقد ، ولكنها ذات نزوات إلى حد ما ، فينة أن تكون سخية في يوم من الأيام ، بخيلة في اليوم الذي يليه . وكان همها في هذه الحياة أنها لم ترزق أطفالا ، ولكنها لم تقرر بعد من يكون ورثتها . ودخلت الغرفة وكأنها تسبح في الهواء حيث كان الخاطبان في انتظارها . ورآها ير

وهي تقبل صوبهما ، امرأة فارعة الطول ، ممتلئة الصدر ، شائبة الشعر ، متوردة اللون . وقال لنفسه : « أوهوه ! هاهي ذى عمة لك لامناص منها . » وخلمت مئزراً أزرق كانت ترتديه ، وبدت مكسسية بثوب أسود من الصوف ، مطوقة العنق بسلسلة ذهبية ، ومزينة الأذنين بقرط ذهبي طويل . . وقالت :

— لقد فكرتم إذن في زيارتي أخيراً ، وتذكركم على أية حال وجودي فعلاً ، أليس كذلك يا ميرل ؟

والتفتت إلى بير ، وظلت تفحصه بعينيها ، متكئة يديها على جانبيها :

— هكذا أنت تبدو إذن ، أليس كذلك يا بير ؟ وأنت الرجل الذي قدر له أن يفوز بميرل ؟ حسناً ، هأتذا ترى أني أدعوك بير من فوري ، وإن كنت قد جئت متجشماً الرحلة الطويلة من . . الجزيرة العربية ، أليس كذلك ؟ اجلس ، اجلس .

وجيء بالنبيذ . ورفعت العمة ماريت ، صاحبة ضيعة بروسيت . . رفعت كأسها صوب الحاطبين لتشرب نخبهما ، وقالت مايلي :

— إنكما ستشاجران بالطبع ، ولكن إياكما والتطرف في ذلك ، هذا كل ما في الأمر . وأصغ إلى كلمتي يا بير هولم ، إذا أنت لم تحسن معاملتها فساخضر إليك في يوم من الأيام وأشد لك أذنيك . . في صحنكما يا ولدي !

وسارا كلاهما عائدين إلى داريهما ، وتأبط كل منهما ذراع الآخر ، وأخذوا يرقصان في سفوح التلال ، ويغنيان مغتبطين وهما يواصلان مسيرهما . ولكن ميرل توقفت فجأة وهما لا يزالان على مسافة ما من البلدة ، وأشارت هامسة :

— هاهي ذى ، هاهي ذى أمي !

كانت امرأة تمشي بمفردها على مهل في ضوء الشفق ، متخطية حقلاً حصدت حنطته ، ومتلفتة فيما حولها . وكانت تبدو كأنها تأخرت هناك لتستجلي معنى شيء ما . . أو معنى أشياء كثيرة . وكانت ترفع بصرها كل حين وحين إلى السماء ، أو تنفضه إلى البلدة البائوية تحتها ، أو إلى عابري الطريق ، ثم توميء برأسها . . وكم كانت تبدو بعيدة

بمدا غير محدود ! وغريبة تماما عما يرتكب الرجال من أعمال صاخبة ! .. ما الذى تراه الآن ؟ وأين تحوم خواطرها ؟

وهمست ميرل وهى تهذبها معها :

— دعنا نواصل السير .

وعلى حين فجأة بدأت الفتاة تنفى بصوت مرتفع وكأنها مدفوعة بفيض من البهجة . وحذر بير أن تفعل ذلك فى سبيل أمها . ولعل المرأة المختلة بنفسها تقف الآن هناك فى الشفق مبتسمة . وهى تشيعهما بنظراتها .

وفى صباح يوم أحد ركبت ميرل عربة خفيفة يحبرها حصان أسمر ضخم ، وتوجهت بها الى الفندق . وجاء بير ، وتسلق العربة تاركاً الأجام للفتاة . وكانا سيجتازان شاطئ الفيورد فى طريقهما لتفقد الضيعة الكبيرة المملوكة لأبى ميرل ، والذى كانت دارها فى الزمن الماضى مقرا رسميا لحاكم الإقليم .

كان شهر سبتمبر قد بلغ نهايته ، والشمس لا تزال دافئة ، ولكن ماء البحيرة كان رماديا ، والحقول محسودة الزرع . وهنا وهناك كانت تمتد خطوط من سيقان البطاطس ملقاة فى انتظار غرسها . وفى الجوانب العليا من التلال وقفت الخيول المقيدة فى المراعى تومىء برؤوسها فى بطة . وكأنها لم تجهل بأن اليوم يوم أحد . وكان هناك ضباب خفيف متخلف من رطوبة الليل يسبح هنا وهناك فوق المنظر الطبيعى المترامى الأطراف .

واجتازا غابة ، ووصلا من ناحيتها الأخرى الى بحر محاط بصفيين من شجر البلوط ، متفرع من الطريق العام ، صاعد فوق التل الى قصر كبير يرفرف فوقه علم . وكان هذا المسكن الأبيض الكبير يقع على مرتفع من الأرض ، وكأنما هو يقصد بموتما هذا أن يعتد بصره بعيدا الى أطراف العالم الذى يشرف عليه . وكانت بيوت المزرعة المحر تحيط بالفناء الواسع من ثلاث جهات ، وتبدو من تحتها الحدائق والأراضى العريضة ، منعقدة الى ناحية البحيرة .. إنه لشيء يشبه ضيعة حقا !

وصاح بير وهو ينظر الى تلك المباني :

— ما اسم هذا المكان ؟

— لورينج .

— ومن مالكة ؟

وأجابت الفتاة وهى تفرقع سوطها :

— لا أدرى .

وفى اللحظة التالية دار الحصان سالكا طريق القصر ، فأمسك بير الاجام دون قصد وصاح : « هيه أيها الأسمر .. إلى أين أنت ماض بنا ؟ »
وقالت ميرل :

— لماذا لانصمدونلقى نظرة ؟

ولكننا جئنا لئرى ملك أيبك

— حسنا . هذا هو ملك أبى

وحلق بير فى وجهها ، وأرخى العنان للحصان :

— ماذا ؟ ماذا ؟ أتقصدين أن تقولى إن أباك يملك هذا المكان الواقع هناك ؟

وبعد مضى بضع دقائق كانا يتجولان خلال الغرف الهائلة ، الوطيئة الأسقف .
والمنزل الآن خال بأسره ، فناظر الضيفة يقطن فى مساكن الخدم . وازدادت حماسة بير شيئا فشيئا .. فقد كانت تنمقد هنا ، فى هذه الغرف الواسعة ، حفلات كثيرة فى أثناء ولاية الحكام القدامى ، حيث كان الفرسان ، وهم يرتدون ستراتهم الرسمية ، وقمصانهم ذات الأهداب ، ومهامزهم الذهبية ، يقبلون أيدي السيدات الرافلات فى الثياب الحريرية .. إن خشب « المغنى » القديم ، « والزهريات » الملأى بمختلف أوراق الورد ، والأغاني المبهجة ، والفكاهة واللاطف .. كل ذلك رآه بير بعين الخيال ، وكان يضطر مراراً وتكراراً أن ينفس عن مشاعره بإمسك ميرل واحتضانها :

— أوه ، ولكن اسمى يا ميرل ، إن هذه قصة وهمية .

وخرجا الى الحديقة القديمة المهملة ذات الممرات النامية الحشائش . والبرك المملوءة بالأسماك . وجوارق الحديقة المتهدمة . واندفع بير الى مختلف اتجاهاتها . فقد كانت

هنا أيضاً تقام الأعياد ، وتعلق المصابيح الملونة حول المسكان ، وكان في ظل كل دغل يتهامس عاشقان :

— يا ميرل ! أتقولين إنى أبالك كان سيبيع هذا كله الى الدولة ؟

وأجابت الفتاة :

— نعم ، إنى أتوقع أن هذا هو ما سينتهى إليه الأمر . وأبى يقول إن المسكان لا يعود عليه بريح ما دام أنه لا يستطيع الإقامة به والإشراف عليه بنفسه .

— ولكن أى نفع تجنيه الدولة منه ؟

— أوه ، أعتقد أنها ستجعل منه مصحة للممتوهين .

— يا إلهى ! كان من الممكن أن أحزر ذلك . * مستشفى الممتوهين .. بالتأكيد .

وطاف حول المسكان وهو يكاد يقفز من الانفعال .

— ميرل ، اسمعى .. أتوافقين على إلجئء والسكنى هنا ؟

— أريد من أن أجيب على سؤالك الآن من فورى ؟

— نعم ، لأنى أريد شراء هذا المسكان الآن ، من فورى .

— ولكن ، ألت ..

— انظرى يا ميرل ، انظرى فقط الى هذا كله .. هذه الشرفة المستطيلة هناك

ذات الأعمدة اليونانية الطراز .. ليس هنا شئ رث يشوب المسكان .. إنه الشئ الأصيل .. إمبراطورية .. أنا أعرف شيئاً عن هذا .

— ولكنه سيكلفك مبلغاً كبيراً يا بير .

وكان صوتها يدل على شئ من الإحجام ، فهل انصرف تفكيرها الى مكانها ؟ ..

أهى لا تريد أن تثبت كل الثبات على رأى ؟

وقال لها :

— سيكلفنى مبلغاً كبيراً ؟ ما الثمن الذى دفعه أبوك فيه ؟

— بيع المكان بالمزايدة العلنية ، ودفع فيه أبى عنأ وهيدآ . . أظن الثمن كان
خمين ألف كراون .

وخطا بير صوب المنزل ثانية :

— سنشتره . إنه المكان المناسب تماماً لنجعل منه بيتاً . . خيول وماشية وغنم
وماعز ومزرعة . . آه ! سيكون ذلك عظيماً .

وتبعته ميرل وقد ازدادت خطواتها بطئاً :

— ولكن تذكر يا بير أنك اشتريت من توك مصنع آلات أبى فى المدينة .
وقال بير ساخراً :

— يوه ! أظنن أنى أعجز عن إدارة ذلك المصنع الربى ، وأتم هنا أيضاً ؟ . .
تعالى يا ميرل .

وأمسكها من يدها وجذبها الى المنزل ثانية .

ولم تكن هناك جدوى من محاولة مقاومته ، وجرجر الفتاة من غرفة إلى غرفة ،
وأث كل غرفة فى أثناء مروره بها :

— هذه الغرفة هى غرفة الطعام . وهذه غرفة الاستقبال الكبرى . وهذه
سنكون غرفة المكتب . . وهذه خدرك . . تعالى الآن ، وسنذهب غذا الى كريستيانا
لنشترى الأثاث .

ولمشت ميرل محاولة التقاط أنفاسها . فقد شطح هذه المرة بعيداً إلى حد أن تم
فرش المنزل ، وأقبلت فأقاما فيه . وقد جاء منذ الآن بمذبرة للمنزل . وأقام الحفلات
أيضاً . . هنا قاعة الرقص . . وأنسلت ذراعه حول خصر ميرل ، ودار يرقص معها
فى الغرفة الى أن ذهبت بها الحماسة كل مذهب ، فوقفت متوردة اللون ، متهالة الوجه ،
فى حين أن كل ما حلت به من عثورها فى أحد الأيام على وسيلة تخرج بها الى العالم
الفسح ، بدا كأنه تبدد من حولها هنا فى هذه الغرف الخالية . . أهذا المكان سيصبح
بيتها حقاً ؟ وتوقفت لتلتقط أنفاسها ، وتدور بنظرها فيما حولها .

وفي ساعة متأخرة من المساء جلس بير في الفندق ، وأخذ يحسب في دفتر صغير حساب الصفقة . لقد اشترى «لورينج» ، وكان حموه معقولا ، فباعه الدار والأراضي والغابات وكل ما عدا ذلك بنفس الثمن البخس المضحك الذي اشتراها به . وكان ذلك العقار مرهونا نظير مبلغ ثلاثين ألف كراون . . حسنا ، فليظل الرهن باقيا كما هو لأن الجانب الأكبر من رأسمال بير محتجز للاستثمار بشركة فردناند هولم .

وبعد مضي بضعة أيام رحل بيرل الى العاصمة تاركا النجارين والدهانين يعملون بمجهد في لورينج .

وبينما كان يجلس وحده يوما بفندق كريستيانا — إذ خرجت ميرل وقتئذ تنسوق — سمع دقة حذرة بالبواب ، فنادى :

— ادخل .

ودخل الغرفة رجل وسيط القامة ، في الثلاثين أو يزيد ، يرتدى سترة سوداء من طراز «الفروك» ، وصدريّة عريضة ، ويغطي الجانب الأصلع من قمة رأسه بشمره الأسود المتقن بتمشيطة . وكان له وجه أحمر متهلل ، وعينان زرقتهما صافية أشد الصفاء . . كان كل مافيه ينضج ويتألق بشاشة ولطفا .

قال القادم الجديد في انحناءة وابتسامة :

— أنا أوتهوج الابن

— أوه . . هذا عظيم .

— جئت توا من مانشستر . . . رحلة كريهة . شكرا ، شكرا . . . سأجد لي مقعدا .

وجلس ، وألقى بساق ذات سروال مخطط على الساق الأخرى .

وأرسل بير في طلب نبيذ . وفي خلال نصف ساعة أصبحا حليفين حميمين . وحكى أوتهوج الابن قصة حياته في سرعة . لقد هرب من بيت أبيه لأن هذا الأخير رفض أن يسمع له باحتراف التمثيل . . وقد وجد بالتجربة أنه لم تكن ثمة مسارح كافية في تلك الأيام لتتيح له الالتحاق بها . . ثم اشتغل بالأعمال الحرة لحسابه الخاص ،

وأصبحت له الآن وكالة عامة لبيع الأقمشة الصوفية الإنجليزية . كان رأيه التمتع
« بالحرية ، بالحرية . » « وشق الأمكنة المسيحية . . الأمكنة التي تتسع للحركة دون
أن يقول المرء لأبيه أو لغير أبيه : بعد إذنك ، أو عن إذنك . . في صحتك ! »

وبعد مضي أسبوع اكتظ الشارع ، خارج منزل لورتنز د . أوتنوج ، بأناس
تطلعوا جميعاً الى صفوف طويلة لنوافذ مضادة . لقد أقيمت تلك الليلة وليمة في بيت
الرجل العظيم . وحوالي منتصف الليل جاءت عربة الى باب البيت ، وهمس أحد
النظارة : « هذه عربة الزوج . لقد جاء بهذين الجوادين من الدينمارك ! »

وفتح باب البيت الرئيسى ، وظهرت على السلم طلعة بيضاء الوجه ، متدثرة بلباس
سميكة ، وهمس الحشد المتجمع : « هذه المروس ! » ثم ظهر رجل رشيق يلبس معطفاً
أسود . وقبعة حريرية . . « وهذا الزوج ! » وبينما كان المروسان يمران تعالى
صوت صاحب الوكالة العامة لبيع الأقمشة الإنجليزية ، وهتف « مرحى ؛ مرحى . . »
وعلى الأثر توالى هتافات الناس طواعية

وسارت العربة ، وجلس بير مطوقاً خصر عروسه بذراعه ، وأطلق الجواديه
المنان مجتازاً طريق الفيورد ، ومضى صوب بيته ، صوب قصره ، صوب مستقبل جديد
غير مختبر

الفصل الخامس

تحت سقيفة الحطب في « لورينج » وقف رجل ضئيل أشعث ، شائب اللحية ، يقطع بعض الحشب وينشره . وكان يعيش في تلك الدار مدة أطول من الحد الذي يستطيع أحد أن يتذكره . وكان سيد من سادة الدار يرحل عنها ، ويحمل محله سيد آخر ، ولكن أكان ذلك يهم الرجل الضئيل في شيء؟ ألم يكن ذلك السيد يحتاج إلى خشب للوقود ، وكذلك السيد الآخر يحتاج للوقود مثل الأول تماماً؟ ... واعتاد في المساء أن يتسلل إلى مخدعه في أعلى جناح الخدم . وفي أوقات تناول الطعام كان يجلس في آخر مقعد من مقاعد مائدة المطبخ ، ويخيل إليه أن هناك دائماً طعاماً يمكن الحصول عليه . وفي الوقت الراهن كان اسم صاحب الدار هولم ... وهو مهندس ... وكان الرجل الضئيل يختلس النظر إليه ، ويستمر في تقطيع الحشب تحت السقيفة . وإذا جاءوا إليه وأنبأوه أنه غير مرغوب فيه ، ولا بد من مغادرته للدار ، فهو يصبح عندئذ ، والحمد لله ، حجراً أصم على نحو ما يعلم الجميع . وكان صوت ضربات فأسه لا ينقطع تحت السقيفة . واعتاد من يقطنون حول ذلك المكان صوت فأسه إلى حد أنهم لم يعيروه اهتماماً أكثر من اهتمامهم بدقات ساعة معلقة بالجائط .

وفي مطبخ البيت الكبير وقفت فتاتان إلى جانب النافذة تختلسان النظر إلى الحديقة وتتضاحكان ... قالت لورا :
— ها هو ذا يبدو ثانية ... « هش » ! لا تضحكي بصوت عالٍ إلى هذا الحد ...
ها هو ذا ... إنه يتوقف الآن ثانية !

وقالت أوليانا :

— إنه يصفر لصفور ، أو لعله يخاطب نفسه . أتظنين أنه سليم العقل تماماً ؟

« هش ! » ستسمعك السيدة .

لم يكن هذا الرجل الذي أدهشتها تصرفاته إلى حد أن وجدتها مضحكة جداً !
إلا سيد قصر لورينج نفسه .

إنه يبريحم في أرجاء الحديقة الكبيرة المهيمة ، واضعاً يديه في جيبي سرواله ، وقبعته في مؤخرة رأسه . وكان يتوقف هنا ، ويتوقف هناك ، ثم يواصل السير وفق ما يلى عليه هواه . وكان يهمهم أحياناً فقرة من أغنية ، أو يتقلب ثانية إلى الصغير . وقد

يلتقط هنا غصناً وينظر إليه ، وقد يهتم بصغير مرة أخرى ، أو لعل شجرة تفاح مهمة
 هي التي تستحق على ما يبدو أن يتوقف أمامها ويخاطبها ، وأفضل ما في الأمر أن هذه
 الأراضي وهذه الغابات الراقدة تحت شمس أكتوبر الصدئة هي أراضي وغابات .
 فهل هذا كله لا يعد شيئاً ؟ وكذلك التل الذي يقع على الشاطئ البعيد ، ويبدو في
 مرآة البحيرة الداكنة واقفاً على رأسه مكتسباً بعالم كامل من الألوان ... أغصان صفر ،
 وأغصان خضر ، وأخرى ذات بقع وردية وقرمزية وذهبية وحمراء قانية ، تتخللها
 أغصان شجر الصنوبر ذات اللون الأخضر الداكن . كان في وسع عينيه أن تستريحاً
 بين أحضان هذا كله . أهو يعيش هنا حقاً ؟ ما أوفر الحصب المحيط به ! ويا لها من
 سماء بدا من اتساعها ، ومن لونها الذهبي كأنها تطوق الأرض مرة فوق مرة . ورقدت
 جذوع البطاطس ، مرتفعة السيقان إلى أعلى ، منتثرة في الحقول . وحفظ القمح في
 مخازنه .. ها هو ذا يقف هنا ؟ ويبدو ثمانية كأنه يستمد الغذاء من كل ما يرى ،
 ويمبه عبا في شراة . لقد امتلأت نواحي عقله الفارغة كلها ، وأثر في كيانه المنظر
 الطبيعي الغني الرقيق ، وخلع عليه شيئاً من خصبه الوفير ، ومن سكينته العميقة .

و ... ماذا بعد ذلك ؟

وساءل نفسه مردداً في محاكاة آلية « وماذا بعد ذلك ؟ » وبدأ يتجول من جديد
 رائحاً غاديا في مماشى الحديقة ... ماذا بعد ؟ ... ماذا بعد ؟ ألا يستطيع أن يتيح
 لنفسه الآن أن يتمهل ... وأن يستريح قليلاً ؟ ... لابد أن تكون لكل إنسان غاية
 يضعها نصب عينيه ... ولا بد أن يناضل حتى يبلغ هذا الهدف أو ذاك . فما هو هدفه
 الآن ؟ وأي شيء بذل كل هذا الجهد في سبيله منذ تلك السنوات القاسية التي قضها
 في الغرفة المسعورة فوق الإسطبل حتى الآن ؟ ما هو هذا الشيء ؟ ... في أغلب الأحيان
 يبدو كأن كل شيء يجري في يسر ... يجري من تلقاء نفسه ، وكأنه هو سيجد دون
 مرأ ، في أحد الأيام ، نصيبه في تناسق عالم سعيد عظيم . ولكن أهو لم يجد ذلك
 الآن ؟ وما الذي يمكن أن يجده زيادة على ذلك ؟ ... لاشك أنه وجده .

ولكن أهذا هو كل شيء إذن ؟ وماذا يمكن خلفه ... ماذا يمكن وراء حدوده ؟
 منه اكف عن التساؤل . انظر إلى الجمال المحيط بك ... هنا الاطمئنان ... الاطمئنان
 والراحة .

وصعد مسرعا إلى البيت ... ودخله ... وإذا استطاع أن يطوق زوجته بذراعيه
تقد يعين ذلك على إصلاح الأمور . وقد يحمل زوجته على الخروج معه لفترة
من الزمن .

وكانت ميرل في مخزن المؤن مؤتزرة بمزر كبير ، مشتغلة بتفسيق دنان الأطعمة
المحفوطة فوق الرفوف .

وصاح بير وهو يلقي بذراعيه حولها :

— هأنت ذى يازوجتى الصغيرة العزيزة ، ما رأيك فى جولة قصيرة ؟

— الآن ؟ أحسب أن ربة البيت ليس لها شاغل أفضل من التجول هنا وهناك ؟

أف ! ... شعرى ! إنك تفسد تمشيطة .

وأمسك بير بذراعها ، وقادها إلى النافذة ، وأطل على البحيرة :

— انظرى يا عزيزتى ! أليس المنظر بديما هنا ؟

— إنك ظلمات تسألى هذا السؤال عشرين مرة فى اليوم الواحد منذ مجيئنا

إلى هنا .

— نعم ، وأنت لم تجيبي على سؤالى قط . ولم تسرعى إلى مرة واحدة حتى الآن ،

وتطوقى عنقى بذراعيك ، وتقولى لى كم أنت سعيدة . بل لم يحدث إلى اليوم قط أنك

منعتينى قبلة من تلقاء نفسك .

— أحسب أنه لا ينبغى لى ذلك ما دمت تحتاس منى هذا القدر الكبير .

من القبلات .

وزحزحته عنها جانبا ، وتملمت من تحت ذراعه ، وجرت إلى خارج العرقة ،

وقال فى أثناء خروجها :

— لا بد من الذهاب لأرى أمى ثانية اليوم .

— « ويت ا » ... بالطبع .

واخذ يذرع الغرفة رائحا غاديا ، ونمت خطواته على ازدياد ضجيره :
 — الذهاب إلى أمك ... الذهاب إلى أمك ! ... أمك ، أمك ، ولا شيء غيرها
 دائما وإلى مالا نهاية ... ويت ! ... ويت !

وبدا يصفر .

وأطلت ميرل برأسها من الباب :

— يا بير ... أليك هذا القدر الهائل من الوقت المتوفر ؟

— حسنا ... نعم ، ولا . أنا مشغول الى حد كبير بالبحث في كل ركن حولي
 هنا عن شيء ما ، ولكنى لا أستطيع أن أجده ، ولا أعرف حق ما هو هذا الشيء
 على وجه التحديد ... أوه ، حسنا ، نعم ... إن لدى قدرا كبيرا من الوقت المتوفر .
 — ولكن ماذا عن أعمال المزرعة ؟

— حسنا . هناك حالبة اللبن في حظيرة البقر ، وسائس الخيل في الأسطبل .
 وهناك وكيل الأعمال الذى من شأنه أن يهتم بمستأجرى الأرض والفلاحين . فماذا
 أصنع أنا ... هل أتدخل هنا وهناك لأقوم بشيء من التحسينات ؟

— ولكن ماذا عن المصنع ؟

— ألا أذهب إليه مرتين يوميا ... ألا أركب إليه لأرى كيف تسير الأمور فيه ؟
 ولكنه مع وجود «رود» مديراله ... ذلك المهندس الممتاز هو المبادئ السامية ...

— أنت تستطيع بالتأكد أن تعاونه بطريقة ما ؟

— إن عليه أن يسير فى نفس الخط الذى اعتاده ، وليس أمامه غير ذلك .
 يا عزيزتى . والحصول على ربح صاف يبلغ أربعة آلاف كراون ، أو خمسة آلاف
 كراون ... ! إن هذا رائع !

— ولكن ألا تستطيع أن تزيد اتساعا ؟

ورفع حاجبيه ومط فمه .

— أزيده اتساعا ؟ ... أقلت أزيده اتساعا ... أزيد اتساع متعبر للدمى !

— أوه ، ينبغي ألا تسخر منه يا بير ... هذا الشيء الذي بذل أبي كل ذلك
الجهود في سبيل إنشائه !

— وأنت يا ميرل ينبغي ألا تظلي تضايقيني لتعلميني على العودة الى العمل جدياً .
ينبغي حقاً ألا تفعل ذلك . وفي يوم ما قد أجد أن لا سبيل الى السعادة في هذه الدنيا
إلا إذا جررت محراثاً ، ونظرت أمامي رأساً ، ونسيت وجود أى شيء عدا ذلك .
وامل الأمر سيصل بى إلى هذا في يوم من الأيام . ولكن امنعيني أولاً مندوحة من
الوقت أتنفس فيها ... وأجيبني ... حسناً ، أستودعك الله لفترة قليلة من الزمن .

وأطلت ميرل من النافذة ، بعد شغل نفسها بالعمل ثانية في مخزن المؤن ، ورأته
يدخل « الإسطبل » ، ويتوارى هناك . وكانت في بادىء الأمر تراقبه في تجواله على
هذا النحو ، ولمسه كل الأشياء التي يملكها وجسها . وقد يحدث في حظيرة الماشية أن
يربت البقر ، ويمسح جلدها ، ويتعرض لامتلأته بشعرها ، ويثرثر في قرح كفرح
الأطفال : « انظري يا ميرل ... هذه البقرة ملكي أيتها الطفلة ! و« دجروس » هو
اسمها ... وهي ملكي . ولدينا أربعون بقرة مثلاً ... وهي كلها ملكي . وهذا الحصان
الصغير هناك ... ما أجمل منظره ! إن لدينا ثمانية أحصنة مثله ، وهي جميعها ملكي ...
وملكك أنت أيضاً بالطبع ، ولكنك لا تبالين بها قليلاً ، بل إنك حق لم تحتضني أى
واحد منها إلى الآن . ولكن عند ما يكون المرء فقيراً على نحو ما كنت أنا ... ثم
يستيقظ في يوم من الأيام فجأة ويجد أنه يمتلك هذا كله ... لا ، انتظري لحظة ،
يا ميرل ... تعالي وقبلي « براوتى » العزيز . إنها تعرف هذه الطقوس والشعائر الآن ..
وهو قمين أن يكررها جميعها مرة بعد مرة ، ويبدى في كل مرة نفس عجبه السعيد .
فهل هو شيء شنيع منها أنها بدأت تجد ذلك مضحكاً بعض الشيء ؟ وكيف يحدث أنها
في أغلب الأحيان ، عند ما يعتلى قلبها بأعمق مشاعر الشوق إليه ، وينقض هو عليها
في صخب ، متمطشاً الى تدليلها له ، تبردمشاعرها فجأة ، وتبعده عنها جانباً ؟ ما الأمر ؟
لماذا تصرف على هذا النحو ؟

لعل ذلك يرجع إلى أنه أقوى كثيراً ، ومتقلباً في تأثيره عليها إلى حد اضطرها
إلى التماسك بقوة حق تتجنب التعرض للاكتساح وفقدان شخصيتها ، وهما قد يجلسان
في لحظة من اللحظات تحت ضوء الصباح ، ويتسامران في سر ، ويشدد التداين بين

قليبيهما وعقليهما ، ثم ينتهى ذلك فى اللحظة التالية . . فقد يهب من مقدمه فجأة ، ويلقى ما يشبه المحاضرة وهو يزرع الغرقة ذهاباً وإياباً . . ياميرل ، أليست حياة النبات الروحية مذهشة ؟ . . ثم ينحدر سيل جارف من الحديث عن نمو النباتات الغريبة فى الشمال والجنوب ، نباتات لم تسمع قط حتى اسمها . . وصراع تلك النباتات فى سبيل الحياة ، وموداتها وأشواقها ، وبطولاتها فى احتمال الأمراض ، وأعجوبة موتها المقدسة ، وابتكاراتها ، وحكمتها . . بل ، وشموورها الدبنى . . أليس ذلك عجيباً ياميرل ؟ وليس من عمة إلا خطوة واحدة للانتقال إلى طبقات الأرض والحفريات والتبلورات . . محاضرة جديدة . . ثم إنه يحمل ذلك كله ، ويسلكه فى تناسق واحد هائل لحركة التطور ، ابتداء من الخلية الأولى للحياة إلى قوانين الجاذبية التى تتحكم فى مجرى الأفلاك . . أليس هذا مذهشاً ؟ نعم موزون عام يشمل إيقاعه الكون . . إنه « سيفونية » العوالم بأسرها . . ولا بد له بعد ذلك أن ينال قبلة !

ولكنها لم تكن تستطيع إلا أن تراجع وتنحيه جانباً فى رفق . . وكأنما هو قد جاء بجميع معارفه المختزنة . . معارفه عن النباتات والحفريات والتبلورات والنجوم . . وصبها كلها فى ملاطفة وتدليل . . ولا تكاد ميرل تستطيع إلا أن تصبح مستغيثة . . وبعد أن يمر بها ، على هذا المنوال ، خلال أعاجيب العالم ، قد يسلك بها فجأة بين ذراعيه ، ويدور بها فى نشوة عاطفية من نشوات حواسه حتى تصحو آخر الأمر فتجد كأنها امرأة ضالة فى جزيرة لا تكاد تعرف أين هى ، أو من هى . . وتضعك ، ولكن كان فى وسعها أن تدرك أنها فى أعماقها تبكى . . أيمكن أن يكون هذا هو الحب ؟ . . إن المشاعر المختزنة بين أضلاع ذلك الرجل القوى الذى لم تكن حياته حتى الآن إلا سلسلة من الدرس والعمل ، انفجرت الآن فى عنف إذ وجدت لها متنفساً ، ولكن لماذا تجمل ميرل فائرة على هذا النحو ؟

وعند ما معاد يبرمن الإسطبل وهو يهيمهم لحنا ، وجدها فى غرفة الجلوس مرتدية ثوباً أسود من الصوف ، ومطوقة عنقها بشريط أحمر .

وتوقف فى مكانه :

— قسم بالله إن هذا النوب يلائمك كل الملائمة ياميرل !
وتركت عينيها تتعلقان به لحظة ، ثم قدمت إليه ، وألقت بذراعيها حول عنقه .

— أكان لا بد من ذهابه إلى الإسطنبول وحده اليوم ؟

— نعم ، فقد كنت أتحدث مع المهر الصغير .

— أنا قاسية عليك يا بير ؟

— أنت ؟ .. أنت !

— حتى فيما إذا طلبت إليك أن تنقلني بالعربة لزيارة أمي ؟

— كيف لا وطلبك هذا جاء في محله تماماً ، فالحصان الجديد الذي اشتريته أمس من كابتن ميهل لا بد أن يصل هنا في أية لحظة .. فأنا الآن أنتظره .

— حصان جديد .. للركوب .

— نعم ، سحقاً .. لا بد من أن أركب قليلاً ، وقد أمضيت سنوات وأنا أوس الجياد العربية ، ولكننا سنجرب هذا الحصان في جر العربة ذات العجلتين أولاً .

وكانت ميرل لا تزال واقفة تطوق عنقه . والآن ضغطت شفتيه بشفتيها ضغطاً اشتد شيئاً فشيئاً . فهي في مثل هذه اللحظات كانت تحبه وهو واقف يرتجف من فرط سرور باغته دون توقع . وارتجفت هي أيضاً ارتجافاً سرى في روحها وجسدها ، ذلك أنه حدث أخيراً ، ولمرة واحدة ، أنها هي التي أعطت .

وتنفس آخر الأمر شاحباً من شدة الانفعال :

— آه ! إنه ليسعدني أن أموت وأنا في مثل هذه الحالة .

وبعد مدة قصيرة كانا يقفان في المشرقة مطلين على الفناء ، وعندئذ جاء عامل ذو لحية من عمال المزرعة يقود حصاناً كبير الحجم ، خفيف العرف ، كستنائي اللون ، يسير متبختراً في رسنه . ووقف الحصان دون حراك وسط الفناء ، وترأسه إلى أعلى ، ووصل فأجابته الخيول في الإسطنبول بصهيلها .

وهتفت ميرل مصفقة يديها :

— أواه ، ما أجمله ! ..

ونادى بير السائس الذي خرج الى الفناء ليأخذ الحصان :

— شدة الى العربية ذات المجلنين .

ولس الرجل قبته محيا :

— على أن أقول لك ياسيدى إن هذا الحصان لم يشد إلى عربة من قبل .

وقال بير :

— لابد لكل شيء أن تكون له بداية .

ورمقته ميرل ، ولكنهما كانا قد ارتديا كلاهما ملابس الخروج عندما أقبل الحصان الكستنائى اللون يقبخر أمام الباب وهو يحرق العربة . وكان ينبش الأرض بحوافره البيض نافذ الصبر ، ويرفع رأسه عالياً فى الهواء ، وعيناه تقدحان شررا .. فهو لم يتعود ضغط « عريشى » العربة لجانيبه ، وصوت المجلات تقمقع خلفه تماماً .. وأشعل سيجاره .

وانفجرت فيه ميرل صائحة :

— إنك لاتنوى تدخين السيجار ؟

وقال بير :

ليس ذلك إلاكى أظهر للحصان أنى لست منفعلا .

ولم يكاد يستقران بقمديهما فى العربة حتى بدأ الحصان ينخر ويشب ، ولكن السوط الطويل أصاب عنقه ، ولم تمر دقيقة حتى كانا يشيران سحابة من الغبار متجهة نحو البلدة .

وحل الشتاء .. وكان شتاء حقيقياً . وأخذ بير يتنقل من نافذة إلى أخرى . ولا يكف عن مناداة ميرل أن تأنى وتنظر . لقد تغيب عن بلاده مدة طويلة ... فكان شتاء شرقي النرويج جديداً كل الجدة بالنسبة إليه .. انظرى .. انظرى ! .. عالم من البياض .. هدوء أبيض متجمد .. الغابات والسهول والبحيرات تكتسى كلها بالبياض . فهى قصة من قصص بلاد الجنيات تحت ضوء الشمس وهى فى المساء أرض الأحلام تحت قرص القمر الكبير الساطع . وكان رنين أجراس زحافات

الجليد يترامى من البحيرة ، ومن الغابات المعفرة بذرات الثلوج . وكان الصقيع يتراكم كثيفاً فوق هافات الخيل ، ويلقى بلهى الرجل متجمد الخيوط . وفي منتصف الليالى قد تصدر من البحيرة أصداً مذوية منبعثة من تشقق الثلوج ... وهى أصوات جدرة أن تحمل المرء على الجلوس فى فراشه وقد أدركته نوبة فزع .

إن التزهة بالعربة تستحق القيام بها فى جو كهذا ... تعالى ياميرل ... إن الحصان الجديد المحبوب من « جود براندسداال » يحتاج إلى ترويض .. سنخرج به . « هالو » .. وينطلقان فى ثياب من القرو ، ويترجرجان على سطح البحيرة المتجمدة ، ويدوران فى سرعة فوق الجليد الزجاجى حيث ينزلان حق يكادا يتقلبان ... وتصرخ ميرل ... ولكنهما يواصلان الزحف فوق الجليد ، وتماسك من جديد حوافر الحصان والراكبان .. كفى عدوا ... وليخب الحصان خيباً الآن ! ... ويقعقع بير بسوطه . ويرفع حصان « جود براندسداال الأسود ، الطويل العرف ، ورأسه ويخب خيباً . ويحمل المساء ، ويندفعان عائدين إلى لورينج تحت سماء واسعة مرصعة بالنجوم ... لورينج التى تنير لهما طريق العودة بصفوف طويلة من نوافذها للضوء ... إنه ليوم رائع أيتها الزوجة !

أوقد يخرجانه لابسين « مزالقي » الجليد ، ويحفران بها فوق الثلال قاصدين أكواخ الخطابين فى الغابة ، ويوقدان ناراً تضطرم فى المصطفى الكبير ، ويشربان قهوة يتصاعد منها البخار . ثم يعودان إلى البيت خلال ليلة من تلك الليالى الشاتية الشاحبة التى تنشر نور غسقىها البنفسجى فوق الغابات والحقول والبحيرة ، وفوق الجليد الأبيض والأزرق ... وفى سفح تل أشهب ، على بعد سحيق ، يقع بيت مزرعة التهبث نوافذه جميعها وهى تمكس لون سحابة ذهبية ... وإذا هما يقبلان مندفعين ، فتطير قطع الثلج من شجر الصنوبر بفعل الهواء المنبعث من مرورهما السريع ... ويواصلان الانزلاق ، ويظلان يواصلانه فوق طرق الخطابين العميقة الأخاديد ، وفوق الجذوع والأحجار ... ويقعان ، ويصابان بكدمات ، ويدفنان وجهيهما فى الثلج العميق ، ولكنهما يحملان نفسيهما على الوقوف ثانية ، ويتسم كل منهما للآخر ، ويندفعان فى انزلاقهما ثانية . ثم يصلان إلى بيتهما والاحمرار يصبغهما ، والماء يقطر منهما ، ويخلعان مزالقي الجليد ويسندانها إلى الحائط ، وينفضان الثلج عن حذائيهما بضرب الأرض بأقدامهما .

قال بير وهو يلتقط قطعة ثلج من لحيته :

— لا بد لنا يا ميرل من سرب زجاجة من نبيذ « بورجندي » عند تناول
المساء الليلة .

— نعم ، وهل ندعو بالتليفون أحداً للحضور ؟

— أحداً ... غريباً ؟ ألا نستطيع إقامة حفل صغير مرح لنا نحن الاثنين فقط ؟
— نعم ، نعم ، بالطبع ما دمت تريد ذلك .

واستحمام « بالدوش » ... وتغيير الملابس الداخلية ... ما أمتع ذلك ! ... ثم
خطرت له فكرة ... سيحضر للمساء في ملابس السهرة ... بقصد المفاجأة ليس إلا .
ولكنه عند دخوله الغرفة توقف لتوه لأن ميرل كانت واقفة هناك في ثوب السهرة هي
أيضاً ... ثوب من غمل قرمزي ، وسلسلة ذهبية ذات حلقة تطوق عنقها ، وجدائل
غزيرة من شعرها تلفت متدلّية ، وترتبط بعقدة كبيرة تحت رقبته ... وأزهار فوق
المائدة ... وزجاجة النبيذ يجرى تسخينها ... وأكواب زجاجية من أنف نوع ،
وأوان فضية من خير صنف ... وطبور « الطرمجان » ... ما أبدع هذا كله ! ...
ورفع كل منهما كأسه المملوء بالنبيذ الأحمر ، وشرب نخب الآخر .

وكانت مناظر الشتاء المتجمدة لا تزال عاقلة بأذهانهما ، ولكن الشمس أدفأت
روحيهما . وتضاحكا ، وتمازحا ؛ وأطال كل منهما الإمساك بيد رفيقه ، وجلس يتسم
في له لحظات صمت غير قصيرة .

— كان هذا اليوم يوماً فاخراً يا ميرل .. وغداً سنموت .

— ما ذا تقول ! ... غدا

— أو بعد خمسين عاماً ، فالنتيجة ستكون واحدة .

وضغط يدها ، وعيناه مغمضتان نصف إغماض .

— ولكننا نقضى هذه الليلة معاً ... فماذا يمكن أن نطلبه فوق ذلك ؟

ثم راح يتحدث عن تجاربه في مصر . لقد أمضى عطلة امتدت خمسة عشر يوماً في

في زيارة المدن الأثرية مع « ماسبيرو » ... « ماسبيرو » العظيم بعينه ... وذهب إلى الأقصر في صحبته ، وإلى الكرنك حيث الرواق الفخم بين تماثيل أبي الهول ... وإلى تل المارنة ، وشبرا . وشاهدا كلاهما المدن القديمة ذات المعابد ؛ وكذلك شاهدا مقابر الملوك حيث يرقد الأموات منذ آلاف السنين ، وكأنهم مستغرقون في التفكير ، وقد فتعوا عيونهم عن آخرها ، مستعدين في أية لحظة أن ينهضوا ويصيحوا : أيها العبد ، هل الحمام معد ؟ .. وهناك وسط حقل من حقول القمح تقوم مسلة ... وقد تسألين ماهي تلك المسلة ... هي كل ماتبقى من مدينة ملكية ... وهناك أيضاً عاشقان في مستقبل العمر جلسا معاً .. ولعل ذلك حدث منذ مائة ألف عام .. وشرب كل منهما نخب الآخر نبيذاً ، واغتبطا بكل مباحج الحب .. وأين هما الآن ؟ نعم ، أين هما ؟ أتستطيعين أن تقولي لي أين هما ؟

« وعند ما انتهت هذه الرحلة يا ميرل بدأ يخطر لي أن الذي بحث الخصب في الحقول ليس مجرد طمى النيل ، ولكنها أجساد الموتى المتحللة .. وقد سرت راكباً فوق تراب كان أصابع آدميين ، وشفاهها لهم علق بعضها ببعض في قبلات . لقد عاش ملايين بعد ملايين من الرجال والنساء فوق ضفتي هذا النهر ، وماذا تبقى منهم الآن ؟ ... جيولوجيا ... وقد فكرت في ملايين المصلين الذين رفعوا هناك ولولتهم إلى الشمس والنجوم ، والأصنام في المعابد ، وإلى التماسيح والثعابين .. وإلى النهر نفسه .. النهر للقدس .. وهناك الهواء يا ميرل .. الهواء الذي تلقى هذه الصلوات ، واهتز لحظة .. وكان ذلك غاية ما في الأمر .. وعلى هذا النحو حتى دعواتنا تتعالى إلى يومنا هذا . إننا نضغط الحجر البارد بشفاهنا ونعسب أننا سنترك فيه أثراً ... » في صحتك يا ميرل ! .

ولسكني ميرل لم تلمس كأسها . لقد جلست ساكنة وعيناها عالقتان بغطاء الصباح ، فهي لم تتخل بعد عن أحلامها الخاصة بالرحيل وغزو العالم بموسيقاها .. وقد جلس هو هناك يبسط الأبدية ذاتها أمام عينيها ، في حين أصبح هو ، وهي نفسها ، وأبواها ، وكل شيء هباء طار . هباطاً في مهب الريح وتبدد

— ماذا ، ألا تشربين معي ؟ حسناً ، حسناً .. لا بد لي إذن من أن أشرب نخبك بنفسي .. « في صحتك » !

ولما كان قد بدأ يروي قصص رحلاته فقد واصل ذلك ، ولكن بمزاج أشد مرحاً في هذه المرة ، حتى وجدت ميرل أنه من الممكن أن تبسم . وتحدث عن المستنقعات الكبرى وطيورها من أسراب « أبو منجل » والجمع والأوز العراقي والبشروش والبلشون والقلق ... عالم من المناظر الطويلة ، والصدور المقوسة ، والسيقان العالية ، والصراخ والتصفيق بالأجنحة . وأعجب ما في ذلك كله هو وقوف المرء ، ورقابته ، وتحلقه هناك ، في حين تتجه في الربيع ألوف من الطيور القواطع صوب الشمال . وهو يقول لتلك الطيور وهي تمر به « بلغى الروح حبي » ثم رؤيته لها وهي تعود في الحريف أوزاً شهباء وزازير « وأبوفصاد » ، إلى آخر تلك الأنواع . وعندئذ يخاطر بباله « كيف الحال في وطني ؟ » . ويخطر له أيضاً « سأرحل معك في المرة المقبلة » . ويعد نفسه بذلك عاماً في إثر عام .

— وهأنذا هنا أخيراً ، ... « في صحتك » !

وقالت ميرل وهي ترفع كأسها :

— مرحباً بك في وطنك .

ودق الجرس ، وغالته عيناها :

— ماذا تريد ؟

وقال بير للخادمة التي ظهرت وتوارت ثانية :

— شبلان .

— أفقدت حوائك يا بير ؟

ومال إلى الوراء ، وتورد وجهه منشرح المزاج ، وأشعل سيجارة ، وتحدث عن أكبر انتصار أحرزه هناك ، كان ذلك بعد أن أتم مهمته في الشلال ، وبدأ يعمل من جديد في فرع شركة إنجليزية بالإسكندرية . ودخل عليه الرئيس في صباح أحد الأيام وقال : « هناك الآن فرصة يا سادة للرجل الذي يملك القدرة على تحقيق الشهرة لنفسه ، فمن منكم على استعداد ؟ » وأجابت عشرة أصوات قائلا : « أنا » . « حسناً ، ها هوذا ملك الحبشة يجد جأه إلا بدله من الأخذ بالنمط الحديث . وإنشاء خط حديدي من خط عتد مسافة ألفي ميل . فما رأيكم في هذا ؟ » وأجبت في نفس واحد : « هذا

عظيم « ثم هتف بصوت ازداد علواً : « ولكن علينا أن تنافس الألمان
والسويسريين والأمريكيين ... ولا بد أن نتصر عليهم . » ... « أنا الآن سأشتري
رجلين وأطلق يديهما في العمل ، وسيرحلان إلى هناك ، ويشرفان على الأمر ، ويمدان
الخطوط الحديدية ، ويضطلعان بالمشروع كله حتى يتماه عن آخره من ناحيته الفنية
والمالية ... ولا بد أن يكون مشروعاً أفضل ، وأقل نفقة من مشروعات منافسينا ،
والعمل فيه يستغرق ثمانية أشهر فيما إذا اضطلع به رجل قدير ، ولكنني أصبر على اتعابه
في أربعة أشهر . » ولتصطحبها معاونين ، وتزودها بالمعدات ... كل ما تحتاجان إليه ...
وهناك مبلغ ألف جنيه مكافأة للرجل الذي يقوم بذلك على النحو الذي يكفل ظهورنا
بهذه المهمة .

ونفضت ميرل من مقعدها نصف نهوض لفرط انفعالها :

— وهل أرسلوك أنت ، يا بير ؟

— أنا وزوجلا آخر .

— ومن يكون هذا الآخر ؟

— رجل اسمه فرديناند هولم .

وابتسمت ميرل ابتسامتها الجانبية ، ونظرت إليه من خلا أهدابها الطويلة . فهي
لم تتجمل أن حلم حياته كان أن يتغلب على أخيه هذا من أيه في منافسة شريفة . والآن !

وسألته وهي تتظاهر بإلقاء نظرة غير مبالية على المصباح :

— وماذا تم بشأن هذه المهمة ؟

وقذف بير سيجارته .

— بدأت يبعثة صعدت إلى أعالي النيل ، ثم بقافلة وصلت الرحلة ... قافلة مكونة
من جمال وبغال ومساعدين ومؤن وأدوات وخيام وكينين ... أكوام من الكينين .
وإنني لأتساءل لديك أية فكرة عما تعني مثل هذه المهمة ؟ كان لابد لذلك الخط الحديدى
أن يمتد خلال الغابات والأنفاق ، وفوق المستنقعات والسيول والحدائق . وكان لابد
من تخطيط كل شيء وتقديره في أقصى سرعة ... المواد والأعمال والوقت والنفقات
وكل شيء ... وكان كل شيء ميسوراً لتوفير الجبال والدعائم الملائمة لإقامة جسر من

من الجسور، وكذلك تقدير العمل المتين من بدايته حتى نهاية سواء الخاص بوضع الأساس أو إقامة البناء .. ولكن حتى ذلك قد لا يجدي إذا استطاع الإنسان أن يحفرها ويقولوا إن جسرهم يبدو أبداع منظرًا من جسرنا .. إنها مهمة تستغرق ثمانية أشهر من رجل ماهر، وكان على أن أنما في أربعة أشهر، والنهار ينطوي إلا على اثني عشرة ساعة .. هذا صحيح ، ولكن هناك اثني عشرة ساعة أخرى في الليل .. الحمى .. نعم ، هناك حمى .. وضربة شمس .. نعم .. وكلا الرجال والدواب يصابان بهما . والأمطار تغسل « خرائط » الإقليم وتحوها . وإني فقدت خير مساعدى إذ لدغته أفعى ، ولكن مثل هذه الأحداث لم تكن بعد عوائق ، ولم يكن يسمح لها أن تعطل العمل . فأنا إذا فقدت رجلا فإن ذلك لا يعنى شيئا غير اضطلاعى بعمل أزيد . وبعد مرور شهرين بدأت مطرقة أشبه بمطرقة حداد تدق مؤججة رأسى . فإذا أطبقت جفونى مساء لمدة بضع ساعات أخذت ثعابين صغيرة محرومة تتلوى على ذهى . أكان التمسك قد أنهكنى ؟ .. كنت إذا نظرت فى المرأة رأيت كرتين حمراوين فى رأسى ، ولكن لم تقض مدة الأربعة الأشهر حتى عدت إلى مكتب الرئيس .

— و .. وفدينا ند هولم ؟

— كان قد وصل فى اليوم السابق على يوم مجيئى .

وتقلبت ميرل فى مقعدها

وعلى ذلك .. كان هو الفائز ؟

وأشعل برسيجارة أخرى ، وقال :

— لا .

وبدا كأنه لم يسمع نفس السجارة كما ينبغى

— أنا الذى فاز . ومن أجل هذا اضطلمت أنا بعد خطوط السكك الحديدية فى الحبشة .

وقالت ميرل :

— هالك الشبانيا .

وبيئنا كان النبيذ يغور في كأسيهما وقفت ميرل وشربت نخبه ، ولم تقل شيئا .
واكتفت بأن نظرت إليه بعينين شبه مستورتين بنقاب .. وابتنست . ولكم
موجة من نار متقدة سرت في بدنه من رأسه إلى قدمه .

وقالت ميرل :

— أشعر كأنى أريد الليلة أن أعرف .
ونادراً ما كانت تعزف برغم أنه غالباً ما طالب إليها العزف ملها . ويبدو أنها لم
تسكن تيميل ، منذ زواجهما ، إلى لمس كأنها ، ولعل ذلك يرجع إلى شعورها بخوف
غامض من تعكير صفوها ، وإيقاظ رغباتها القديمة .

وجلس بير على المقعد المستطيل مائلاً إلى الأمام ، منصتاً ورأسه معتمد على يديه ..
ووقفت هي هناك عند ركن الموسيقى ، مرتدية ثوبها الأحمر ، موردة مشتعلة من
الاتفعال ، متأققة وهي تعزف تحت ضوء المصباح الأصفر .

ثم خطرت أمها على بالها فجأة ، وتوجهت إلى التليفون : « أمى .. أنت هناك
يا أمى ؟ .. أواه .. ياله من يوم مجيد قضيناه . » واسترسلت الفتاة في الحديث وكأنها
تحاول أن تنير قلب أمها بأشعة من النعيم الذى أتاحه لها ذلك اليوم السعيد .
ورقد بير بعد قليل في فراشه في حين أخذت ميرل تنتقل في الغرفة ، وتتوانى
في تزيينها .

وراقبها وهي واقفة في رداء نومها الأبيض الطويل أمام منضدة التزين ، بادية
تحت ضوء المصابيح المغطاة بأغطية خضر ، وقد أخذت تمشط شعرها ، وتوشجه في
صفيرة طويلة استعداداً للنوم . ولزم كل منهما الصمت . وكان في وسعه أن يشاهد
وجهها في المرآة ، وأن يرى أن عينيها كانتا ترقبانه بنظرات ناعمة غامضة . وبدا كأن
رائحة شعرها تغلغل الغرفة بالشباب .

ودارت صوبه وابتنست ، ورقد هو دون حراك ، مومئاً إليها بعينين مشعيتين أن
تقبل عليه .. وكل ما حدث في ذلك المساء .. خروجهما من المنزل ، ورحلة العودة
في غبش المساء البنفسجى . ووليتهما الصغيرة ، وقصته ، والنبيذ .. كل هذا تحول في
قلبيهما إلى حب ، وظهر الآن ساطعاً في ابتسامتهما .

وربما كان هناك أثر من نسبات الأبدية الباردة لا يزال عالفاً بذهنيهما .. أثر من
 ذكريات الملايين إثر الملايين ممن ماتوا ، وانطلاق الدهور صوب الظلام اللامتناهي ..
 بيد أن الدقائق المقبلة الآن ، وعناقهما الدافئ ، أتاح لهما عالماً كاملاً من السعادة .
 رجعت كفته كل ما عداها ، وجملت بير ، وهو راقد هناك ، يتوق إلى توجيه نشيد
 حمد إلى الدنيا بأسرها ، ذلك أنه شيء رائع أن يحيى الإنسان .

وبدا يدرك لماذا تريثت وأنققت كل ذلك الوقت قبل المجيء إليه . لقد كان ذلك
 دليلاً منها على أنها أرادت أن تهيب له مفاجأة ، وعلى أن قلبها رقيق . وبدأت أنفاسها
 الخفيفة كأنها تملأ الغرفة حتى الآن بالحب .

وفي جوف الليل ، خارج المنزل ، كانت بحيرة الجليد تتشقق عن فجوات جديدة ،
 وتطلق أصواتاً عالية ، وكانت مماء الشتاء التي تعلو السقف وتظلمهم مضاء بنجومها كافة .

الفصل السادس

شغل بير ، في بضع السنوات التالية ، بإدارة ضيعته ومصنعه دون أن يجود على أى منهما بعقدار كبير من وقته ، فقد كان لديه وكيل أعماله ، ومدير مصنعه ، وسار العمل موفقاً باتباع المنهج المألوف . وإذا سأله أحد عن العمل الذى بضطلع به هو نفسه فعلا صعب عليه أن يجيب على هذا السؤال . وبدأ أنه يجول هنا وهناك بقصد جمع شىء غير محدد في وضوح . . هناك شىء ناقص . . شىء مفقود لابد من إيجاده الآن . . هذا الشىء لم يعد الآن مجرد المعرفة ، ولكن الحياة . . الحياة في وطنه الأصلي . . حياة صباه الذى يسعى إلى الإمساك به الآن ، إن صباه الذى يشعر به داخل نفسه والذى لم يستمتع به في حرية خلال السنوات الأولى لعهد رجوانه ، لا يزال يكمن فيه محتبساً ، ولا بد أن يجد له مقنفساً .

كانت تنعقد في لورينج اجتماعات مبهجة ، وتترلق مركبات الجليد في صفوف طويلة ، رائحة في لىالى الشتاء إلى البلدة ، وعائدة منها . وكانت موائد الولائم تعد عملة بالأكواب والأزهار ، والغرف تسطع بالأنوار ، والأنهضة من النوع الجيد . وفي أثناء الليالى الطويلة ، الحالية بنور القمر ، يحدث أن يستيقظ المواطنون المحترمون من نومهم على ضجة المرح المبعثة من شوارع البلدة الصغيرة ، فإذا توجهوا إلى النوافذ وهم في قمصان النوم رأوا مركبات الجليد تقبسل راكضه ، مجلبة الأجراس ، مكتظة بشباب يطلقون ضحكاتهم وأغانيهم وهم عائدون من رحلة بعيدة إلى التلال ، حيث كانوا يحتفلون ويرقصون . وكان هناك بينهم محام شاب — متزوج حديثاً ، وأشبه بمهرج له حظوة — جلس في حجر زوجة رجل آخر ، وأخذ يعزف لحناً موسيقياً ، ويغنى بأعلى صوته . وكان الناس يقولون : « هذا بمض تهريج رجل لورينج يقوم به من جديد . . إن البلدة لم تعد قط كما كانت منذ أن جاء إلى هنا . » وكانوا يأوون ثانية إلى فراشهم وهم يهزون رؤوسهم ، ويتساءلون على أى نحو ستقلب الأمور .

وكان بير أيضاً يخرج في مركبته أحياناً في المناسبات ، وينشئ الاجتماعات المنعقدة منازل الريف الكبيرة حيث يلعب المهتمعون الورق طوال الليل ؛ وترسل الشهبان

إلى غرفهم في الصباح التالي ، فالضيوف أناس يعرفون كيف يتصرفون وفقاً للأسلوب الراقى . . إنه شيء عظيم . ولم يعد بير يشغل نفسه بعلوم الرياضة والدين . . فكل ما يحتاج إليه الآن هو أن يهضم شيئاً من حياة الريف في وطنه . فهو لن يعيش غريباً في بلاده نفسها . لقد أراد أن تكون له جذور ثابتة ، وأن يستطيع الشعور ، مثل الآخرين ، بأن له بقعة من الأرض في العالم يقيم بها إقامته في بيته .

ثم حل ذلك اليوم المشرق من أيام يونيو عند ما وقف إلى جوار فراش ميرل حيث كانت ترقد وتبتسم ابتسامتها الجانبية في وهن ، وتحمل فوق ذراعها بتناً حديثة الولادة :
— أى اسم تختاره لها يا بير ؟

— ماذا ! . . إننا بتنا في هذا منذ مدة ، سنختار لها بالطبع اسم أمك .

وقال ميرل — وهى تدير الوجه الأحمر الصغير إلى صدرها :

— بل سيكون اسمها « لوز » بالطبع .

وجاء هذا القول كأنه مفاجأة جديدة . واعلمها كانت تدبرها منذ أسابيع ، وقد فوجئ بها الآن على غرة وكأنها إحدى ملاطفاتها اللقائية . ولكن الملاحظة هذه المرة مست شغاف قلبه .

وأراد أن يمزح في محاولة متخاذلة :

— أوه ، حسناً . ليست لى قط كلمة مسموعة واحدة في بين نفسه . وأحسب أنه لا بد أن يتم الأمر بحسب ما زرين .

ومسح جبينها بيده ، وعند ما تبينت مدى تأثيره العميق افتر له ثغرها عن أشد ابتساماتها تألقاً .

وفي يوم من أوائل أيام حصاد الملف المجفف رقد على سطح تل مشمس ، مستنداً برأسه إلى كومة من أكوام الحصاد ، مراقباً رجاله وهم يعملون . وكانت آلة الحصاد تنز أزيزاً هناك عند البحيرة ، وآلة توزيع أكوام الحصاد تعمل في منعدرات التلال ، والحيل تشدها من الأمام ، ومن الخلف يجلس سائقوها . وانبسط المنظر الطبيعي كله من حول بير مردداً أنفاس الربيع وأنفاس الإنعاش الحبيب ، وثوى الرجل نفسه مستغرقاً في هدوئه المريح .

وأقبلت امرأة هابطة من طريق الحقل ترتدى ثوباً رقيقاً ؛ وقبعة صفراء من الخوص ، وتدفع أمامها عربة أطفال . كانت المرأة هي ميرل ، وقد أخذت تنظر فيما حولها ، وتترنم بلحن من الألحان وهي مقبلة . ومنذ رزقت طفلتها أصبحت تنعم براحة البال . ومن الواضح أنها نادراً ما تفكر الآن في غزو العالم بموسيقاها . . . فهناك في العربة الصغيرة مخلوق دقيق يدعى حق المطالبة بجميع أحلامها . ولم تكن بشرتها قط تخطف البصر كما تخطفه الآن ، ولم تكن ابتسامتها وردية طي هذا النعور ، وكأنها تفتح صباها الآن لأول مرة ، مكتملا كل الاكتمال ، وبدت عيناها كأنهما اتسعتا في دهشة حبيبة إلى النفس .

وبعد قليل من الزمن مضى يير إلى آلة الحصاد وقادها بنفسه ، وقد شعر بضرورة قيامه بعمل ما ليعول زوجته وطفله .

ولكنه توقف فجأة ، وهبط إلى الأرض ، ودار حول الآلة ، وأخذ يفحصها عن قرب . ونم وجهه كله على اليقظة الآن ، وأصبحت عيناها حادتين نافذتين . وانهم النظر في أسلحة الآلة وحركتها الميكانيكية ، ووقف يفكر برهة .

ما هذا ؟ . . . إن فكرة موقفة بدأت تعمل في ذهنه . وبما أنها لازال غامضة إلى الآن . . . ففي الوقت متسع لتتبعها جانباً . . . فهل يقدم على ذلك ؟

* * *

أيام دافئة لطيفة ، وليال مضيئة . وكان يتمذر عليه النوم في بعض الأحيان إذ يخطر له مدى متعة رقاد مستيقظاً ، ومشاهدته لشروق الشمس .

وفي ليلة من هذه الليالي نهض وارتدى ملابسه . وبعد مرور دقائق ترددت في فناء الإسطبل وقع حوافر دابة ، ثم ظهر الحصان الكستنائي اللون يقوده يير . وقفز الرجل فوق السرج ، ومضى به خبيأ إلى الطريق . وبدت طلعتة بيضاء ، وهو يرتدى ثياب الرياضة ، والقبعة المصنوعة من فلين .

إلى أي مكان يقصد ؟ . . . لا مكان يقصده ، إنما القصد هو التغير . . . قيامه في ساعة غير عادية ، ومشاهدة بزوغ النهار في صباح يوم من أيام يوليو .

وخب بجواده في خطوات هادئة ، وشب قليلاً فوق السرج ، مستمتعاً بالدفع المبهج الذي يشمر به الراكب . وكان كل شيء حوله هادئاً ، فسكان الضياع مازالوا نائمين . وكانت السماء شفاقة البياض تتخللها هنا وهناك سحب ذهبية قليلة انعكست على صفحة البحيرة المنبسطة تحتها . وكانت الحقول الشاسعة لا تزال تبسط عن بعد بساط أزهارها المتعددة الألوان . وفاح الجو بشميم أوراق النباتات ، وحشائش الحقول ، وأشجار الصنوبر . . واستنشق منها بير أنفاساً عميقة : وكان في مقدوره أن ينفى بصوت عال .

ودار ، فسلك طريقاً جانبياً يؤدي إلى أعلى التل . وكان يترجل بين الحين والحين ليفتح « بوابة » ، ويحتاز المزارع والأكوخ الصغيرة ، وظل يوالى الصعود حتى وصل آخر الأمر إلى حافة قمة التل ، وتوقف هناك في أرض فضاء . ورفع الحصان الكستنائي اللون رأسه ، واستنشق الهواء ، وقد ابتل هو وراكبه بقطرات الندى المتساقطة من الأشجار التي بدأت تتدفق الآن عند التوهج الأول للشمس البازغة . وفي أسفل بدت البحيرة عن بعد وهي تعكس السماء والتلال وأكوخ المزارع المستسلمة كلها للرقاد . وهناك في الشرق ظهر اللهب الأحمر . . الشمس . . النهار . ونبش الحصان الأرض بحافره متلهفاً على مواصلة السير ، ولكن بير كبح جماحه ، وجلس هناك ناظراً إلى شروق الشمس من تحت حافة قبعته ، شاعراً بعوجة من الشعور الغريب تمر بذهنه .

وخيل إليه أنه من المستحيل أن يصل في أي يوم إلى قمة أعلى من قمة المتعة الخالصة التي وصل إليها . . كان لا يزال شاباً قوياً ، وأعضاء جسمه تعمل مما في انسجام تام . ولم تكن نعمة هموم ترهق ذهنه : أو مسئوليات تعصره . والمستقبل كان يمتد أمامه هادئاً بيناً في وضع النهار ، خالياً من الأحلام التي تدير الرأس . . وقد هدا جوعه إلى المعرفة : وشعر بأن ما تعلمه ورآه وحصله بدأ يتخذ في ذهنه شكلاً عضوياً حياً .

ولكن ماذا بعد . . ماذا بعد ؟

إن نموذج الآدمي العظيم الذي كنت تحلم به . . . هل نجحت في أن تبينه حياً داخل نفسك ؟

إنك تلم بمعرفة عامة عن تقدم الإنسانية ، وعن نضالها للوصول إلى غايات أرقى ، وعن

تلمسها شقى الوسائل لإدراك اللانهاى .. إدراك الله .

أنت تعرف شيئاً عن حياة النبات ، إن عش العصفور سر يمكن أن تركع أمامه ساجداً . والصخرة تدلك على علامات من سيل جليدى كلف يثقلها منذ آلاف السنين ، فإذا نظرت إليها لمحت الآثار الهائلة التى أحدثها النظام الشمسى . وإذا رفعت بصرك إلى النجوم فى أمسيات الخريف يمتح النور والموت ، وهوة الفضاء المديرة للرأس فوقك ، رجفة صارمة فى روحك .

وقد أصبح ذلك كله جزءاً منك . وصارت نشوة الحياة بالنسبة لك أن تستحوذ على كل ما تستطيع أن تلم به فى الوجود ، وبجمله ينفذ إلى كل ناحية من نواحي عقلك وشعورك .

ولكن ، ماذا بعد ؟ أهذا يكفى ؟ أيتكفى أن تخلد هكذا إلى الراحة منطوياً على نفسك ؟

هل أقمت حق الآن حجراً واحداً فى درجات الصعود يستطيع غيرك من الناس أن يتسلقوه ويقولوا : فى وسعنا الآن أن نعد بصراً إلى مسافة أبعد من قبل ؟

ما قيمة كيانات الداخلى إذا لم ينعكس فى عمل خارجى ؟

وإذا حل اليوم الذى لا يعمر فيه الأرض إلى خوارق الناس فما جدوى ذلك مادام لا مهرب لهم من الموت ؟

ما هى عقيدتك ؟

آه ، هذا الشعور بأنك فى منفى ، هذا التشرد الذى تقدسه ! كم من مرة اضطجعت أنت وميرل ، ويد كل منكبا فى يد صاحبه ، وخواطر كما تحوم معاً متشابكة الأيدي ، باحثة فى الأرض أو بين النجوم عن كائن تستطيعان أن ترفعا إليه صلاة ، لا صرخة ذليلة تستجدى الفقران والإحسان ، ولكن شكرانا مستبشرا على نعمة الحياة .

ولكن أين « هو » ؟

إنه غير موجود .. ومع ذلك « هو » موجود .

ولكن الناسك الزاهد المرفوع على الصليب معبود الرضى والسنين ، فماذا عن

الآخرين ؟ متى يجد الرجل المصري القوى ، المزود بالعلم .. متى يجد داخل نفسه معبداً
تتردد فيه للموسيقى القدسية .. يتردد فيه نشيد الأبدية ؟

وأشرقت الشمس من وراء قمة تل بعيد ، نافضة تبرها فوق ألفاف أشجار الصنوبر
التي تعد بالملايين . ومال بير إلى الأمام ، وربت عنق حصانه للتملح بيد ترصعت هي
وكها الأبيض بقطرات الندى .

كانت الساعة الثانية صباحاً ، ولهب الشروق متوقداً في السحب ، وفي كل صفحة
ماء في الأرض . وبدأ الندى يتألق في المروج ، والآلىء تسطع فوق أجنحة الفراشات .

— والآن إذن يا ييجو ! .. الآن إلى المنزل !

وانطلق منحدرأ من ممرات الغابات الطويلة الحشائش ، وأخذ الحصان الكستنائي
اللون ينخر وهو يخب برا كبه .

الفصل السابع

— هبه يا ميرل اسيزورنا قوم من ذوى المقام الرفيع ، أين ذهبت ياترى ؟
وأسرع بير إلى مختلف الغرف وفى يده برقية مفوضه الغلاف ، ووجد زوجته
أخيراً فى غرفة الأطفال .

— أوه ، أنت هنا ؟

— نعم ... ولكنك تصيح بصوت عال إلى حد أنى أستطيع سماعه من أى مكان
فى البيت ... من هم أولئك الزائرون ؟

— فرناند هولم ، وكلاوس بروك ... سيحضران مع ذلك حفل التنصير ، يا الله ...
ما رأيك فى هذا يا ميرل ؟

كانت ميرل شاحبة الوجه ، غائرة الحدين قليلا ، فقد مر عامان آخران ، ورزقت
بمولودها الثانى الذى تحمله الآن على ركبتيها .. طفل صغير له عينان واسمتان دهشتان .

قالت وهى تواصل خلع ملابس الطفل :

— ما اللف هذا بالنسبة لك يا بير !

— نعم ، ولكن أليس رائعا منهما أن يتجشما السفر ، ويقطعا إلينا هذه المسافة
كلها لا لشيء إلا لأنى طلبت إليهما ذلك ؟ والله إن علينا أن ننشط ونزيد قليلا من
أناقة المنزل .

ولم يلبث المكان فملا أن قاب كله رأساً على عقب .. جاءت عربات الأجمال
ملاى بالرمال لفرش الفناء وعمرات الحديقة ، وانتهك النقاشون فى دهان أبنيه المنزل .
وكانت ميرل المسكينة تعلم يقيناً أن التقصير فى أى واجب من واجبات الضيافة فى بيتها
سيُسفر عن كدير جدى .

وأخيراً حل اليوم الحار من أغسطس عند ما رفعت الاعلام ترحيباً بالضيوف المنتظر قدومهما ، وتراعى مرة أخرى من منعدرات التسلل أزيز آلات الحصاد ، وأصوات مناجله ، وركد الهواء إلى حد أن أعمدة الدخان تصاعدت رأسية من مداخل البلدة .. واستيقظ بير مبكراً ليلقى نظرة أخيرة على ما حوله ، ويفحص كل شيء بعين الناقد ابتداء من ثوب ميرل الصيفي الذي سترتديه إلى الخيول في « الإسطبل » ، وقد عنى بتطهيرها حتى لامت أغشية ظهورها من جديد . وفطنت ميرل إلى الأمر .. إنه لم يكن إلا « صبي صياد » إلى جانب ابن الطبيب الأنيق الملبس ، بل كان مع ذلك أكثر ضمة في علاقته بأسرة هولم ذات المسكنة . وهو لا يزال ينطوى على الكثير من رواسب ذلك الصبي بحيث أراد أن يبدو الآن في أحسن مظهره .

وتجمع حشد من المتسكمين الفضوليين فوق مرسى البواخر عندما تهادت السفينة ورسى إلى جانب الرصيف . ووقف الحصانان المشدودان إلى عربة لورينج يدقمان برأسيهما إلى أعلى ، ويتلويان ، ويضربان الأرض بأقدامهما ، إذ كان القباب يزحجها . ولكنها ظفرا براكي العربية أخيراً ، وأطلق لهما العنان ، وبدأ الانطلاق بوثة أو وثبتين خطيرتين فرقتا الدين كانوا قريبين منها . ولكن كان في وسع الناس أن يشاهدوا رجلين غربيين مع المهندس ، متفرقين جميعاً في الضحك والإشارة والإيماء ، متحدثين مما في نفس واحد . وبعد لحظات قليلة تواروا في سحابة من الغبار ، دائرين في سرعة إلى جانب مياه الفيورد الهادئة .

وتبعهم ، على بعد ما ، عربة يقودها سائس من لورينج ، محملة بمخائب كبيرة من جلد مثبت بأربطة نحاسية ، ومحملة كذلك بصندوق ضخم يبدو أنه خشبي ، ومن الواضح أنه يحوى شيئاً ثقيلاً الوزن إلى حد رهيب .

وكانت ميرل قد أعتارتداء ملابسها ، ووقفت تنظر في المرآة . ورأت أن ثوبها الصيفي الخفيف بديع ، وأن رباط عنقها الأحمر ، وحزام وسطها ، الأحمر كذلك ، مرضيان . ثم تراعى إليهما من الخارج صوت تدحرج العجلات ، وخرجت لتستقبل ضيفيهما .

وصاح بير وهو يقفز من العربة .

— ها هما قد أقبلا . هذا هو فرناند باشا ، الحاكم العام لمملكة الصحراء الجديدة .

وهذا هو صاحب السمو رئيس القاعين بتطهير قنوات الحديوى ، ورئيس خصيانه .

وتقدم صوب ميرل رجل فارع الطول ، قليل الانحناء إلى أمام ، وجهه حليق جاف البشرة .. كان هذا الرجل هو فردناند هولم .. وقال وهو يعد إلى السيدة يدآ جامدة بارزة المظام :

— كيف حالك ياسيدتى ؟

ثم أضاف وهو يحول بصره فيما حوله ، ويثبت نظارته :

— مرحى ! .. إن هذا القصر الرينى الذى تملكونه هنا لا يختلف بحال عن قصر بارون .

وكان زميله رجلاً مهذباً مستدير الجسم بدينياً ، له لحية صغيرة سوداء ، وعينان سوداوان تطرقان دون انقطاع . ولكن ابتسامته كانت تفيض بشراً ، وقبضة يده لدى المصافحة تدل على الإخلاص .. كان هذا إذن هو كلاوس بروك .

وجال بير بصديقيه فى غرف المنزل ، وأراهما المناظر الطبيعية البادية من مختلف الأنوافذ . وفى آخر الأمر أطلق كلاوس ضحكة ، ونظر إلى ميرل وقال :

— إنه هو بعينه كما كان دائماً . يبدو أن وزنه زاد قليلاً بالتأكيد .. ومن الواضح أنك تحسنين معاملته يا سيدتى .

وانحنى وقبل يدها .

وقد أعدوا لها نبيذاً ألمانياً خفيفاً ، وماء معدنياً .. كانت هذه فكرة ميرل على أساس أن ذلك مناسب ليوم شديد الحرارة .. وبعد أن شرب كل من الضيفين كأسين وهو يقول : « آه ! .. لذيذاً » توجه بير إلى خلف ميرل ، وربت يدها بخفة ، وعمس فى أذنها : « شكراً يا ميرل .. إن فكرتك يا ميرل من الطراز الأول . »

وصاح فردناند هولم فجأة :

— على فكرة ، لابد لى من إرسال برقية . أستطيع التحدث لحظة فى التليفون ؟ وصاح كلاوس بروك ضاحكاً :

(م - ١١ الجوع الكبير)

— هاهوذا يماود الكرة .. لم يعد يستطيع السيطرة على نفسه مدة أطول من ذلك ! لقد جعل أسلاك التلغراف تعمل جاهدة على طول الطريق عبر أوروبا .. ولكن في وسعك أن تتيح لنا فرصة الدخول والجلوس حتى نستريح قبل أن تبدأ الأمر ثانية هنا .

وقال بير :

— تعال معي .. هاهوذا التليفون ..

ودار كلاوس إلى ميرل مبتسما عندما غادر الاثنان الآخران الغرفة :

— حسناً ، حسناً .. أنا إذن في حضرة زوجة بير حقاً .. زوجته لهما ودماً .. وهي هكذا تبدو ! .. إن هذا الفتى يحالفه التوفيق كله دائماً .

وتناول يدها ثانية وقبلها ، وسحبها ميرل ، واحمر وجهها خجلاً :

— أنت غير متزوج إذن يا ماستر بروك ؟

— أنا ؟ .. حسناً ، أنا متزوج وغير متزوج . فقد تزوجت مرة فتاة يونانية ، ولكنها هربت مني .. إنه حظي ليس إلا .

وغمز بعينييه ، وتنهد ، وبدأ على وجهه تعبير مضحك السكابة إلى حد جعل ميرل تضج بالضحك . وعادت تسأله :

— وصديقك ، فردناند هولم ؟

— إنه ، يا سيدتي المزيظة .. إنه .. ما ذا أقول .. أحسب .. مع احترامي لوجودك .. أن لديه نخبة قليلة العدد من الحريم ، ملحقة بقصره ذلك .

ودارت ميرل صوب النافذة ، وهزت رأسها مبتسمة .

وبعد مرور ساعة نزل الضيفان من غرفتيهما على أثر استعابهما ، وتغيير ملابسهما . وخرج بهما بير ، بعد تناول وجبة غداء خفيفة ، ليظلمهما على أرجاء المكان . وكان قد أضاف عدداً من الأبقية الحديثة ، وحاز أراضى جديدة .. وكان بالزرعة عند بجته أربعون بقرة ، وزاد عددها الآن على ستين . وقال لضيفيه :

— هذا بالطبع لا يمد شيئاً في نظر رجلين مثلكما اعتادا نقل المحصول في عربات السكك الحديدية . ولكن لي هنا بيتاً خاصاً بي كما تريان .

ولوح بيده صوب داره وأبنية المزرعة القائمة حولها .

واستقلوا بعد ذلك العربة الخفيفة ليشاهدوا المصنع . ولم يلمس هنا أية أعذار لصغره ولفت أنظار رفيقيه إلى المسبك الصغير ، وكأنما هو مركز صناعي له شهرة عالية . واحتفظ بير بهيئته الجدية في حين رمقه زميلاه بطرف لحظيها باذلين جهودهما حتى لا يبتسما .

ولم يلمس العمال قبعاتهم في احترام ، وصوبوا إلى التريين نظراتهم في فضول .

ولم يستطع فردناند هولم أخيراً أن يقاوم الرغبة في قوله :

— إنه لما يسر المرء غاية السرور أن يرى الأشياء ثانية على النطاق الترويجي .

وصاح بير متخذاً هيئة السرور سروراً صادقاً :

— نعم ، أليس هذا شائعاً ! ذلك هو بالضبط ما ينبغي أن يكون عليه حجم المسبك إذا ما أراد صاحبه أن يقضى أياماً طيبة ، وينعم براحة البال .

وتبادل فردناند هولم وبروك النظرات . ولكن بير قادهما في الإحظة التالية إلى غرفة جانبية تحتوي على أدوات وآلات ميكانيكية كان يبدو ألا علاقة لها بسائر المصنع .

وقال كلاوس لفردناند :

— أنظر ... هذا هو قدس الأقداس ... سوف ترى ... إنه يعمل جاهداً هنا لابتداع شيء جديد ، فإن لم يكن الأمر كذلك أكون غيباً .

وأزاح بير جانباً قطعتين من المشمع ، وأظهر لضييفيه آلة حصاد من النوع العادي ، وآلة أخرى إلى جانبها اخترعها هو نفسه على أنها نموذج لطراز جديد من آلات الحصاد . . . وقال لهما :

— إنى لم أتم صنعها بعد ، ولكنى انتهيت إلى حل المشكلة الرئيسية . فالآلة القديمة القائمة على قاعدة السلاح الواحد سيئة ... ثقيلة الحركة كما تعلمان ... فإذا

اشتعلت على صلاحين .. أو جزازين على حد القول حملت على نحو أسرع كثيراً .

وألقي عليهما في ذلك محاضرة قصيرة ، مبدئياً مدى بساطة التركيب الميكانيكي
للالآلة الجديدة ، وكيف أنها تصبح أخف كثيراً ، وقال كلاوس :

— ها أنتذا تعود إلى بيضة كولبوس من جديد .

وقال فردناند هولم وهو يطل في بطن من النافذة :

— إن هذا الاختراع يساوى مليون كراون .

وقال به وهو يرمق فردناند بنظرة خبيثة نوعاً :

— إن الهدف الرئيسي بالطبع هو جعل عمل الفلاحين أسهل وأوفر .

وفي المساء أقيمت وليمة عشاء ، وعند ما دارت الكؤوس رحب بها كلاوس
ترحيباً حماسياً :

— ها هوذا صديق قديم سأحتفظ بصداقة مدى العمر ! إنه « ليشولر » بينه
حسناً ، حسناً ، أنت لا تزال إذن في عالم الأحياء ؟ أتذكر أيام كنا نعيش معاً ونحن
بعد غلامان ؟

ورفع الكأس الصغيرة ، وراقب الجيشان الخفيف في صفحة الحمر الصفراء .

وشرب الأصدقاء الثلاثة معاً وهم يغنون أغنية « الكأس الملائى الأولى » ، ثم
أغنية « الرشفة الصغيرة الثانية » ، مع حرصهم على الأصول المرعية في الاحتفالات
على نحو ما كانوا يفعلونه تماماً في الأيام الغابرة خلال حفلات شربهم وهم بعد طلبة .

واطرد الحديث في مرح ، وحفزتهم كل حكاية لطيفة إلى سرود غيرها ولكن
لم يكن في وسع ميرل إلا أن تلاحظ البريق الفولاذي الذي أشع من عيني فردناند هولم
حق وهو يضحك :

وعرج الحديث على الأعمال الجديدة التي تجري في مصر ، وبدأ لها أن هيئة بير
تغيرت وهو يستمع إلى المزيد من تلك الأخبار وبدأ أن نظرتة أيضاً شابتها تلك
الومضة الفولاذية ... وظهر على وجهه شيء غريب شاطح البعد ... أ يكون قد دمر

بأن الزوجة والأولاد ليسوا على أية حال إلا عائقاً في سبيل الرجل ؟ .. لقد بدا كأنه
حصان حرب هرم صحا جأة على صوت الطبول .

وقال فردناند هولم وهو يرفع كأسه تجاه بير :

— على فكرة، هناك مهمة صغيرة لطيفة تنتظرك .

— هذا لطف زائد منك دون ريب . أهي مهمة أقوم بها تحت إدارتك ؟

— أنت لا تصلح للعمل تحت إدارة أحد ، إنك تلتصق إلى القمة .

وشرح فردناند كلماته هذه بأن أشار إلى أسفل بأصبعه ثم إلى أعلى .

— لا بد من القيام بالسيطرة على ميه — اه دجلة والفرات ، والمسألة ليست إلا
مسألة وقت .

وقال بير وقد حلق ببليه الآن .

— أشكرك شكراً جزيلاً !

المشروع ببساطة يرقد منتظراً الرجل الملائم . وهو سيتم تنفيذه دون شك . وقد
يقع ذلك في العام التالي ، أو في خلال عشر سنوات ... عند ما يقبل ذلك الرجل ...
ولو أنه في مكانك لمكثت في الأمر .

ونظر الجميع إلى بير ، وعلقت عينا ميرل به أيضاً . ولكنه ضحك :

— والآن أية مرضاة في الدنيا يمكن أن تعود على من يكبح جماح هذين
النهرين القديمين المبعجلين ؟

— حسناً ، هذا يعني في المقام الأول ، زيادة محصول العالم من القمح ملايين
عديدة من الأرباب . ألا تجد أية مرضاة في ذلك ؟

قال بير ، مبدئياً مسحة من السخرية :

— لا .

— أو في امتداد خطوط مواصلات منتظمة عبر مئات الآلاف من الأميال المربعة
في بلاد تعد أخصب بلاد الأرض ؟

وقال بير :

— هذا لا يشير اهتمامي .

ورفع فردناند هو لم كأسه ليشرّب نخب مبرل :

— آه ! خبريني . يا سيدتي العزيزة ، كيف تكون حال السيدة عندما تشعر بأنها
تزوجت برجل لا يعيش في عصره .

وتلصقت ميرل :

— به ... بماذا ؟

— نعم ، إن زوجك لا يعيش في عصره . فقد يصبح ، لو أراد ، أحد الملوك ،
أو أحد الرسل الذين يقودون الطليعة المناضلة في سبيل الحضارة . ولكنه لا يريد ذلك .
إنه يحترق قدراته ، وسيبدأ الثورة على نفسه في يوم ما ... لاحظي كلماتي هذه ...
في صحتك يا سيدتي !

وضعت ميرل ، ورفعت كأسها ، ولسكن في تردد ، مختلصة النظر إلى بير
بطرف لحظها :

— نعم ، إن زوجك الآن ليس خيراً من رجل أناي ... من ساع إلى جمع
أيام سعيدة .

— حسناً ، وهل هذا شيء سيء جداً ؟

وواصل فردناند قوله ، منعياً انحناء لحدثته ، وقد حاولت عيناها الفولاذيتان أن
تبدوا وديمتين .

— إنه يجلس وينسل حياته ، ويحولها إلى عدد وفير من الخيوط الذهبية .

وقالت الزوجة الشابة بقوة .

— وما وجه الخطأ في ذلك ؟

— هذا خطأ . هذا تبديد لروحه الخالدة ، ليس من حق الرجل أن ينسل حياته حتى ولو كانت الحيوط التي ينسلها من ذهب ، إن أيام سعادته الخاصة يطويها النسيان .. أما عمله فيبقى ... وزوجك على الأخص ... بحق الشيطان ، ماذا يجعله سعيداً إلى هذا الحد؟ إن تطور العالم يستعملنا نوراً أو وقوداً دون رحمة ، وير ... زوجك ، يا سيدتي العزيزة ، أصلح إلى حد كبير من أن يكون وقوداً .

ورمقت ميرل زوجها ثانية . وضحك بير ، ولكنه أطبق بعد ذلك شفثيه فجأة ، وأحنى رأسه ناظراً إلى طبق طعامه .

ثم جاءت المربية بالطفلة لوز لتعني هذه الأخيرة الموجودين تحية المساء ، ودارت بينهم وكل منهم يسلمها إلى الآخر . وعند ما أقبلت الطفلة الشقراء على فردناند هولم بدا كأنه ينفر من لمسها . وقرأت ميرل في نظراته إلى بير المعنى التالي :

« وها هو ذا قيد آخر قيدت به نفسك »

وقال فجأة وهو ينظر في ساعته .

— أستمعكم عذراً ، أخشى أن أكون مضطراً إلى طاب استعمال التليفون مرة أخرى ... عفواً يا سيدة هولم .

ونفض من مقعده وغادر الغرفة . ونظر كلاوس إلى جليسيه وهز رأسه ، وقال وعلى ثغره ابتسامة :

— إنه نفس الرجل . سيقضى نحبهم دون محيص إذا عجز عن إرسال برقية في كل ساعة .

وقدمت القهوة في الشرفة ، خارج الغرفة ، وجلس الرجال يدخنون هناك . وكان نور الغسق مغبراً ، فهو غسق خريف مبكر . وكانت التلال الآن زرقاء داكنة قاصية ، وانتشر شميم الدريس وزهر الحديقة ... ونهضت ميرل بعد فترة من الزمن وحيتهم وانصرفت . وعند ما انفردت بنفسها في غرفة نومها لم تعد تدري وهي تفكر أمي راضية أم غير راضية ... إن هذين الرجلين الغريبين يدفعان بير بعيداً عن كل ما كان مصدراً رئيسياً لابتهاجه منذ عرفته . والذي يشير الاهتمام هو أن يرى المرء كيف اختلفت معاملته لكل من صديقيه . فقد كان في وسعه أن يعزح ويضحك مع

كلاوس بروك، ولكنه مع فرناند هولم كان يبدو دائماً متحفظاً، مستمداً لتحقيق ذاته، وهو كلما عارضه قرن معارضته دائماً بشيء من المراعاة.

وصعد فوق التلال من ناحية الشرق قرص القمر الأصفر الكبير، صاحباً وراءه، عبر المياه الداكنة، عموداً عريضاً من الذهب. وجلس الرفاق الثلاثة يرقبونه من الشرفة لمدة طويلة وهم صامتون.

وفي آخر الأمر سأل فردناند وهو يرشف كأسه.

— أنت إذن تنوى حقاً أن تظل تنسكع هنا بلا عمل؟

وسأل بير وهو ينحن قليلاً إلى الأمام:

— أتقصدي أنا بسؤالك؟

— حسناً. إن الذي استخلصته هو أنك تدور في هذه الأنحاء دون ما هدف إلا أن تسعد نفسك من الصباح إلى المساء... إني أدعو ذلك تسكماً.

— شكراً:

— أنت بالطبع شقي جداً في واقع الأمر، وكل امرئ كذلك ما دام أنه يهمل قدراته واستعداداته.

وقال بير ضاحكاً:

— شكراً جزيلاً جداً.

وجلس كلاوس في مقعده وقد ساوره بعض القلق بما عساه أن يحدث.

وكان فردناند لا يزال يطل على البحيرة:

— يبدو أنك تزدري مهنتك... بحسبانك مهندساً؟

وقال بير:

— نعم.

— ولماذا؟

— ذلك لشموري بأن لهفتنا الدائمة على خلق شيء جديد، شيء جديد، شيء

جديد دائماً . . . إن هذه اللفظة ينقصها مس من الجمال . . . كمية أكبر من الذهب ،
ومن السرعة ، ومن الطعام . . . أليست هذه الأشياء هي كل ما نطمح إليه ؟

— يا صديقي العزيز ، الذهب يعنى الحرية ، والطعام يعنى الحياة ، والسرعة تمتاز
بنا اللحظات الميته . . . ضاعف إمكانيات الحياة للناس تضاعف عددهم .

— وأى خير ينجم عن مضاعفة عددهم ؟ . ألفا مليون نفس بشرية آية . . .
أهذا ما تريد ؟

وتدخل كلاوس بروك قائلاً فى حماسة :

— ولكن دع عنك هذا كله يا رجل ، وفكر على الأقل فى بلادنا الترويج
العزيزة . أنت لا تظن بالتأكيد أن ازدياد عدد مواطنينا إلى الحد الذى يستطيع منه
العالم أن يعترف بوجودنا . . . أنت لا تظن أن ذلك يصبح كارثة .

وقال يرو هو يسرح يصره فوق البحيرة :

— بل أظن .

— آه ، أنت متعصب لصغر الحجم وقلة العدد .

— إنى أنهر من رؤية الترويج وقد عكرت صفوها المصانع وجيوش العاملين بها .
لساذا ، بحق الشيطان ، لا يتيسر لنا أن نترك لنعيش فى سلام ؟

وقال فردناند هولم وكأنه يخاطب عمود الذهب الممتد فوق الماء :

— الصلب لا يسمح به .

ونظر إليه بير بمينين متسقى الحذقتين :

— ماذا ؟ من ذا الذى قلت إنه لا يسمح ؟

وواصل فردناند قوله دون أن يزجه الاعتراض :

— الصلب لا يسمح بالسلام ، والنار لا تسمح به ، و « بروميثيوس » لا يسمح
به أيضاً . إن الروح البشرى لا تزال أمامه خطوات كثيرة جداً عليه أن يخطوها

صاعداً ليصل إلى القمة ... السلام ... لا ؟ يا صديقي ، إن هناك قوى خارجة عن إرادتك وإرادتي تقرر مثل هذه الأمور .

وابتسم بير، وأشعل سيجاراً ثانياً . ومال فردناند إلى الوراء في مقعده ، وواصل الحديث ، مخاطباً القمر على ما يبدو :

— دجلة والفرات ... والسند والكنج ... وسائر أنحاء هذا الكوكب كلها .. لنهيمن على الأنهار ، ونزرع الأرض جميعها ، وما قيعة ذلك على أية حال ؟ إن المسألة ليست إلا مسألة بضع سنوات . إنها بداية متويضة وحسب . وبعد قرنين من الزمن ، أو ما يقرب ذلك ، لن يبقى شيء يظل يشغلنا على وجه كوكبنا الصغير هذا . وسيكون لزاماً علينا عندئذ أن نشرع في غزو عوالم أخرى .

وساد الصمت لحظة ، ثم تسكلم بير متسائلاً :

— وأى ربح نجنه من وراء هذا كله ؟

— ربح ؟ هل تتصور أن الروح البشرية سيكون له يوماً حصد « يقف عنده ولا يتخطاه » ؟ ... في خلال نصف مليون عام ، ابتداء من الآن ، ستخضع جميع الكواكب المنتظمة في فلك الشمس لترتيب روح الإنسان وتنظيمه . وستنجم عن ذلك صعاب دون شك ، وستنشأ حروب كوكبية ، ووطنية كوكبية تتحالف وتتضافر ضد كتل كوكبية أخرى . وستخضع عوالم صغيرة لعوالم أكبر منها ، إلى آخر ما هنالك ، وهل في ذلك كله شيء يجعل الرأس يدور ؟ ... عجباً ... أيستطيع أى امرئ أن يساوره شك في أنه لا بد للإنسان أن يواصل الغزو ، ويظل يواصله خلال ملايين السنين القادمة ؟ إن إرادة الكون تسلك سبيلها ، « ونحن » لانستطيع المقاومة . وما من أحد يتساءل أنحن سعداء ... إن الإرادة التي تعمل في سبيل اللانهاى هي التي تسأل فقط من الذى تستطيع تسخيرها في سبيل غاياتها ، ومن الذى لافائدة فيه ... « هذا هو كل ما في الأمر » (١) .

وسأل بير :

(١) هذه العبارة مكتوبة بالفرنسية في الأصل .

... وعند ما أموت ، ماذا يكون بعد ذلك ؟

— أنت !... هل أنت ستظل تسبر غور نفسك ، وترغب في الحياة إلى الأبد؟
يا صديقي العزيز ، أنت غير موجود . ليس هناك غير كائن واحد بيننا ... هو إرادة
العالم ... وتلك الإرادة تشملنا جميعاً ... هذا هو ما قصدته بقولي « نحن » ...
نحن نعمل مستهدفين ذلك اليوم الذي نستطيع أن نجعل الخالق يقدرنا فيه بحق .
وسيوافق روح الإنسان يوم الحشر ، ويؤدي الحساب لآلهة الأولب ، مع بقاء الأحيية
كما هي ، أحيية ما وراء ذلك من قوة قادرة على كل شيء . وسيكون الحساب عندئذ
هائلاً ... انتبه إلى كلمتي هذه ... إن هذه هي الفكرة الدينية الوحيدة التي تعيش
وتعمل بين جوانح كل واحد منا ... إنها هي الشيء الوحيد الذي يمكننا من أن نرفع
رؤوسنا ، ونسير منتصبين القامة ، ناسين أنا عبيد ، وأنا أشياء آخرتها الموت .

ونظر في ساعته فجأة :

— اسمعوا لي أن اتعيب لحظة . إذا كان مكتب التأخراف مفتوحاً ...

ونفض ، ودخل البيت .

وكان كلاوس وير لدى عودته يتحدثان عن موطن صباهما ، وعن الأيام التي تضيهاها
معاً في مطلع ذلك الصبا .

وسأل كلاوس :

— أتذكر ذلك اليوم الذي رخصنا نصطاد فيه سمكة القرش ؟

— أوه ، نعم ... تلك السمكة ... دعني أتذكر ... لقد كنت بطلا ، أليس
كذلك؟ إنك ضربت السمكة بقبضتيك وحدهما حتى ماتت . ألم يكن هذا ما حدث ؟

نم أردف :

— اقطعوا الحبل ... اقطعوا الحبل ... جددوا التماسا للنجاة .

وحاكي ما حدث ، وانفجر ضاحكا . فقال كلاوس .

— أوه ، صد ، ولا تكن بارعا إلى هذا الحد في المزاح . ولكن خبرني ، ألم
تذهب إلى هناك قط منذ عودتك إلى وطنك ؟

وأخبره بير أنه ذهب إلى القرية في العام الماضي ، ووجد أبواه بالتبني قد ماتا ،
وبيتررونيجن مات أيضاً . ولكن مارتن بروفولد لا يزال هناك ، وهو يعيش في كوخ
صغير مع تسعة من أطفاله .

وقال كلاوس :

— مسكين تس !

وكان فرناند هولم قد عاد إلى الجلوس ، وأوماً الآن إلى القمر :
— أهو أحد أصدقاؤكما القدامى ؟ ... حسناً ، لماذا لا ترسلان إليه ألف كراون ؟
وساد الصمت فترة قصيرة استأنف فرناند بعدها الكلام وهو يخرج من جيب
صدريته ورقة مالية ذات خمسمائة كراون .

— أرجو أن تسمعا لي بالانضمام إليكما في هذا ... أحسب ألا مانع لديكما ،
أليس كذلك ؟

ورمقه بير ، وتناول منه الورقة المالية ، وقال وهو يدرس الورقة المالية في
جيب صدريته :

— أنا مسرور من أجل الصديق القديم مارتن المسكين ، فهذا سيكون له مبلغ
ألف وخمسمائة كراون .

وتقل كلاوس بروك لحظه من أحد صديقيه إلى الآخر وابتسم ابتسامة خفيفة .
وتطرق الحديث ، فترة من الزمن ، إلى موضوعات أخرى ... ثم وجهه كلاوس
هذا السؤال :

— على فكرة يا بير ، هل قرأت الإعلان المنشور عن شركة ~~هكربون~~
الغاز البريطانية ؟

— لا ، وما شأنه ؟

— يطلبون تقديم مناقصات لعملية إقامة خزان على نهر بسنا ، والسيطرة

عليه وعلى نظام بحيرته وهلالاته . ولا بد أن هذا نوع من العمل يتمشى مع اختصاصك .

وقال فردناند بحدة :

— لا ، لقد سبق أن قلت لك إن هذه المهمة قليلة الأهمية جداً بالنسبة إليه . سيذهب بير إلى الفرات .

وقال بير دون أن يوجه كلامه إلى واحد من رفيقيه بالذات :

— ولم يبلغ ربح العملية ، على وجه التقريب ؟

وقال كلاوس :

— كل ما توصلت إلى استخلاصه هو أنه سيلتفع زهاء مليونى راون .. أو شيئاً من هذا القليل .

وقال فردناند وهو ينهض ويرفع يده ليخفى تأثره :

— هذا المبلغ لا يمه شيئاً بالنسبة لبير . دع هذه الصفائر للنفوس الصغيرة ...

عظم مساء يا سادة .

وبعد مضي ساعتين على ذلك ، حينما ساد السكون أرجاء المنزل ، كان بير لا يزال مستيقظاً ، هائماً في الردهة الكبرى ، راثماً غادياً في خفين من لباد رخو . وكان يتوقف بين الحين والحين ، ويطل من النافذة . لماذا لا يستطيع النوم ؟ إن القمر أخذ يصفر ، والنهار بدأ يشرق .

الفصل الثامن

وفي الصباح التالي كانت ميرل وحدها في غرفة حفظ المؤن عندما ما سمعت وقع خطوات خلفها ، ودارت برأسها ، فإذا القادم كلاوس بروك .

— صباح الخير يا سيدتى . آه ! هكذا إذن تبدين في ثوب الصباح . لعلهم ابتدعوا ثوب الصباح البسيط^(١) ليخصوك به خصيصاً . . . إذا جاز لى أن أقول ذلك . فقد تكونين مثل لوحة من لوحات « جيرلانداجو »^(٢) بل ، على الأصح ، قد تكونين « أسبازيا »^(٣) نفسها .

وقالت ميرل في جفوة :

— إنك استيقظت مبكراً .

— صحيح ؟ وما رأيك في فرناند هولم إذن ؟ لقد صحا منذ شروق الشمس ، وأكب على رسائله وحساباته . أهنالك شيء أستطيع أن أعاونك على أدائه ؟ أنسمعين أن أنقل لك هذا الجبن ؟ . . . حسناً ، حسناً ! أنت قوية . ولكنى دائماً « زائد عن الحاجة » حيثما يكون الأمر متعلقاً بالنساء

وكررت ميرل القول وهى ترقبه من تحت أهدابها الطويلة :

— « زائد عن الحاجة »^(٤) دائماً ؟

(١) الكلمة فى الأصل نيجاليجييه ، وهى اسم ثوب الصباح بالفرنسية ، ومعناها الحرفى « المهمل » .

(٢) رسام إيطالى (١٤٤٩ — ٩٤)

(٣) فاتنة من فائنات الإغريق عشقها بيريكليز فطلق زوجته وتزوجها .

(٤) العبارة باللاغة الفرنسية فى الأصل .

— نعم . . . إن حبى الأول والوحيد . . . أتعلين من هى باعتته !

— لا ، بالطبع . ومن أين لى العلم بذلك ؟

— حسناً . إنها لويز . . . أخت بير . . . وددت لو أنك عرفتها .

— وماذا كان منك منذ ذلك الحين ؟

وتركت ميرل لحظتها يستريحان على ذلك السيد النضير الذى بدا كأن من المستحيل أن يكون نعمة مكروه أصابه فى هذه الدنيا .

— منذ ذلك الحين يا سيدتى العزيزة ؟ منذ ذلك الحين . . . ؟ دعيني أفكر . . .

أنا لا أستطيع حقاً أن أتذكر الآن التقائى بأية امرأة أخرى غير . . .

— غير . . . ؟

— غيرك أنت يا سيدتى .

وانحنى لها .

— أنت لطيف « جداً » !

— ألا تظنين ، ما دام الأمر كذلك ، أن واجبـك يقتضى ، بوصفك مضيعة

كريمة ، أن تمنعيني . . .

— أمتحك ماذا ؟ . . . قطعة من الجبن ؟

— ماذا ، لا . . . شكراً ، أريد شيئاً أفضل . . . أفضل كثيراً من قطعة الجبن .

— ماذا تريد إذن ؟

— قبله . ومن الممكن أيضاً أن أناولها الآن .

وبينما هو يخطو صوبها خطوة نظرت هى فيما حولها ضاحكة باحثة عن طريقة

للهرب ، ولكنه كان يقف بينها وبين الباب .

وقالت ميرل :

— حسناً ، ولكن ينبغى لك أن تؤدى عملاً تصبح به ذا نفع . هب أنك تصعد

من أجل فى هذا السلم المتنقل .

— بكل سرور . ولم لا ، إن هذا سيكون أمراً مسلياً للغاية !

وقمع السلم الخشبي الخفيف تحت ثقل هيكله المنين في أثناء صعوده :

— إلى أى حد أصعد ؟

— إلى أن تبلغ الرف الأعلى ... هو ذاك ... وهل ترى الآن تلك الجرة

الكبيرة الداكنة ؟ ... احترس ... إن بها توتاً برياً .

— هذا عظيم . أعتقد أننا سنطعم في الغداء توتاً برياً مخللاً .

وحاول بوقوفه على أطراف قدميه أن يصل إلى الجرة الثقيلة ، وأن يرفعها . ثم

وقف وهو يحملها وقد احتقن وجهه بسبب ما بذل من جهد .

— وبعد ، يا سيدتى الصغيرة ؟

— قف فقط حيث أنت لحظة ، وأمسك بالجرة في احتراس ، فإن على أن أذهب

لأحضر شيئاً .

وأسرعت في الخروج .

ووقف كلاوس في أعلى السلم ممسكاً بالجرة الثقيلة . ودار بصليه فيما حوله ...

ما ذا يصنع بها ! وانتظر عودة ميرل ... ولكنها لم تظهر . وكان هناك شخص يزف

على البيانو في الفرقة الجاورة . أعليه أن ينادى طالباً العون ؟ وظل ينتظر ، وازداد

احمرار وجهه شيئاً فشيئاً . ومع ذلك لم تحضر ميرل .

وبيدل جهد جبار آخر أعاد الجرة إلى مكانها . ثم هبط من السلم ، وسار إلى غرفة

الجلوس شديداً احمرار الوجه ، مبهور الأنفاس . وتوقف دفعة واحدة عند الباب وحملق .

— ماذا ... حسناً ، إنى ... وهى تجلس هنا ، وتعزف على البيانو !

— نعم ، أأست مفرماً بالموسيقى يا سيد بروك ؟

وقال متوعداً بهز إصبعه :

— سأقتص لنفسى منك جزاء هذا ، انتظرى يا سيدتى الصغيرة وسترين أنى

سأكبدك دفع هذا الدين مع الفائدة !

ودار وصعد إلى الدور العلوى وهو يضحك سراً في أثناء صعوده .

وكان بير يجلس إلى مكتبه في غرفة المطالعة عند ما دخل عليه كلاوس ، وقال له وهو يضع شمعة صغيرة موقدة على عود شمع الأختام :

— أنا بصدد ختم غلاف الرسالة والنقود المرسلة إلى مارتن بروفولد ، وقد ذابت الرسالة بهذه العبارة « من صائدي سمكة القرش » .

— نعم ، لقد كانت فكرة عظيمة من فردناند . ماذا سيقول صديقنا القديم المسكين ، بحسب ظنك ، عند ما يفض غلاف الرسالة وتتساقط منه الأوراق المالية الكبيرة القيمة ؟

وقال بير وهو يكتب العنوان على الغلاف .

— وددت لو أرى وجهه عندئذ .

وتهاوى كلاوس على مقعد جلدي ذي ذراعين ، واستلقى على ظهره مستريحاً ، وقال :

— كنت في الدور السفلي أغازل زوجتك قليلاً . . . إن زوجتك أعجوبة يا بير .

ونظر إليه بير ، وفكر في الأيام الحالية عند ما كان ابن الطبيب الثقيل الجسم ، الغليظ الحركات ، يجرى هنا وهناك خلف الخادومات من فتيات القرية ، وهو لا يزال يحتفظ بشيء من مشيته المتأيلة ، ولكن اتصاله بسيدات بلاد كثيرة هذبته وأكسبه خفة في الحركة ، ويسراً في أسلوب التصرف .

وواصل كلاوس قوله :

— ما الذي كنت أريد أن أقوله ! أوه ، نعم . . . إن صديقنا فردناند فقير ممتاز ، أليس كذلك .

— نعم بالتأكيد .

— شعرت أمس بمثل ما اعتدت أن أشعر به تماماً عند ما كنا نعيش نحن الثلاثة معاً في الأيام السالفة . كنت لا أملك إلا مواقفته على رأيه عند ما أسمعته يتكلم . . . ثم تبدأ أنت في الكلام فإذا ما تقول أنت أيضاً يبدو مطابقاً تماماً لما يخطر ببالى في أعماقي . أظن أنى أصبحت ضحلاً يا بير .

(م — ١٢ الجوع الكبير)

— يخبيل إلى أن محاربتك البخارية تعمل من تلقاء نفسها دون حاجة إليك ،
ونساء حريتك لا يبالون في إزعاجك . ألا تقرأ شيئا ؟

وقال كلاوس وهو يرسل زفرة :

— الأفضل ألا نطيل القول في هذا .

وقطن بير فجأة إلى أن وجه صديقه ازداد شيخوخة وتعبا .

وعاد كلاوس يقول :

— لا ، الأفضل ألا نطيل القول في هذا ، ولكن قل لي يا صديقي العزيز ...
ولا عليك من سؤالى ... ألم يحدثك فردناند قط بحسبانك أخاه ؟ .. أو ...

واحتقن وجه بير احتقانا هديدا ، وقال بعد فترة صمت .

— لا .

— لا ؟

— أنا مدين له بأكثر مما أنا مدين به لأى مخلوق في الحياة . ولكن أهو يعدنى
قريبا له ، أم مجرد هدف ينصب عليه عطفه ... إن هذه مسألة تركها دائما خامضة
كل الغموض ؟

— هذا أشبه به . إنه فتى غريب الأطوار . ولكن هناك شيئا آخر .

وقال بير وهو يرفع بصره إليه :

— حسنا ؟

— إنه ... إرر ... أعود فأقول إنه أمر دقيق نوعا بالنسبة إلى طرق الإنسان
له . أنا أعلم بالطبع أنك في وضع يحسدك الناس عليه بإيداع ثروتك واستثمارها في
أحسن شركة خاصة في العالم ...

— نعم ، وهذه حالك أنت أيضا .

— أوه ، إن ثروتي المودعة شيء زهيد بالنسبة لثروتك ... ألا يزال رأس مالك
كله مودعا في شركة فردناند ؟

— نعم . والله . يذكر . لقد كنت أفكر في بيع قليل من الأسهم ...
إني أتفق مالا كثيراً ، في هذه الأيام الأخيرة بالذات ، بحسب ما قد يخطر ببالك ..
إني أتفق أكثر من دخلي .

— ينبغي ألا تبيعها الآن بالذات يا بيل ، إنها .. لعلك أدركت أنها في نزول ..
أصبحت في الواقع أقل من قيمتها الأصلية .

— ماذا ؟ أقل من قيمتها الأصلية ! لا لم تكن لدى أية فكرة عن ذلك .

— هذا بالطبع مرهون بالوقت الحاضر فقط . إنه نزول مؤقت . ولا شك أن
الناس سيقبلون عليها مرة أخرى من جديد عما قريب . وسيرتفع سعرها ثانية .
ولكن حصة الخديوى منها تجعل له السيطرة على الشركة ، وهو عميل متقلب
الرأى نوعاً كما تعلم . إن فردناند يريد التوسع دائماً ... يريد أن يظل يشتري أراضي
جديدة ... صدارى جديدة ، هذا هو الأمر . والرأى هناك هو مسألة القوى الآلية
ليس إلا . إنه ينظر إلى الأمر على هذا النحو . وكلما اتسعت رقعة العمل أصبح العمل
الآلى أرخص بالطبع . ولكن الخديوى يقف دون ذلك ، ولعلها نزوة مؤقتة منه ..
ولعل الأمر يعود فيستقيم غداً . إنك لا تستطيع أن تعرف ما سيحدث أبداً . ولكنك
إذا ظننت أن فردناند رجل يستسلم للخديوى متقلب الرأى فإنك تكون مخطئاً جداً .
ورأيه الآن أن يجمع كل الأموال التي يستطيع الحصول عليها ، ويشتري أسهم الخديوى
فماذا ترى في ذلك ؟ ... يشتري أسهمه ويخرجه نهائياً من الشركة . إنه أمر جسيم .
ولواتى في مكانك يا صديقى العزيز لبعث جزءاً من الأسهم التي أملكها ، على أثر
صعودها قليلاً مرة أخرى ، واستثمرت ثمنها في مشروع من مشروعات بلادنا هنا .
على أنه لا بد أن تكون هنا أعمال كثيرة ذات نفع دون مرأى .

وقطب بيل . وجلس زمنا وهو ينظر إلى أمامه رأساً . وقال آخر الأمر :

— لا ، فطبقاً للأمر القائم بين فردناند هولم وبينى ... حسناً ، إذا كان واحد
منا سيتخطى عن الآخر ، فلن أكون أنا المتخطى .

وقال كلاوس :

— آه ! في هذه الحالة ... أرجو المذرة .

ونفض وانصرف .

كانت مناسبة « التعميد » مناسبة عظيمة وقد غص البيت بالمدعوين ، وألقى هدد كبير من الخطب . وكان المضيف أكثر المحتفلين شهاباً ومرحاً ، وقد صرح بأن لا بد من الاحتفال بمولد ابنه على الطريقة الإثيوبية الحقيقية ، مع إطلاق صواريخ الزينة ، والنزه في الزوارق .

وفي ذلك المساء توارى القمر خلف سحب كثيفة داكنة السواد ، ولكن الزوارق الملأى بالمدعوين انسابت فوق المياه السوداء مصحوبة بالموسيقى والضججات . وكان المحامي الشاب الطائش موجوداً هناك ، جالساً في حجر امرأة غير زوجته ، مسترسلاً في العزف على آلة موسيقية إلى حد أن الناس في المزارع الواقعة على الشاطئ فتحوا نوافذهم ، وأطلوا منها لينصتوا إليه .

وتوجهت فيما بعد صواريخ الزينة النارية على طول شاطئ البحيرة ، وسطعت حتى لكأنها شموس هائلة ملتبة في البحيرة تحت المنزل . واضطجع المدعوون على النخيل جماعات حول عشاء من أطعمة النزه الجافة . وحام هنا وهنا بعض المدعوين وقد انفرد كل زوجين منهم وهما يتعدنان في همس .

ووقفت ميرل ويرمما لحظة من اللحظات إلى جانب أحد الصواريخ النارية المشتعلة ، وكان وجهاهما مضامين بالوهج الأحمر ؛ وانظر كل منهما إلى الآخر وبادله النظرات . وتناول يدها ، وقادها إلى خارج دائرة النور والنار ، وأشار إلى يتيهما وقد سطعت نوافذه بضوء انعكس على الظلام .

— هي يا ميرل إنه مقدر لهذه الحفلة أن تكون آخر حفلة نقيمتها .

— ما ذا يدعوك إلى قول هذا يا بير ؟

— أوه ، لا شيء . . . ليس هناك إلا أنى وأحس شعوراً من نوع خاص . . . أحس كأن شيئاً بلغ الآن نهايته ، وشيئاً آخر يوشك أن يبدأ . . . أحس ما يشبه ذلك على نحو ما . ولكنني أردت أيضاً أن أشكرك على جميع الأوقات السعيدة التي قضيناها .

— ولكن يا بير . . . ما ذا . . .

وسكنت عن القول عندهذا الحد لأن بير كان قد سبق وغادرها ، وانضم إلى حشد من ضيوفه حيث لم يلبث أن أصبح مرحاً كأي واحد من الآخرين .

ثم حل اليوم الذي كان على الضيفين أن يرحلوا فيه . وقامت في غرفة الاستقبال الهدية التي قدمهاها بمناسبة مولد السيد الصغير الذي تم أخيراً جداً تسميته باسم لورينتز أوتنوج ، وكانت عبارة عن تمثال نصفي من الجرانيت الأحمر ، في مثل ارتفاع الرجل ، لإله الشمس رع ، وقد جلباه معهما ... جلبه « الاشينان » من الاسكندرية . وهو الآن يتربع في غرفة الاستقبال بين أشجار من النخيل موضوعة في أحسن ضاغطة جنبيه بإبطيه، محققاً بعينين واسعتين مبتتين في الفضاء اللانهائي .

وقف بير على رصيف الميناء ملوحاً بيديه ، وهو يودع رفيقيه القديين في حين كانت الباخرة تشق المياه ، وتسحب وراءها ذيلاً من الأمواج الصغيرة تلتشر على هيئة مروحة .

وعند ما عاد إلى بيته تجول في أنحاء المكان متطلعاً إلى المزارع والغابات ، وإلى ميرل والطفلين ، وقد تطلع بعينين بدتاً لزوجته غريبتين جديدتين .

وبقي وحده مرة أخرى في الليلة التالية ، وذرع بخطواته الردهة الكبرى وأثما غاديا ، مطلا من النوافذ على الظلام الدامس .

أهو ينسل حياته ويحيلها إلى خيوط ذهبية لا تلبث أن تتبدد ويدركها النسيان ؟
أهو راض أن يكون وقوداً بدلامن أن يكون نورا ؟

ما الذي يجد في طلبه ؟ أم السعادة ؟ وماذا وراء السعادة ؟ .. كان وهو غلام يدعو ما وراءها « التسبيح » ، أو نشيد الإنشاد العالمي . وماذا يدعو الآن ؟ الرب ؟ ولكن يصعب عليه أن يجد ربه وهو يحيا حياة البطالة .

إنك استخلصت ذلك الاتعاش الذي استطعت استخلاصه من اغتباطك بحياتك المنزلية ، ومن زواجك وأبوتك ، ومن الطبيعة ، ومن المواطنين حولك ... وهناك استعدادات كامنة فيك ، جاثمة إلى التدريب ... متلهفة تلك الלהفة على إطلاق سراحها لتعمل ... لتكافح وتلتج .

لا بد أن تتولى إقامة قناطر « بسنا » يا بير . ولكن أتستطيع أن تظهر العقدة
إقامتها ؟ إنك إذا أقدمت يوماً على العمل في جد ، فليس من المحتمل أن يتغلب عليك
أحد إنك ستظهر بإبرام ذلك العقد لامرأ . . . ولكن ، هل أنت تريد
ذلك حقاً ؟

ألمت تعمل في الواقع لتعسين آلة الحصاد التجارية ؟ بيد أنه خير لك أن تسلم
بأنك لا تستطيع الميـش هكذا دون الاشتغال بحرفتك القديمة . . . أن تسلم بأنه
لا مناص لك من أن تظل تختلط أبداً بالحديد والنار ، وتتدخل فيما يتعلق بهما .
أنت لاحيلة لك في ذلك .

كل الأشياء التي تطلعت إليها بعينيك في السنوات الأخيرة هذه لم تكن إلا رؤى
ذهبية في ضباب ، ولصـلب إرادته الخاصة به . إن الصلب بدأ يستيقظ في نفسك . . .
وينفـس . . . وينفـس . . . ويطبق عليك ويستعـذك على التوالي . . . وأنت لا خيار لك .
إن إرادة الحياة تمضي في طريقها ، فسايرها أو يلتق بك من فوق ظهر المركب
بحسبانك لا تقع فيك .

وظل بير يواصل خطواته رائحاً غاديا . . . رائحاً غاديا .

ورحـل في الصباح التالي إلى العاصمة . وراقبت ميرل العربية في أثناء ابتعادها .
وقالت لنفسها : « لقد كان محققاً ، فثمة شيء جديد حانت بدايته . »

الفصل التاسع

ووردت بطاقة من بيرتضمن رسالة مقتضبة : « رحلت لأتبين أساس الموضوع » وبعد أسبوعين عاد إلى داره محملاً « بخرائط » وتصميمات ، وقال : « ذهبت بالطبع متأخراً كالعادة عن السوق المنصوبة ، ولكن انتظري على قليلا . »

وأغلق على نفسه غرفه وعرفت ميرل أخيراً على أى نحو يكون أمره حين يعمل . واستطاعت أن تسمع كل صباح مشيه جيئة وذهاباً ، وصفيه ، ثم حلول الصمت . . . ولا بد أن يكون عندئذ واقفاً مكباً على مكتبه ، مشغولاً بفحص الملحوظات والأرقام . ثم يعود وقع الخطوات ثانية . . . وهو الآن يغنى ، وهذه بدعة استجبت عليه . وبدأ كأنه يحمل بين جوانحه ذخراً من السعادة . . . كفراً أودعه الحب وجمال الطبيعة ، والساعات السعيدة ، وقد وجد مخرجاً له في الغناء . لماذا لا يتغنى بتصميمات خزان كبير ؟ إن الاشتغال بالمسائل الرياضية عمل جاف إلى حد كبير ، ولكن يمكن للرياضيات في بعض الأحيان أن تكون بمثابة رؤية حياة تخلق ساطعة في الأضواء . وغنى بير بصوت أعلى ، ثم ساد الصمت ثانية . ولم تمتد ميرل تعرف قط متى كان زوجها يكف عن العمل ويأوى إلى فراشه ، فهي قد تنام على صوت غنائه وهو داخل غرفه ؟ وعند ما تصحو من نومها ؟ يكون قد سبق إلى ذرع الغرفة ذهاباً وإياباً . وبدأت لها خطواتها كأنها خطوات جبارة لقائد عظيم . كانت هناك رؤية جديدة ، ومشروعات جديدة تضيء أعماقه ، وأصبح لصوته رنين سيد كبير . وتطلعت إليه ميرل من خلال عينيْن مغمضتين نصف إغماضة ، مصوبة إليه نظرة مترتبة . لقد أصبح بالنسبة إليها شخصاً جديداً مرة أخرى ، إنها لم تره من قبل قط على هذا النحو .

وأخيراً تم العمل ، وأرسل المناقصة . وأصبح الآن أشد قلقاً مما كان في أي وقت مضى . وانتظر الرد مدة أسبوع رانحاً غادياً داخل المزرعة وخارجها ، منطلقاً في جولات بالعربة يجرها بيجو ، ويسود منها بحصانه الذي يقطر عرقاً ، فالرجل النافذ الصبر لا يمكن بحال أن ينطلق بحصانه إلا عدواً . ومرت الأيام ، ولم يذق بير طعم النوم ، ولم يأكل شيئاً . ومرت أيام أخرى ، وأخيراً اندفع ذات صباح إلى غرفة

الأولاد صامحاً : « حدثوني تليفونياً بالترنك يا ميرل ، ودعوني إلى حضور اجتماع
مديرى الشركة . وكانت عبارتهم هي « أسرع أسرع » ... تعالى وساعدني على حزم أمتق ...
انشطى . » وفي لمح البصر كان قد رحل إلى المدينة ثانية .

والآن جاء دور ميرل في ذرع الغرفة غدواً ورواحاً في قلق . وكان ظفر زوجها
بالعملية لا يهمها في ذاته إلا قليلاً ، ولكنها كانت تتحرق لهفة على ضرورة نجاحه .

وبعد مرور يومين وردت برقية جاء فيها « مرحى ، يا زوجي ! » ودارت ميرل
في الغرفة راقصة ملوحة بالبرقية فوق رأسها .

وفي اليوم التالي عاد بير إلى بيته وإلى ذرع غرفته ذهاباً وإياباً .

— ما رأيك فيما سيقوله أبوك في هذا يا ميرل ... هيه !

— أبي ؟ ... ما سيقوله في أي أمر ؟

— فيما إذا سأله أن يضمني في مائتي ألف كراون ؟

ونظرت إليه ميرل محملة .

— أينبغي لأبي أيضاً أن يشترك في هذه العملية ؟

أوه ، إذا كان يا أبي ذلك فإننا ندعه وشأنه . ولكنني على أية حال سأسأله
أولاً . وداعاً .

وركب بير عربته إلى البلدة .

وفي منزل لوريترز أوتهوج الكبير عليك أن تمر من متجر الحدائد « الحردة »
لتصل إلى مكتبه الذي يقع خلفه . وطرق بير الباب وهو يتأبط محفظة أوراق . وكان
المهر أوتهوج قد أشعل من توه مصباح الغاز ، وأوشك عند ما دخل عليه بير ، أن
يجلس إلى مكتبه الأمريكي الطراز . ودار صوب الزائر برأسه الأشهب اللحية ،
الذي ينفث الشمع ، المظلم بفعل خيال الظل الأخضر المنبعث من شمعة المصباح . وقال :

— أهوانت ؟ اجلس . إنك كنت في كريستيانا على ما سمعت . وأي عمل أنت

منهيك فيه الآن ؟

وجلس كلاهما وجها لوجه . وشرح له بير الأمر في هدوء وثقة .

وسأل أوتوهوج وقد خرج وجهه من دائرة الظل ، وتطلع الى بير في جلوة النور :

— وما المبلغ الذى تصل إليه نفقات هذا الأمر ؟

— مليونان وأربعمائة ألف .

ووضع الرجل المسن يديه الغزيرتى الشعر على المكتب وهب واقفاً على قدميه ، محدقا في الآخر ، متنفساً في صعوبة . فهذا القدر من المال أصابه بشبه ذهول . وبدأ له ، فوق ذلك ، أنه هو نفسه ، وأعماله أشبه بالهباء إذا وضعت وذلك المبلغ في كفتى ميزان . فأين الآن خططه وإنجازاته وعظمته ومركزه ونفوذه في البلدة ؟ وما قيمة المبالغ الضئيلة التى اعتاد أن يتعامل بها إذا قورنت بمثل ذلك المبلغ ؟

وقال متلعثما :

— أنا .. أنا لم أدرك عبارتك جيداً .. أقلت مليونين ؟

وقال بير :

— نعم . وامل هذا المبلغ يبدو لك تافهاً . وأنا نفسى تعاملت بمقود وصلت قيمتها إلى خمسين مليوناً من الفرنكات .

— ماذا ؟ كم المبلغ الذى ذكرته ؟

وبدأ أوتوهوج يتنقل في الغرفة غير مستقر ، وأمسك شعر رأسه ، وحلق في بير وكأنه يشك في أنه متمالك لوعيه .

وشعر في الوقت نفسه بأنه ينبغي ألا يدع نفسه أبداً تفقد اتزانها بمثل هذه السهولة . وحاول أن يتمالك جأشه . وسأل .

— وأى ربح ستحصل عليه من هذه العملية ؟

— آمل أن أحصل على مائتى ألف ...

— أوه !

إن ربحاً يبلغ مثل هذا القدر عاد فأفزع الرجل المسن نوعاً ... لا ، إنه لا يعد شيئاً بذكر . إنه لم يكن قط شيئاً يذكر في هذه الدنيا !

— كيف عرفت أنك ستربح هذا القدر ؟

— أنا حسبت حساب العملية .

— ولكن إذا ... ولكن كيف تستطيع أن تتأكد من صحة حسابك ؟ هب
أنك أخطأت في الأرقام ؟

ودفع رأسه ثانية إلى الأمام في دائرة النور الساطع . وقال بير :

— من عادتي أني أصل دائماً إلى الأرقام الصحيحة .

وعند ما طرق موضوع الضمان كان الرجل المعجوز يسير عبر الغرفة مبتعداً عنه .
ولكنه توقف دفعة واحدة ، والتفت من فوق كتفه :

— ماذا ؟ ضمان ؟ أتريد مني أن أقوم بضمان مليوني كراون ؟

— لا ، ان الشركة تطلب ضماناً لمبلغ أربعمئة ألف .

وقال الرجل المسن بعد فترة صمت :

— فهمت . نعم ، فهمت . ولكن ثروتي كلها لا تبلغ هذا القدر من المال .

— إنني أستطيع إيداع أسهمي ضماناً لمبلغ ثلاثمئة ألف ، ولدي بالطبع ، علاوة
على ذلك ، مزرعة لورينج وأعمال . ولكن لنضع رقماً تقريبياً للمطلوب ...
أضمن مبلغ مائة ألف كراون ؟

وساد الصمت فترة أخرى ، ثم جاء الرد بعيداً من آخر الغرفة حيث اندفع أوتهورج :

— وحق هذا مبلغ كبير .

— من الطبيعي أنك إذا كنت أميل إلى الرفض ... فيوسمى أن أدبر تدبيراتي

الأخرى ... إنه صديقي اللذين كانا هنا أخيراً ...

ونهمض وبدأ يجمع أوراقه .

— لا ، لا . ينبغي ألا تتمجل هكذا . ما هذا ... أنك تنقض على المرء كما ينقض

الجليد النهار من الجبال . ينبغي أن تتيح لي مندوحة من الوقت للتفكير في الأمر ...
انتظر حتى باكر على الأقل . وهذه الأوراق ... على أية حال ... لا بد أن اتهم عليها نظرة .

وقضى أوتهوج ليلة مليئة بالقلق والازعاج . وبدأ أن الأرض الراسخة تخلت عن قدميه ، ولم يستطع عقله أن يجد نقطة ارتكاز ثابتة . لا بد أن يكون صهره رجلاً عظيماً .. ولا بد أن يكون هو آخر من يشك في ذلك . ولكن المجازفة بمائة ألف ، لا في سبيل امتلاك أرض ، أو إبرام صفقة تجارية كبيرة ، ولكن في سبيل نجاح عمل من أعمال البناء . إن هذا أمر جديد عليه ، أمر يبدو خيالياً .. ولعله ملأه للعالم الخارجي الكبير ، أو للمستقبل . لديه الشجاعة الكافية لاحتماله ؟ ومن يستطيع أن يتكهن أية أحداث ، وأية كوارث يمكن أن تحدث ؟ . لا ! .. وهز رأسه . إنه لا يستطيع .. إنه لا يجرؤ . ولكن الأمر أغراء ، فقد أراد دائماً أن يكون حوتاً كبيراً وسط أسماك صغيرة . أيجازف ، أم لا يجازف ؟ إن الأمر يعني المجازفة . بثروته كلها ، وبقسامه ، وبكل شيء في سبيل عملية هندسية لا يعرف أى شيء قط عنها . إن الأمر محض مضاربة .. إنه مقامرة . لا ، ينبغي أن يكون جوابه : « لا » . ثم إنه ، على أية حال ليس إلا حوتاً وسط أسماك صغيرة .. لا . ينبغي أن يكون جوابه « نعم » .. رباه ! .. ووشج بين يديه ، وكأنتا لزجتين بفعل العرق المتصبب ، وكان عقله في دوامة . إنها لتجربة ، إنه لإغراء . وشعر بدافع يدفعه إلى الصلاة . ولكن أية فائدة تعود عليه من ذلك ما دام قد فقد إيمانه ؟

وفي اليوم التالي اتصل أبوا « ميرل » بها وبزوجها بير تليفونياً ودعوهما إلى تناول العشاء معهما .

ولكن عند ما جلس الجميع إلى مائدة الطعام وجدوا أن مواصلة الحديث متعذرة عليهم . وبدأ كأن كل واحد منهم يشعر بالحجل من أن يبدأ الحديث في الموضوع الذي يفسكرون فيه جميعاً . وكان وجه الرجل الهرم رمادى اللون لافتقاره إلى النوم ، ونظرت زوجته إلى الحاضرين واحداً بعد واحد من خلال نظارتها . وكان بير هادعه النفس مبتسم الثغر . وعند ما دار الساق بالتبذ الفرنسي على الحاضرين رفعت السيدة أوتهوج كأسها ، وشربت نخب بير ، وقالت :

— أرجو لك حظاً سيئاً ! نحن ان نكون الواقفين في طريقك . وما دمت تعتقد أن الأمر صائب ، فهو كذلك بالطبع . ونحن نأمل جميعاً يا بير أن تكون حاقبته خيراً بالنسبة لك .

ونظرت ميرل الى أبويها ، فقد كانت تجلس الى مائدة العشاء قلقة مضطربة .
وصعدت الدموع الآن الى مآقيها .

— وقال بير وهو يرفع كأسه ، ويشرب نخب مضيغه ومضيفته :

— شكراً .

ثم كرر قوله :

— شكراً .

وانحنى لأوتيج الهرم .

لقد سوى الأمر ، ومن الواضح أن العجوزين ناقشا الأمر معاً ، وانتهيا الى
اتفاق بشأنه .

لقد سوى الأمر . ولكن الأربعة الحاضرين شعروا جميعاً كأن الأرض الثابتة
تتأيل قليلاً تحت أقدامهم . وبدأ لهم أنهم راهنوا بمستقبلهم ومصيرهم على رمية واحدة .

وبعد ذلك بيومين حدث أن ذهب بير الى البلدة في يوم أضاءته شمس أكتوبر
المتدلة الحرارة ، واذ لمع هناك حماته تطل من النافذة ذهب فاشترى بعض الأزهار ،
ومضى بها اليها .

كانت تجلس متطلعة الى السماء المصفرة من الناحية الغربية . وكادت ألا تلتفت
وهي تتناول الأزهار ، وقالت :

— شكراً يا بير .

وظلت تطل محدقة في السماء . وسألها بير :

— فيم تفكرين يا أمي العزيزة ؟

— فقالت :

— آه ! . الإفصاح عن خواطرنا ليس بالأمر الطيب في جميع الحالات .

ودارت بعينيها المستعينتين بالنظارة لتتطلع بهما الى البعيرة .

— أرجو أن يكون ما تفكرين فيه شيئاً ساراً ؟

— كنت أفكر فيك يا بير .. فيك وفي ميرل .

— هذا فضل منك أن تفكرى فينا .

— اعلم يا بير أن كدراً سيحل بك . . كدراً كبير القدر جداً .

وأومات برأسها إلى ناحية السماء الصفراء في الغرب :

— كدر ؟ لماذا ؟ لماذا يحل بنا كدر ؟

— لأنك سعيد ، يا بير .

— ماذا ؟ .. لأنى . . ؟

— لأن كل شيء خاص بك يزدهر ويتزعرع .. ثقب أن هناك قوى ، غير منظورة

الى حد ما ، تحقد عليك بسبب سعادتك .

وابتسم بير وسألها :

— أتظنين ذلك ؟

وأجابت وهي ترسل زفرة ، وتطل محدقة في الفضاء .

— أنا أدري به . به . إنك خلقت لنفسك في المدة الأخيرة أعداء من جميع هذه

الأشباح الحقودة . التي لا يستطيع رؤيتها أحد . ولكنها موجودة كلها حولنا ، وأنا

أراها في كل يوم ، وتعلمت كيف أعرفها في أثناء هذه السنين جميعها ، وقد صارعتها .

وكان حسناً بالنسبة لميرل أنها تعلمت أن تغنى في بيت مكتظ بالأشباح . وليأذن الله

أن يصبح في وسعها أن تغنى لها حق تبعدها عنك أنت أيضاً .

وعند ما غادر بير البيت أحس كأن قشعريرة خفيفة من البرد تدمى في صلبه .

وصاح إذ وصل الى الشارع : « بوه ! إنها غير متمالكة لقواها العقلية . »

وأسرع الى عربته ورحل بها الى داره . وقال لنفسه : « إن ذلك سيسر » رود

الهرم على أية حال ، فيكون الآن سيد نفسه في المصنع . . وكان هذا حلم حياته .

حسناً ، كل إنسان يسعى وراء مصلحته ، وسيصرف وكيل الأعمال جميع الأمور في

لورينج بحسب ما يرى خلال عام أو عامين . حسناً ، حسناً . . . أسرع يا براونى ! »

الفصل العاشر

إنك قطعاً لن ترحل في هذه اللحظة يا بير ؟ أو.. ، يا بير ، ينبغي ألا تفعل ذلك .
نك لن تتركني وحيدة يا بير !

— يا عزيزتي ميرل ، كوني عاقلة الآن . لا ، لا . اتركني يا عزيزتي .

وحاول أن يتخلص من يديها المضمومتين وراء عنقه .

— يا بير ، إنك لم تسكن على هذا المنحدر من قبل قط . ألم تعد تهتم بي ...
أو بأولانا ؟

— يا ميرل ، يا أعز الناس . أنت لاتصورين أني أود الرحيل اولسكنك لاتريدن
بالنأكد أن يكون هناك عجز كبير آخر في العمل هذا العام أوكد لك أن هذا
سيكون خراباً محضاً .. هيا .. هيا .. دعيني الآن أرحل

ولكنها تشبثت به :

— وهل ما يحدث لتلك الحزانات هناك أهم الآن عندك مما يحدث لي أنا !

— ستكونين في أحسن حال يا عزيزتي وقد وعد الطبيب والمرضة أن يكونا
عندك في اللحظة التي ترسلين إليهما فيها كلمة واحدة .. ثم انك دبرت مثل هذا الأمر من
قبل أحسن تدبير ..

وكل ما في الأمر يا ميرل أني لم أعد أستطيع البقاء الآن . فهناك أشياء كبيرة القدر
محفوفة بالخطر .. وهناك ، هناك .. أستودعك الله ! احرص على إرسال برقية إلى .. «
وقبل ما فوق عينيها ، وأجلسها برفق فوق أحد المقاعد ، وخرج من الغرفة مسرعاً
شاعراً بنظرتها المفزوعة التي شيعته بها في أثناء انصرافه .

وكانت شمس أبريل قد أزالَت الثلوج من الأراضي الوطية . ولكن بير وجد
أنه عاد ثانية إلى الشتاء عند ما نزل من القطار في إيسبيدال الواقعة في الشمال . فالزراع

والحقول هناك لا تزال مغطاة ، والحفافي والقمم غارقة في السلاج الأبيض الخاطف
للأبصار ، ولم يلبث أن جلس في عربة ملفوفاً بغطاء من فرو ، وساق مهرأ أشهب ،
يجتازاً طريقاً في جانب واد يؤدي إلى الأراضي المرتفعة .

كان الطريق درباً ضيقاً يمتد خلال الثلوج ، أصفر اللون من أثر زوث الخيل ،
مليئاً بالحفر والأخاديد ، أفسدته نفس دوابه التي جررت أحمالها من الأسمت عبر هذه
الناحية طوال الشتاء الماضي ، والشتاء الذي سبقه ، صاعدة بها إلى النجد ، اجتازة
بمخبرات بيئتنا المتجمدة .

إن الصلب سيظل يعضى قدماً .. والصلب لا يهتم قتيلاً بالآدميين ، ولا بد لميرل
أن يجتاز محنتها بفردتها .

عند ما يجد الرجل السعيد ، السليم البنية ، أن المضايقات والكوارث تعرقه
وتضايقه وهو مضطلع بعمل عظيم ، يتصرف عندئذ تصرف الجواد العربي وهو يقطع
شوطاً مرهقاً . ففي بادئ الأمر تراه يحجب خيلاً سريعاً في حالتي ، صموده وهبوطه ،
ثم تزداد سرعته شيئاً فشيئاً عند ما تبدأ قوته في التراخي : وعند ما تنقطع أنفاسه تماماً
في آخر الأمر ، ويتأهب للسقوط ، يعمد فجأة إلى خبب هين .

هذا ليس بالعمل الذي حلم في وقت ما أن يجده . وإن جوعه إلى الأشياء الخالدة ،
بدا الآن ؟ كما كان من قبل ، قائماً أبداً إلى جانب ما ينجزه من أعمال ، متسائلاً دون
انقطاع : الى أين ؟ ولماذا ؟ وثم ماذا ؟

ولكن الصعوبات تضاعفت شيئاً فشيئاً وتعقدت حق استولت فكرة واحدة في
آخر الأمر على تفكيره كله ، وهي أن يتم العمل .. فلا بد أن ينتهي به إلى النجاح
سواء أكان مرضياً أم سيئاً . لقد تولاه ولا بد أن ينجزه .. ينبغي ألا يهزم .

وطى ذلك واصل النضال . فالأمر لم يكن إلا امتحاناً لبأسه . نضال ضد صعوبات
مادية ، ولكن أهذا كل في الأمر ؟ ألم تمر به أوقات شعر خلالها بأنه يشترك في نضال
مع شيء أكبر .. شيء أسوأ . لقد بدا أن هناك قوة دافعة جديدة تدخلت في حياته ..
هي سوء الحظ .. قوة خارجة عن إرادته بدأت تحايله .

قد تكون تقديرانك سليمة ، صحيحة في كل تفصيل من تفصيلاتها ، وبرغم ذلك قد تسير الأمور كلها سيراً خاطئاً .

ومن ذا الذى يستطيع أن يدخل في تقديره أن مهندسا موفور العقل يسكر مصادفة في يوم من الأيام ، ويصدر أوامر طائشة إلى حد أن يتكلف إصلاح ضررها عشرات الآلاف ؟ أو منذ الذى يتوقع ، على عكس جميع الاحتمالات ، أن دفعة كبيرة من الماء تتغلغل إلى النفق ، وتندفع فتجرف الأبنية ، وتغرق الممال .. ويترتب على ذلك أن يدور قطار في الصباح التالى فوق البحيرات المتجمدة محملاً بكمية من التوابيت غير المطلوبة .

وقد وردت في الصحف ملاحظات وأسئلة أكثر من مرة : « كارثة أخرى في هلالات بيسنا .. من المعلوم ؟ »

ويرجع السبب إلى أنه كان متغيباً هو نفسه إذ سافر لإنجاز مهمة ما ، وأهمل « فولسكان » في اتخاذ احتياطات أولية فحدث أن سقطت الصخرة الكبيرة في النفق ، وقتلت أربعة رجال ، ودمرت مشقب الصخر البلجيكي قبل أن يبدأ عمله ، وقد دفع فيه مبلغ طيب قدره مائة ألف جنيه . ومثل هذا الحدث لا يرجع إلى تقدير خاطئ ، في الحساب .. ولكنه فعل القدر السيء .

« هيا يا فتى ، لا بد أن نصل إلى هناك الليلة . إذ ينبغي ألا نتبجح للفيضان هذا العام إلقاء اللوم على لآنى لم أكن موجوداً في مكان العمل . »

ثم إنه — في سبيل تنويع الكوارث الأخرى — أفلس « المقاول » الرئيسى الذى يورده مواد البناء ، وارتفعت الآن الأثمان فوق معدل الأسعار التى رضى بها .. وأضاف ذلك آلافاً جديدة إلى النفقات الزائدة .

ولكنه سينجز هذا العمل حتى ولو خسر في سبيله مالا .. ومنافسوه الحاندون الذين بدأوا يسفهن مشروعاته أخيراً في الصحف الفنية .. إنه سيجعلهم ، مع ذلك ، يبدون حمقى .

وماذا بعد ذلك ؟

حسناً ، ربما كانت الروح « البرومثيوسية »^(١) تعد للعالم يوم استقرار في مكان ما خارج الحياة في فسحة الأبد . ولكن أى شأن لي أنا بهذا ؟ وماذا عن روحى الأبدية ؟

صمتاً ... عجولوا ، عجولوا ، فقد تهب عاصفة ثلجية في أية لحظة ... هيا ... تقدم أيها « الزوال » .

إن الحصان الأشهب يجاهد قاطعاً مرحلة تبلغ اثني عشر ميلاً ، وهناك يبلغ الوادى نهايته ، ويطلب لهم العمل الشاق من النجد ... وتقع محطة إرسال البريد ، وهى آخر دسكرة فى الوادى ... وهو يدور فى الفناء ، وإذا هو بعد قليل يجلس فى الغرفة مكباً على قذح قهوة و « غليونه » .

ميرل ؟ كيف تضى الأمور بميرل الآن ؟

آه ! ها هو ذا حصانه هو مقبل .. حصانه الأسود الكبير الذى جاء به من جودبراندز دال . إن خيب هذا الحيوان شيء يختلف عن خيب المهر الضعيف .. وطار بمركبة الجليد حتى وصل بها إلى الباب . وفى خلال لحظة كان بير جالساً فى المركبة من جديد ، ملتقاً بمطغه المصنوع من الفرو .

آه ؟ أى تفريج فى أن يكون للمرء حصان جديد ، حصان يجعل الحمل الذى خلفه خفيفاً .. وينطلق وهو يخب خيباً سريعاً ، رافع الرأس ، يجعل الأجراس فوق البحيرات المتجمدة . ويبدو هنا وهناك ، فوق منحدرات التلال كوخ أشهب أو كوخان .. دسا كر لها موجودة هناك منذ ألفى عام دون أن تتغير . ولكن زمناً جديداً سيحل ، ولن تسمع الأذان بعد ذلك أبواق الدسا كر ، إذ ستعالى بدلا منها أهازيج المحركات البخارية .

وإذا ربح ثلجية تهب ، ويلقى الحصان برأسه إلى الوراء وينخر . وتهب مع الريح

(١) نسبة إلى برومثيوس الذى سبق تعريفه .

قطع كبيرة من الثلج . ولم تلبث أن ثارت عاصفة ثلجية حقيقية أخذت تلطم وجه المسافر حتى لم يبق له شيء . وابتدأ أول الأمر عرف الحصان وذيله ، ثم كسا البياض جسمه كله . وكبر حجم قطع الثلج التي يجرفها التيار ، وكان على الحصان الأسود أن يقفز قفزات واسعة ليتعاشى .. مرعى ، أيها الحصان العزيز ! لا بد لنا من الوصول إلى هناك قبل حلول الظلام . وكانت هناك قطع من أغصان الأعشاب موضوعة خلال الثلوج لتبين الطريق ولكن منذ الذي يستطيع أن يظل يراها وهو يقود العربة وسط ضباب كثيف كهذا ؟ وكان وجهه يبر نفسه الآن مطلياً بالبياض ، وعمر بالذهول والدوار وهو عرضة لالطحات الثلوج .

لقد عمل تحت شمس مصر الحارقة .. وها هي ذى الحال هنا . ولكن الصاب سيظل يعضى قدماً ، وموجهته ستشق طريقها طاوية العالم بأسره .

وإذا تحول الثلج المتساقط الآن إلى مطر فسيبقى ذلك جريان سيل جارف . وعندئذ سيضطر الرجال إلى العودة في هذا المساء ليعملوا على إنقاذ القناطر .

وإذا حلت كارثة واحدة أخرى فسيصعب عليه أن يتمكن من إنجاز العمل في المدة التي حددها المقدم . وإذا حدث وتجاوز العمل تلك المدة فسيبقى ذلك قيامه بدفع ألف كراون تنفيذاً للشرط الجزائي عن كل يوم من أيام التأخير .

وأخذ الظلام يشتد .

وأخيراً لم يعد يلوح شيء في الطريق إلا كتلة من الثلج ليس لها شكل واضح ، تكافح الزوبعة وهي منعنية الرأس ، وتحوّص ركام الثلج الهشة التي كومها التيار خوفاً عميقاً ، ويبدو أنها تخوضها حينما اتفق .. وتترك وراءها آثاراً متشابكة من بياض لا يمكن وصفه .. بياض كلب . ومن الخلف ينحرف مع مركبة الجليد آدمى يسلك بطوقها خوفاً على حياته الغالية ، وهذا الآدمي هو غلام البريد الذي استقل المركبة من المحطة الأخيرة .

وصارا أخيراً يتحسسان طريقهما إلى الشاطئ حيث تبدو الأضواء الكهربائية ضعيفة من خلال الضباب الثلجي . وما كاد يبر ينزله من مركبة الجليد حتى توقف

سقوط الثلج فجأة ، وسطعت الشمس السحرية الحافظة للأبصار فوق المكان وما عليه من ثكنات العمال ، ومساكن المساعدين ، ومكاتب الموظفين ، وبيته الصغير الخاص به ، المبني بالأواح خشبية ، وخرج مهندسان لمقابلته ، وسلموا عليه باحترام .

— حسناً ، كيف تسير الأمور كافة ؟

وأجاب ذو اللحية الشهباء :

— أضرب العمال اليوم عن العمل

— أضربوا ؟ لماذا ؟

— إنهم يطلبون إلينا أن نعيد إلى العمل ذلك الميكانيكي الذي فصلناه منذ

أيام أسكره .

ونفض بير الثلج عن معطفه الوبري ، وتناول حقيبته ، وسار إلى البناء يتبعه

المهندسان .. وقال :

— لنعده إذن إلى العمل ، فنحن لا نستطيع السماح بالإضراب الآن .

وبعد يومين كان بير راقدًا في فراشه عندما جرى له بحقيبة البريد ونفض الحقيبة

فأخرج منها الرسائل ، ووقع بصره على رسالة من كلاوس بروك .

ما هذا ؟ لماذا ارتجفت يده عندما التقط الرسالة ؟ لا شك أنها ليست إلا إحدى

رسائل كلاوس العادية الودية .

صديقي العزيز .. إن هذه رسالة تصعب على كتابتها . ولكنني أرجو أن تكون

قد أخذت بنصحتي ، ونقلت ، على أية حال ، بعض ممالك إلى الترويج . حسناً ، موجز

القول على قدر الامكان أن فردنا ندهوكم قد لاذ بالفرار ، أو قد يكون ملقى في السجن ،

ومن الممكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك .. وأنت أدري بأنه لا فائدة من توجيه

الأسئلة عندما يحتفي رجل مرموق في بلد كهذا . لقد خلق له أعداء يحسون أكبر

المناسب ، كان يلعب لعبة خطيرة .. وهذه هي نهايتها .

أنت تعلم ماذا تعني تصفية عمل من الأعمال هنا حينما لا يوجد في ذات المكان رجل

قوى يتمهد الأمور . نحن الأوربيين نستطيع أن نتأهب لتقسمتنا هنا .

وأنا أعلم أنك ستتلقى الصدمة بعدم اكتراث .. إلى فقدت كل قرش أمتلاكه ،
بيد أنك لا تزال تمتلك ضيعةك هناك ومصنعك . وأنت من الطراز الذي يرجع في
المررة التالية ضعف ما ربح ؛ وإن لم يكن الأمر كذلك فإنى إذن لا أعرفك حق المعرفة
وأرجو أن يكون مشروع قناطر بيسنا ناجحاً .

الخلص لك دائماً

كلاوس بروك

حاشية : أنت تدرك بالطبع أنه بعد أن ألقى بصديقى الآن في اليم سيحل دورى
بعد ذلك ، على الأرجح ، والكنى لا أستطيع الرحيل الآن ، فمحاولة ذلك ستثير الشبهات
على الفور . وعلينا نحن الأجانب أن نقوم بموازنة عسيرة للحساب ، علينا أن نفلت
من السقوط .. حسناً ، إذا تصادف ولم تصل إليك أخبارارى بعد ذلك فلتعلم أن
شيئاً ما قد حدث !

وفي الخارج كان الماء يتدفق من الأنفاق متجهاً إلى الشلال . واضطجع بير فقرة
من الزمن ، ولم تتحرك إلا إحدى ركبتيه صاعدة هابطة تحت ثيابه . وفكر في صديقه
وفكر في أنه أصبح الآن رجلاً فقيراً ، وأن العبء الأكبر من أمان الأسرة يقع
الآن على أكتاف لورينتز . د . أوتنوج الهرم .

ومن الواضح أن القدر مشغول بمهام أخرى غير تيسير الأمر عليك يا بير . لا بد
لك أن تخوض معركتك بمفردك .

الفصل الحادى عشر

فى ليلة من لىالى أواخر الحريف كانت ميرل تجلس ببيتها فى انتظار زوجها ، وقد طال غيابها بضعة أسابيع ، وعلى ذلك كان من الطبيعى أن تعد وليلة صغيرة احتفالاً بعودته ، فأضيئت مصابيح الغرف جميعها ، وقسمت الأخشاب المشتعلة فى جميع المواقد . وأنهملك الطاهى فى إعداد ألوان طعامه المفضلة . وكانت لويز الصغيرة ، التى أصبحت الآن فى الخامسة ترتدى ثوبها المصنوع من الخمل الأزرق . وقد جلست على الأرض ترى دميئها وتثرثر لها قائلة : « احرصى على أن تكونى الآن بنتاً طيبة فإن جدك سيأتى إلى هنا الآن مباشرة » وأطلت ميرل على المطبخ من خلال الباب : هل أحضرت النيذ الأحمر يا بىرتا ؟ حسناً . الأفضل أن تضعيه قرب الموقد حتى يسخن . ثم دارت على الغرف جميعها من جديد : وكان الطفلان الأصغران فى فراشهما ... هل ثمة أى عمل آخر ينبغى أدائه ؟

لا بد أن تمر ساعة على الأقل قبل أن يتيسر له الحضور . وهى مع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تسمع صوت عجلات العربة طوال الوقت . ولكنها لم تكن قد آتت الاستعداد لمقدمه . وأسرعت إلى الحمام فصببت الماء الساخن فى الحوض . وخلعت ملابسها ، وغطت رأسها بغطاء من الشمع حتى لا يبتل شعرها . وبعد لحظة كانت تضرب الماء بالإسفنج والصابونة فيتطاير رشاشه . لماذا لا تجعل نفسها جذابة على قدر استطاعتها حتى ولو بدت لها الأمور مظلمة فى الوقت الحاضر ؟

وجرى فى ذهنها فيض صغير من الحديث . غريب أن جسم إنسان يمكن أن يحدث مثل المتعة الكبرى لإنسان آخر ... لقد قبلك هنا ... وهنا ... وهنا ... وغالباً ما بدا أنه خرج عن طوره من فرط الابتهاج ... وهل تتذكرين ... ذلك العهد ؟ ... كنت تعرضين ، كنت غالباً غير مبالية ... بل املك كنت غير مبالية فى أغلب الأحيان ... فهل أصبح الوقت متأخراً جداً الآن ؟ آه ! إن له أشياء أخرى يفكر فيها الآن . وقد مضى الوقت الذى كنت تستطعين فيه أن تسرى عنه كل

همومه . ولكن ، أمضى ذلك الوقت بلا رجعة ؟ أو اه ، نعم ، فهو لم يبد عليه إلا بصعوبة أنه لاحظ ، في آخر مرة عاد فيها إلى بيته ، أننا رزقنا طفلة صغيرة جديدة لم يرها من قبل قط : حسناً ، لا بد أن الأمر كذلك دون ريب . إنه لم يشك ، بل كان هادئاً ساكناً ، ولكن ذهنه كان مكتظاً بعالم كامل من الأمور الجدية ... عالم لا مكان فيه لزوج أو لأطفال . فهل يتكرر منه ذلك هذا المساء أيضاً ؟ هل يلاحظ أنك عنت بلبسك كل هذه العناية لترضيه ؟ أهو لن يجد بعد ذلك متعة في شعوره بأن ساعدك تطوقاك ؟

ووقفت أمام المرأة الكبيرة المحاطة بإطار أبيض ، وألقت على نفسها نظرة نافذة ، لا ، إنها لم تعد في ريعان صباها كما كانت من قبل ... فاحمرار خديها ذوى قليلاً في هذه السنوات الأخيرة القليلة ، وتجمد وجهها في موضع أو موضعين تجمداً لا يتيسر إخفاؤه . ولكن حاجبيها — وكان مغرماً في وقت ما بتقبيباتها — لا شك أن حاجبيها لم يتغيرا قط عن ذى قبل . ومالت دون قصد صوب المرأة ، وربت الاكتناز الداكن الذى يملو عينيها ، وكأنما كانت يده هو التى تداعبها .

ونزلت أخيراً إلى سهل الدار ، مرتدية ثوباً أزرق فضفاضاً ذا طوق عريض مزركش ، وحاشيتين صفراوين في طرفي كفيه الواسعين ... واثترت بمزركش بزهرا أحمر حتى تبدو أنها لم تسكر من التبرج ، وحتى تخلع على نفسها هيئة ربة البيت .

لقد تجاوز الوقت الآن الساعة السابعة . وأقبلت لويز صوبها باكية . وغاصت ميرل في مقعد قريب من النافذة ، ووضعت طفلتها في حجرها ، وظلت تلتظر .

إن صوت عجلات العرب في ظلام الليل قد يعنى اقتراب القدر نفسه . قد يعنى قراراً ما ، أو كلمة نهائية ماتلقى بنا في لحظة من حالى الغنى الى الدمار ... من يدري ؟ كان يير فى انجلترا أخيراً ، محاولاً أن يصل مع الشركة إلى اتفاق ما . منه ! أليس هذا صوت عجلات ؟ ... ونهضت مرتجفة ، وتسمعت .

لا ، فقد اجتازت المركبة البيت .

أمست الساعة الآن الثامنة . وهذا هو وقت ذهاب لوز إلى فراشها . وأخذت ميرل تخلع لها ملابسها . ولم يمس إلا قليل حتى كانت الطفلة راقدة في فراشها الأبيض الصغير ، وإلى كل جانب من جانبيها دمية ... وغنممت قائلة : « امنحى أبى « كبله » نيابة عفى ، وبلغيه حبي ... وهل تظنين يا أمى أنه سيسمع لى بالذهاب إليه صباح غد ، والرقاد معه في فراشه قليلاً ؟ »

— أوه ، نعم ، أنا واثقة من أنه سيسمع بذلك . والآن ارقدى ونامى ... هانت ذى فتاة لطيفة .

وعادت ميرل فجلست تنتظر في الغرفة . ولكنها نهضت في النهاية ، ووضعت معطفاً على اكتافها وخرجت .

وثبتت البلدة هناك في ظلام الخريف تحت ضباب نور ابني اللون ، وارتفع عالم من النجوم فوق التلال المحيطة بالبلدة من كل ناحية . وبير في مكان ما هناك خارج منزله ، وقد يكون بعيداً يقطع طريقاً ريفياً ، وحصانه يسير على هواه متثاقلاً خلال الظلام ، في حين يجلس سيده مطأطئ الرأس مفكراً .

« ساعدنا يا إلهنا العلى ... وساعده هو على الأخص ، فقد عانى كثيراً من الشدائد في هذه الأيام الأخيرة . »

ولكن القبة المرصمة بالنجوم بدت باردة كالثلج ... فقد صممت ملايين وملايين الدعوات من قبل ... إن قلوب البشر لاتعنى شيئاً يذكر في نظره هذا العالم اللانهائى .

وأحنت ميرل رأسها ، ودخلت المنزل ثانية .

وكان الليل قد انتصف عند ما أخذ بير يصعد في التل متجهاً صوب منزله . وإذا بمنظر البيت الكبير ، بنوافذه المتسللة الأنوار ، يرج ذهنه المكدود رجاً عنيفاً إلى حد أنه ضرب حصانه بصوته ضربة قوية دون وعى .

ورمى اللجام إلى « الساييس » الذى خرج إليه يحمل مصباحاً ، وصعد في درجات السلم . وتنقل في البيت الكبير وقد ساوره على الأغلب شعور بالوجل ، وكأنما أصبح هذا البيت مألوفاً لغيره فعلاً .

وفتح باب غرفة الاستقبال ... لا أحد هناك ... ليس هناك إلا نور ... نور وراحة . وانتقل إلى الغرفة التالية ، وكانت ميرل هناك بعفريدها جالسة في مقعد ذى ذراعين ، نائمة وهي تسند رأسها إلى ذراع المقعد .

هل انتظرت هذه المدة الطويلة .

وسرت في جسمه دفقة من الدفء ، ووقف ينظر إليها جامدا في مكانه ، ثم لم تلبث قائمتها المنحنية أن اعتدلت ، وانفرج وجهها الشاحب عن ابتسامة . وانتقل دون أن يوقظها إلى غرفة الأطفال حيث كانت المصاييح لا تزال مشتملة ، ولكن الأنوار هنا كانت تسطع فوق ثلاثة أطفال فقط وهم يرقدون في فراشهم ، مرتدين حبل النوم النظيف ، مستغرقين في منامهم .

وعاد إلى غرفة الطعام ، وكانت هناك أضواء أشد .. ومائدة معدة لشخصين ، وغطاء في لون الشالج الأبيض ، وأزهار .. وقرنفل واحدة ماصفة بمشفته .. لا بد أنها من لوز الصغيرة .

وأخيراً استيقظت ميرل بلمسة من يده لكتفها :

— أوه ؟ أنت هنا ؟

— مساء الخير ، باميرل !

وتمانقا ، وقبلها من جبينها . ولكنها استطاعت أن تبين أن ذهنه مشغول بأمور أخرى .

وجلسا إلى المائدة ، وبدأ تناول عشائهما . وكانت تستطيع أن تقرأ التعبير البادى في وجهه ، وفي صوته ، وهيئته المادئة .. وأدركت أن ذلك يعنى سوء الأخبار .

ولكن فوات الوقت الذى كانت فيه مداعبة غير متوقعة منها كافية لجعله يثور غبطة . وجلست هناك وهي ترتجف في أعماقها من القلق ، وتتساءل أين يمكن أن يفتن إلى وجودها .. أيستطيع أن يجد أى عزاء في وجودها معه ، وهي التي لا تزال محتفظة بصباها ، وبيقية باقية من جمالها ؟

وألقى عليها نظرة مصحوبة بإبدامة لاحت من بعيد .. وسألها :

— ميرل ! كم يبلغ كل ما يمتلك أبوك ، بحسب ظنك ؟

وجاءت هذه الكلمات كأنها أمر هادئ صدر من ربان وائف على ظهر سفينة وهي تفرق .

— أوه ، يا بير ، لا تفكر هذه الليلة في تلك الأمور كلها .. مرحباً بك في بيتك !

وابتسمت ، وتناولت يده ، فقال لها :

— شكراً .

وضغط أصابعها بيده ، ولكن خواطره كانت لا تزال بعيدة جداً . وواصل الأكل دون أن يدرى أية أصناف كان يأكل .

وما رأيك ؟ لقد بدأت لوييز تتعلم العزف على الكمان . وأنت لاتتصور الى أى مدى تقبل هذه الصغيرة على ذلك .

— أوه !

— ونبتت سن جديدة « لأستا » .. وبينما كانت السن تشق طريقها قصب الصغيرة المسكينة وقتاً عصيباً .

وكانت كأنها تجذب الأطفال إليه لئريه أنه ، على الأقل ، لا يزال يملكهم .

وتطلع إليها لحظة :

— ميرل ، كان ينبغي ألا تتزوجي أبداً ، فهذا كان أولى بك ، وبأهلك أيضاً .

— أوه ، هذا هراء ، يا بير .. أنت تعلم أنك قادر على تقويم الأمر ثانية .

وصعدا إلى غرفة نومهما ، وخلعا ملابسهما في ببطء . وقالت ميرل لنفسها : « إنه لم يفتن إلى وجودي بعد . » وضحكت قليلاً ، ثم قالت له :

— كنت جالسة هذا المساء أفكر في أول يوم التقينا خلاله ... وأنت فيها

أظن لاتفكر الآن في ذلك اليوم أبداً ؟

ودار بوجهه — وقد تجرد من نصف ملابسه — وتطلع إليها . وكان للهبتها
المرحة في أذنه وقع غريب ، وخطر له : « إنها لاتسألني على أى نحو تقدمت في العمل ،
أو كيف تسير الأمور . » ولكنه بعد أن ظل ينعم النظر إليها ، بدأ يلمح أخيراً ،
من خلال ابتسامتها ، قلبها القلق المتوارى خلف تلك الابتسامة .

آه ، نعم إنه يتذكر جيداً ذلك الصيف البعيد إذ كانت الحياة عطلة عيد فوق التلال ،
واذ ابتسمت له ابتسامتها الأولى فتاة عاكفة على النار تمد القهوة . وهو يتذكر ليلة
حبه الأولى التي اصطبغت باحمرار الشمس الغاربة ، والتي قضاها فوق مرآة البحيرة
الساطعة . وقد امتلأ قلبه حينذاك بشييد عظيم منطلق الى السماء والأرض .

وجلست هناك ساكنة . إنها لا تزال له . ولكنها أقبلت عليه خاضعة و لأول
مرة في حياتهما ، متوسلة إليه أن ينعم بها على قدر ما يستطيع وهي بالحالة التي هي عليها .
وأخذ دفء صامت يتدفق في قلبه المثلث بالهموم ، ولكنه لم يندفع إليها ليعتضنها
ويدور بها في دوامة من الابتهاج الحماسي . ووقف ساكناً ، ونظر أمامه محملاً ،
ونصب قامته ، وأقسم وهو يطبق شفثيه بقوة ، أقسم إن لا بد من شق طريق له ، ومن
إنقاذ الأمور لهما كليهما ، حتى مع كل ما حدث .

وأطفئت الأنوار ، ولم يلبثا أن رقد كل منهما في فراشه المنفصل ، وصعد في الظلام
أنفاساً ثقيلة . وتعدد بير ، رافعاً رأسه الى أعلى ؛ واسترسل في التفكير مغمض
العينين . كان يبحث في الظلام عن وسيلة لإنقاذ أعزائه . ورقدت ميرل مدة طويلة
تنتظر منه مداعبة من مداعباته ، حتى إنها اضطرت أخيراً أن تخرج منديلها ، وتضغط
به عينيها ، في حين اهتز جسدها بنشيج مكنوم .

الفصل الثاني عشر

نادراً ما كان لورنتز . د . أوتنوج يزور أخته الغنية القاطنة في بروميث ، ولكنه اتخذ اليوم الطريق الشاق إلى هناك ، وجلس كل من الأخوين الهرمين المتسلطين في مواجهة الآخر ، وقالت العمة ماريت وهي تميل بصدرها الضخم إلى الأمام ، وتصلك ركبتيها كما يفعل الرجل :

وهكذا (دبرت أمرك) على أن تلتمس طريقك إلى هنا ؟

وقال أوتنوج وهو يبسط كتفيه العريضين :

— رأيت أني أريد أن أعرف كيف تسير أمورك .

— إنها تسير على أحسن حال .. شكراً ... وما دام ليس لي صهر قلعله لا يحتمل أن أفلس .

وقال أوتنوج المسن وهو يحدق في وجهه بعينه الجرارين :

— وأنا أيضاً لم أفلس .

— ربما كان الأمر كذلك . ولكن ماذا عنه هو ؟

— هو أيضاً لم يفلس . وعمما قريب سيصبح غنياً .

— هو ... غنى ! أقلت غنى ؟

وأجاب الرجل المسن في هدوء :

— سيصبح كذلك قبل مرور عام ، ولكن عليك أن تمدى يد المساعدة .

— أنا !

ودفعت العمة ماريت مقعدها إلى الوراء ، فافرة الفم :

— أقلت « أنا » ؟ هاهاها ! خبرني فحسب كم من مثات من آلاف الكراوات أضاعها سدى في مشروع ذلك الخندق أو المصرف أو أيأ كان اسمه ؟

— لست أجهل أنه تأخر في إعطاء العمل ستة أشهر ، ولكن الشركة وافقت على إتقاص التعويض عن التأخير إلى النصف بعد أن رأت أى عمل فريد آعه .

— آه ، نعم ... وماذا عن « المقاولين » الذين سمعت أنه عجز عن سداد ما في ذمته لهم ؟

لقد دفع لهم أموالهم غير منقوصة ، « فالبنيك » سوى الأمور .

— فهمت ... إن ذلك تم بعد أن قمنا أننا الاثنان برهن كل ما امتلكنا من حطام الدنيا ... إنكما كليكما تستحقان ضرباً طيباً بالسياط !

ومسح أوتنوج لحيته :

— إنى أقر أن المشروع من الوجهة المالية البهتة لم يكن ناجحاً . ولكنى أستطيع أن أريك هنا ماذا يقول رجال الهندسة عنه في الصحف الفنية . ها هو ذا مقال مزين بصورته وصورة الحزان .

وقالت الأرملة دون أن تلتق بالآ إلى الصحيفة التى عرضها عليها :

— حسناً . . . أولى به إذن أن يعول أسرته بالصورة التى تنشرها له الصحف .

وقال أخوها وهو يعيد الصحيفة إلى جيبه :

— سيمود إلى القمة عما قريب .

وجلس هناك أمامها دون أن يساوره قلق . فهو سيدين للناس أنه ليس بالرجل الذى ينهار لدى أول إخفاق ، وأن هناك أشياء أخرى يقدرها غير النقود .

وكررت اللمعة ماريت القول :

— سيمود إلى القمة عما قريب ؟ هل تحايل عليك مرة أخرى بهراء جديد ؟

— لقد اخترع آلة حصاد جديدة ، وكاد يتم صنعها ، ويقول الخبراء إنها ستساوي مليون كراون .

وتراجعت الأرملة بتمتعها مسافة قليلة أخرى :

— هو ! وتريد أن تقنعني بحكاية كهذه ؟

— لا بد لك أن تعاونينا نحن الاثنين على مواصلة العمل بنجاح هذا العام ... وإذا قدمت للبنك ضماناً بمبلغ ثلاثين ألفاً . . .

ودفعت العمة ماريت ركبتها بيديها في قوة :

— لن أفعل شيئاً من هذا القبيل ؟

— بمبلغ عشرين ألفاً إذن ؟

— لا ، ولا بمبلغ عشرين قرشاً !

وحقق لوريتز أوتروج في وجه أخته دون أن يتحول ببصره عنه . وبدأت عيناه الحمراءوان تومضان ، وقال في هدوء .

— لا بد من قيامك بذلك يا ماريت .

وأخرج غلبوناً من جيبه ، وعكف على حشوها وإشعالها .

وجلسا فترة ينظر كل منهما إلى الآخر ، ويتعزز خوفاً من أن يبرهن الآخر على أنه الأقوى . وطال نظر كل إلى صاحبه حتى إنهما ابتسما آخر الأمر دون عمر . وسألت الأرملة في النهاية وعيناها تبههران بالسخرية :

— أظنك أخذت تذهب الآن إلى الكنيسة مصطحباً زوجتك ؟

— إذا أنا اكتفيت بالثقة في الله فقد أقبح في مقعدى وأصلى ، وأدع الأمور

تسير إلى الدمار . . . والواقع أنى أثق في اجتهد الإنسان أولاً ، ولهذا تجديني هنا الآن .

وأعجبها هذا الرد . فهذه الأرملة القاطنة في بروسيا لم تعد تتردد
على الكنيسة . فقد دخل في روعها أن القدر أخطأ في حرمانها الذرية .
وسألت وهي تنهض من مقعدها :

— أريد قدحاً من القهوة ؟

وقال أخوها :

— أنت تقولين الآن قولاً معقولاً .

وأومضت عيناه . كان يعرف أساليب اخته . وأشعل الآن « البية » ، واسفلتي
على ظهره مستريحاً في مقعده :

الفصل الثالث عشر

ووقف بير مرة أخرى في غرفة عمله بالمسبك مشتبكا في صراع مع النار والصلب .
إن القيام برسم العمل شيء مفيد ، والفكرة في ذهن صاحبها شيء حسن دائماً .
ولكن الرجال الذين استخدمهم في تحويل مشروعاته إلى رسوم نموذجية واضحة
يعملون في بطة ، ولماذا لا يستعمل هو يديه لصنع ما ينبغي صنعه ؟

ولدى وصول العمال إلى المسبك صباحاً كان صوت المطرقة يتردد في الغرفة الصغيرة .
ولدى انصرافهم مساء تركوا صاحب العمل وهو لم يفرغ من عمله بعد . وإذا أوى
المواطنون الطيبون في رينجي إلى غرفة نومهم ، وشاءوا أن يطلوا من نوافذهم رأوا
النور في غرفته مازال مضاء .

وكانت هناك أشياء كثيرة تتعب بير حتى قبل أن يبدأ عمله هنا . ولكن لم يكن
هناك قط في الأيام السالفة من يسأل أهليه القوة الكافية للاضطلاع بهذا العمل أو ذاك .
وهو كذلك لم يسأل نفسه قط هذا السؤال . والسؤال الآن ما زالت ، كما كانت من
قبل ، مسألة إتمام عمل ما بأي ثمن . ولم يحدث من قبل قط أن تمرض للاخطار مثل
هذا القدر الكبير من الأشياء .

وتم فعلاً صنع النموذج الحشبي للآلة الجديدة ، كما تم تركيب أجزائها للسبوكية .
وبدت في مجموعها بسيطة نوعاً ، ورغم ذلك ... أي فارق كبير بين الآلة البدائية
الأولى وبين هذا الشيء الذي يكاد يبدو حياً ... شيء له ، على الأقل ، عقل معدني ...
ألم يكن لهذه العجلات ومحاورها آباء وجدود ... وأسلافها تمتد إلى أغوار القدم ؟ إن
الصلب النجب ، وذريته تنجب بدورها ، متقدمة دائماً إلى ما هو أرفع وأقوى وأقدر .
وها هي ذي آخر مرحلة يصل إليها حتى الآن ، في هذا النوع من العمل ، بفعل
اختراع الإنسان — ومع ذلك هل هي بعد صالحة إلى الحد الكافي ؟ إن الاختراع
الذي ينجح نجاحاً كافياً في توفير المال للمخترع ... ليس كل ما هو مطلوب ، فلا بد أن

يكون الاختراع أكثر من ذلك ، لا بد أن ينجح نجاحاً عالياً ، لا بد أن يشق طريقه عبر البراري ... عبر السهول الشاسعة في الهند ومصر ... هذا هو المطلوب ... النوم ؟ الراحة ؟ والغذاء ؟ ... ما قيمة هذه الأشياء عند ما يتعرض للخطر ذلك القدر الكبير من الأمور ؟

ولم يعد يتردد على أذهن هذا التساؤل : لماذا ؟ إلى أين ؟ وماذا بعد ؟ لا جدوى من التفكير في هذه الأمور . إن أفقه ضاق عن أن يتضمن شيئاً أكثر من هذه المشكلة وحدها ... كان يحلم في وقت ما بتحقيق عمل يرتبط بأحلامه عن الأبدية . وهذه المشكلة الراهنة ليست كذلك بالتأكيد . ومع ذلك ما مدى ما يصل إليه مكسب الإنسانية عند ما تظفر بآلة واحدة مرة أخرى تضاف إلى مآلديها من آلات ؟ هل يقضي ذلك شماعاً واحداً آخر من أشعة الفجر في روح الإنسان ؟

وبرغم ذلك أصبح هذا العمل الآن ، وهو على ما هو عليه ، كل شيء بالنسبة لير ، لا بد أن يكون كل شيء . . . ينبغي أن يكون كذلك . وأصبح يربط بآله ارتباطاً وثيقاً .

وكان كلما رفع بصره إلى النافذة خيل إليه أن وجوها تحديق فيه من وراء كل لوح زجاجي من ألواح النوافذ ، وكأنها كان أصحابها يتساءلون : « لماذا ؟ ألم يتم الاختراع بعد ؟ .. فسكر فيما يعنيه إخفاك ؟ » وكأنها كانت وجوه ميرل وأولاده تقول : « أيتعم طردنا من لورينج إلى حيث يكون نصيبنا الإهمال ؟ » وكذلك وجه أوتيج الهرم وزوجته يقولان : « أمن أجل هذا انضمت إلى الأسرة المحترمة ؟ .. من أجل إلحاق الدمار بها ؟ » ومن وراء هؤلاء يتدافع أهل البلدة جميعاً .. كان الجميع يعرفون ما يجازف به ، وما يدعو إلى الكد على هذا النحو . ودأبوا على التعديق فيه منتظرين . وهل مدير البنك هناك ينتظر هو أيضاً ، شأنه في ذلك شأن الآخرين .

يستطيع المرء أن يمسك خناق امرأ آخر ويقول مستفعل ! أنت متعب ؟ أهناك عوالم ؟ هل الوقت ضيق ؟ .. إن هذا كله لا وجود له .. مستفعل ! .. أهذا الشيء أو ذاك غير ممكن ؟ .. حسناً ، اجعله ممكناً ، فمهمتك أن تجعله ممكناً .

لم يكن يقضي في بيته إلا وقتاً قليلاً ، واتخذ من مظهر مستطيل في مصنع فراهاته .

وكثيراً ما كانت ميرل تفضل إليه ، وتحمل له الطعام ، وتري كم هو شاحب ، مغبر الوجه ، منهوك القوى ، ولا تجرؤ على سؤاله ، بل تحاول ، بدلا من ذلك ، أن تمارحه . وقد تدربت منذ طويل على اصطناع المرح في بيت تطرد فيه الضحكات الأشباح .

ولكن حدث ذات يوم أن استوقفتها وهي تهم بالانصراف ، ونظر إليها وعلى ثغره ابتسامة غريبة ... وقالت له وهي تنظر إليه نظرة متسائلة :

— حسناً ، يا عزيزي؟

ووقف ينظر إليها كما كان ينظر من قبل ، وعلى ثغره نفسه الابتسامة البادية من بعيد . كان ينظر من خلال زوجته إلى العالم الصغير الذي تناصره ... أهذا البيت والأسرة اللذان ظفرت بهما عن طريقها ، وهو الذي لم يكن له مأوى قبل ذلك ، أسنهاران معاً ويتعظمان ؟

ثم قبل عينيها وتركها تنصرف .

وبعد أن تبدد وقع أقدامها وقف لحظة مدفوعاً برغبة مباغتة في الانجاء إلى قدرة عليا يبتهل إليها أن تمكنه من التوفيق في عمله . ولكن هل هناك قدرة تحقق له ذلك ؟ وفي آخر الأمر تحولات عيناه مرة أخرى إلى الحديد والنار ، وإلى أدواته ، ويديه ذاتهما ، وكأنه وجه دعواته إليها قائلاً : « ساعديني .. ساعديني لعل أستطيع أن أنقذ زوجتي ، وسعادة أطفالي . »

النوم ؟ الراحة ؟ التعب ؟ ليست لديه مهلة إلا عاماً واحداً . لن ينتظر البنك إلا عاماً واحداً .

ومر الشتاء ، ومر الربيع . وفي يوم من أيام يوليو جاء إلى البيت ، واندفع إلى ميرل صائحاً .

غداً يا ميرل ! سيحضرون إلى هنا غداً !

— من هم أولاء ؟

— القوم الذين سيشهدون آلة الحصاد . سنجرها غداً .

وقالت مبهورة الأنفاس ، محدقة فيه :

— أوه يا بير !

وواصل قوله :

— إنه لأمر طيب أن تكون لى صلات بأناس فى الخارج . فهناك رجل سيحضر من قبل شركة إنجليزية ، وسيحضر آخر من أمريكا ، ينبغي أن يكون هذا الأمر مشروعاً تجارياً ضخماً .

وأقبل الصباح ، ووقفت ميرل تشييع زوجها بنظراتها وهو يرحل بهرته ، واضعاً قبعته خلف رأسه ، مخترقاً الضباب الذى أعقب أمطار المساء . ولكن لم يكن لديها فراغ من الوقت لتقف مرتعدة ، فثمة ضيوف سيتناولون المشاء على مائدتها ، ولا بد أن تهتم بذلك .

وقامت الآلة (جاهزة) فى الحقل ، وكانت شيئاً رقيقاً مطلقاً بطلاء حديث . ووقف صبي بسرّج الخيل .

وأقبل رجلان يلبس كل منهما قبعة لينة ومعطفاً خفيفاً ، وكانا أوتروج الحرم ، ومدير البنك . ووقفوا ، ودارا بنظرهما فيما حولهما وقد اتكأ كل منهما على عصاه ، ولم تكن النتائج المرتقبة فى ذلك اليوم شيئاً لا أهمية له قط بالنسبة لهذين السيدين . آه ! ها هى ذى العربة الكبيرة الآتية من لورينج تقل الغريبيين ، وتقل معها بير نفسه الذى ذهب إلى فندقهما ليحضرهما من هناك .

وكان صاحب اللون قليلاً عندما تناول اللعاج ، وامتطى مقعده على ظهر الآلة بقصد قيادتها بنفسه خلال المريج ذى الحشائش الكثيفة العالية .

ونص الحصانان آذانهما ، وحاولا أن ينطلقا بالآلة عدوّاً ، وأفزعهما صوتها فى بادىء الأمر كما هى العادة ، ولكنهما لم يلبثا أن استقرا على السير فى خطوات ثابتة منتظمة . وأخذت الذراع المصنوعة من صلب ، الحاملة للمقص ، تدور دورات واسعة خلال المريج حيث تقوم الحشائش ساطعة بعد هطول الأمطار .

وسار الغريبيان فى بطء وراء الآلة ، وطفقا ينحنيان بين حين وحين ، وينظ

إلى أعقاب الحشائش ليرى هل المقص يحز الأعواد حزاً عميقاً نظيفاً . وكان الرجل الطويل القامة ، الكثيف اللحية ، ذو النظارة الزنبركية ، وكيل محل « جون فاولار » في ليدز ، أما الرجل القصير ، الحليق الوجه ، ذو الأنف الشبيه بأنف اليهود ، فهو يمثل شركة « هارو » في « فيلا دلفيا » .

وكانا من حين إلى حين يناديان بير أن يتوقف ليمتعنا بعض أجزاء الآلة .

ثم طلبا إليه أن يجرب السير بالآلة على أراض طبيعتها مختلفة .. على أرض منعقدة وعرة ، وعلى بعض الأعشاب الكثيفة المتفرعة . وأراد وكيل محل فاولار ، في آخر الأمر ، تجربة السير بالآلة على بقع من أرض حجرية . ولكن ألا تفسد مثل هذه الأرض للمقص ؟ .. هذا محتمل جداً ، ولكن وكيل فاولار يود أن يعرف إلى أى حد يتأثر المقص بالأحجار المنتثرة على الأرض .

وانتهى الاختبار أخيراً ، وأوماً كل من الزائرين إلى الآخر متأملاً . وكان من الجلى أنهما صادفا هنا شيئاً جديداً . فهناك إمكانيات لهذه الآلة قد تبعد عن الميدان أغلب أنواع الآلات الأخرى حتى في معمران المنافسة الشديدة المحتدمة في أرجاء العالم حول الآلات الزراعية .

وقرأ بير التعبير البادى في عيونهما . إن هذين الحبيرين الجامدى العاطفة رأيا رؤيا . رأيا ذهبيا .

ولكن مع ذلك هناك عقبة . . عقبة صغيرة .

وانتهوا من العشاء ، وانصرف الزائران وأمسى بير وهيرل وحدهما . ورفعت إليه عينيها مستفسرة ، وسألت .

— أسار الأمر إذن سيراً حسناً ؟

— نعم ، ولكن هناك فقط عيباً طفيفاً يتطلب الإصلاح .

— ألا يزال هناك شيء يتطلب الإصلاح . . بعد أن قمت طوال هذه الشهور كلها بذلك العمل البالغ المشقة ؟

وجلست ، وستقط يداهما في حجرها .

وقال في حماسة وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً .

— إنها ليست إلا مسألة تفصيلية بسيطة ، فالحشائش في حالة ابتلالها تلتصق بأصابع الصلب التي تملأ سلاحى القص ، وتتجمع هناك وتموق الحركة . والذنب ذنب الشيطان في أنه لم يخطر بباله قط أن أختبر الآلة بنفسه في جو مبتل . ولكن حين أصلح هذا الخطأ يا فتاتى فستحقق الآلة نجاحها عالمياً .

ونصبت الآلة مرة أخرى في المصنع ، ودار بير حولها يراقبها ويعصها ، ويفكر ويكد ذهنه ليستنبط حيلة صغيرة تجعلها صالحة تماماً . وكل ما عدا ذلك المغمز كان قد بلغ حد التمام ، وبرىء من كل عيب ، ولكن لم تتوفر إلى الآن هذه الفكرة المفردة السعيدة ، هذه الومضة من الإلهام . . هذا الشيء المعين الذى يتوفر في لحظة من لحظات العمل قد يكفى لبث الروح في هذه القطعة من الصلب ، وإدائها بأجنحة تطير بها في أرجاء العالم الفسيح .

وقد تجيء هذه الفكرة السعيدة في أية لحظة . وطاف حول الآلة مرة بعد مرة وهو يشد أصابع قبضتيه بقوة ، يائساً بسبب تلك الفكرة في مجيئها .

إن المسألة الأخيرة فقط . . إن وضع النقطة تحت الباء هو الذى ينقصه . . ما الذى يمزجه ؟ أهو تغيير بسيط في شكل أصابع الآلة أو وضعها ؟ . . أم في طول سلاحى القص ؟ . كيف يستطيع أن ينام في تلك الليلة .

وأحس أنه يواجه مشكلة كان من الميسور أن تحل في سهولة لو أنه جاء بعمل متجدد للقوى منتعشا ، ولكن ذهنه المكدوم كان منهكاً إلى حد لا يستطيع معه التغلب عليها .

ولكن عغد ما يتهياً الجواد العربى للسقوط من شدة الإعياء ، فإنه عندئذ ينطلق عدواً .

لم يكن يستطيع أن ينتظر ، فهناك الوجوه تبدو ثانية من وراء النوافذ هادئة متسائلة : « ألم تتم العمل بعد ؟ » . وهناك ميرل والأطباء ، وأوتھوج وزوجته ، ومدير البنك . . وهناك منافسوه في أرجاء العالم أجمع . . إنه يسبق هؤلاء الآن

بشوط ، ولكنه قد يتخلف عنهم غدا . أين تنظر ؟ أين تريح ؟ لا !

وحل الحريف الآن ، وألجأ السهر طوال الليالي إلى الطبيب الذى وصف له الاستحمام بالماء البارد ، والاستجمام التام ، وتجرع الأشربة المنومة ، والأشربة المعدنية . آه ، نعم . فى ومع بير أن يتطلع الأدوية الموصوفة جميعها .. ولكن المشوء الوحيد الذى لا يستطيعه هو الراحة والنوم .

إنه ليجلس إلى ساعة متأخرة من الليل ، مكبا من شدة الإرهاق ، وعيناه ترقبان جمرات الكور الحامدة ، وقطع الصلب والأدوات . وإذا عدد لا يحصى من الشرار يبدأ فى التطاير أمام عينيه ، وتزحف هنا وهناك فوق الحيطان والأرض كتل من الحديد المنصهر وكأنها أشياء حية . وبدأ من عل ، إلى جانب الكور ، شيء أكثر تحديدا ، بدا شكل ضبابي أخذ يزداد حجما ووضوحا حتى انتصب أخيرا مخلوقا هو نصف إله ونصف إنسان ، له لحية ، ولا يستر جسده ثوب ، وفى إحدى يديه نار ملتهبة ، وفى الأخرى مطرقة هائلة :

— ماذا ؟ .. ما هذا ؟

— ألا تعرفنى يا رجل ؟

— إنى أسألك من أنت ؟

— لدى قول أفضى به إليك . لا طائل من وراء بحثك عن إيمان غير إيمانك بتطور الكون . إن الصلاة لن تفيدك شيئا . وقد تبتمد بأحلامك عن الصلب والنار ، ولكن لا بد لك آخر الأمر من أن تهب نفسك لهما . إنك مقيد إلى هذه الأشياء برباط وثيق ، وروحك يصبح عدما إذا خرجت عن نطاقها . الخالق ؟ والسعادة ؟ ونفسك ؟ . وحياة أبدية لك ؟ إن هذه الأشياء لا وجود لها بالنسبة إليك . إن إرادة الكون تتدرج صوب هدفها الأبدى ، وليس الفرد إلا وقودا للنار .

وقد يهب بير واقفا ، معتقدا للحظة من اللحظات أن أحدا موجود هناك فعلا . ولكن لم يكن هناك شيء إلا الفراغ التام .

وكان يذهب من وقت لآخر إلى بيته فى لورينج ، ولكن كل شيء بدا كأنه يمر

خلال ضباب . ولم يغب عنه أن عيني ميرل كانتا حراوين برغم أنها اعتادت أن تغنى
وهى تنقل في المنزل . وخيل إليه أنها ترجوه أن يأوى إلى فراشه ويستريح ، وأوى
إلى فراشه . وإنه لمن المبهج أن ينام ، ولكن كانت تستعوذ عليه ، عند انتصاف الليل ،
فكرة أن العيب ، مع ذلك كله ، يمكن في شكل القمص . . ومن ثم لا يقف في سبيله
شيء يمنعه من النهوض والإسراع إلى المصنع . وعاد الشتاء من جديد وهو يناضل
ليشق طريقه وسط عاصفة تلجية . . ويضيء مصباحه وسط الليل الساكن ، ويشعل
النار في الكور ، ويلوى سلاحى القمص مرة أخرى . ولكنه بعد أن يمدلها ،
ويثبتها ثانية في موضعها ، يدرك من فوره أن العيب لا يمكن فيهما بحال
من الأحوال .

والقهوة تفيد في الاحتفاظ بصفاء الذهن ، واعتاد أن يمدّها لنفسه في مصنعه .
وكانت بضمة أقدام منها تفيده ، لاسيما في أثناء الليل ، وتكفيه أيضاً إلى حد أنه لم
يكن يشعر بأية رغبة في تناول الطعام . وعند ما انتهى به التفكير إلى أن أفضل شيء
هو أن يعود فيصنع من جديد كل جزء من أجزاء الآلة على حدة ، وجد في القهوة
معوّنة كبيرة لأنها مكنته من قضاء ليال طويلة كثيرة ساهراً .

وبدأ يظهر له أن ميرل وحماه ومدير البنك أخذوا يترصدون مكانه ليل نهار ،
مترقبين متجسسين ليروا هل العمل أوشك أن يتم . كيف لا يستطيعون ، بحق الشيطان ،
أن يتركوه في سلام . . مدة أسبوع واحد آخر ليس إلا ؟ .. والآلة لا يمكن تجربتها ،
على أية حال ، قبل حلول الصيف المقبل . وكان عمال السبك يحفلون في بعض الأحيان
من خروج رئيسهم مندفعاً من غرفته الداخلية ، صائماً في عنف .

« لا ينبغي لأحد أن يدخل هنا .. أريد أن تتركوني في سلام ! »

وكان كل منهم ينظر إلى الآخر عقب رحيل بير ، ويهز رأسه .

وجاءت ميرل ذات صباح ، واجتازت الجزء الخارجى من المصنع ، وطرقت باب
غرفة زوجها ، ولم تتلق جواباً ، ففتحت الباب ودخلت .

ولم تمر لحظة حتى سمع العمال صرخة امرأة . وكانت ميرل ، لدى دخولها الغرفة
عدوا ، تمنع على زوجها الجالس على الأرض ، الشاخص إليها بعينين فارغتين ،
خير مدركتين .

وصاحت وهي تهز كتفه : « بير ا بير ا أتسمنى ؟ أوه ، قل لى بحق ربك ماذا جرى يا حبيبي .. »



فى يوم من أيام إبريل حدث هرج ومرج فى بلدة رييجيبي الصغيرة ، وانطلق منها فيض من الناس يرتدون أبهى حللهم ، (رغم أن اليوم كان يوم الأربعاء) وساروا على طول طريق الفيورد المؤدى إلى لورينج . وكان بينهم رئيسا التحرير اللذان حسبما أخيراً خلافتهما الدائمة ، والهاميان اللذان لا يزال كل منهما ينوى أن ينتزع لنفسه أى جزء من مهمة قضائية تسنح له ، وكان هناك تجار وأصحاب حرف ، وقد ارتدى ، جميعهم تقريباً ، معطفاً طويلاً ، وقبعة صوفية رمادية ، ولكن الدباغ لبس قبعة حريزية عالية ليبدو أطول قليلاً .

وفى موضع خروج الطريق من الغابة توقف أغلبهم عن السير لحظة لينطلقوا إلى لورينج . وبدأ البيت الأبيض الكبير كأنه تربع عالياً فوق التل ليشرف إلى مسافة بعيدة وواسعة على البحيرة والريف المحيط به . وتحدث الرجال عن الأمور الجسام .. عن الحفلات ، وعن العظمة التى عهدتها المنزل الكبير فى الأيام الحالية منذ أن كان مقرراً رسمياً للمحاكم إلى بضع السنوات الأخيرة التى كان المهندس هولم خلالها فى أوج مجده .

ولكن العقار معروض اليوم للبيع بالمزايدة العلنية هو مايشتمل عليه من جهاز وأثاث . وسار الناس إليه ، أو اقتيدوا إليه من أماكن بعيدة محيطة به . ذلك أن إدارة البنك شعرت بأنه لم يعد هناك مبرر لمنع أية مهلة جديدة لبير وهو يرقد الآن مريضاً فى المستشفى ، وما من طبيب يأخذ على عاتقه أن يقرر هل يمكن أن يصبح المريض أهلاً للاضطلاع ثانية بالعمل فى يوم من الأيام .

ولم يلبث الفناء أن ازدحم بالناس . وفى الردهة الكبرى داخل الدار كان دلال المزايدة قد بدأ بالفعل فى إعداد القاطع للمعرضة للبيع ، ولكن أغلب الناس توقفوا إلى الوراء قليلاً ، وكأنهم يشعرون بالامتناع من الدخول . وذلك أن الجو هناك فى الداخل مشحون بذكريات متخلقة عن العظمة وكرم الضيافة ابتداء من الأيام التى

كان الفرسان المثلون بالأطواق والمهاميز الذهبية يكرمون السيدات اللواتي يجررن أذيال ثيابهن الحريرية . . ابتداء من تلك الأيام الى عهد الولاثم المرحلة التي كان المهندس الشهير القادم من مصر يحلو له أن يدعو اليها في أيام عزه جميع سراة القوم القاطنين حوله .

وقف أغلب الناس على درجات السلم أو في مدخل البيت . وكانوا بين الحين والحين يختلسون لمحة الى امرأة شاحبة ، مجللة بالسواد ، ذات حاجبين كثيفين ، تجتاز الفناء الى بيت أحد الخدم ، أو الى مخزن من المخازن لتأمر بنقل بعض الأشياء . هذه المرأة هي ميرل التي لم تعد الآن سيدة هذا المكان .

وعلى درجات السلم قابل لورينتز أوتنوج الهرم أخته سيدة بروسيت القادرة ، ونظرت إليه ، وأشعت من عينيها الضيقتين ومضة من سخرية ، ولكنه نصب قامته ، وقال وهو يمر بها :

— ليس نعمة شيء تخشينه ، فقد سويت الأمور على نحو جماني لم أفلس بعد . . وستنالين نصيبك كاملاً .

وأوسع في خطاه الى الداخل ، عريض الكتفين ، مرفوع القامة ، ناظراً الى جميع الرجال في هدوء حتى يمكنهم أن يروا أنه ليس بالرجل الذي يسعقه اخفاي .

وفي ساعة متأخرة من النهار عرض الحصان يبيع للبيع ، واقتيد ملجماً عبر الفناء . واذا قبل توقف لحظة ، وصهل ، وأجابته الجياد الأخرى بالصهيل متصاعداً مرحاً الإسطبل . أكان ذلك وداعاً ؟ أهو يتذكر ذلك اليوم الذي جاء فيه أول ماجاء منذ سنين ، راقصاً بأقدامه المكسوة بالجوارب البيض ، ممتاثاً شاباً وقوة ؟

ولكن كان هناك تحت المظلة الخشبية كالمادة رجل مسن ، أشهب قليل الحجم ، منهمك في نشر الخشب وتقطيعه ، وكأن ما يحدث لم تكن له أية أهمية . لقد غادر القصر سيد وحل محله سيد آخر وبدا لذلك الرجل أن كلا من السيدين يحتاج الى خشب الوقود كما يحتاج اليه الآخر تماماً . وإذا جاءوا إليه ليبدوا له أية ملاحظة ، فهو والحمد لله أصم كالبحر ، وصوت ضربات الفأس يظل يتوالى .

وأقبل شاب في عربة معد بها التل . . شاب وجهه نضير، وعيناه شديداً الزرقاء .
وخلع معطفه في عمر الدار فكشف عن سترة سوداء طويلة تحت المعطف موت نوع
« الفروك » ، وعن صدر عريض . كان ذلك القادم هو أوتنوج الابن ، الوكيل
العام لبيع الأنسجة الإنجليزية ، وهو لم يشترك في شئون زوج أخته المالية ، وعلى
ذلك يستطيع أن يعين أباه على أزمته .

ولكن المزايدة في لورينج ظلت مستمرة لبضعة أيام .

الكتاب الثالث

الفصل الأول

ومرة أخرى يمتد واد عميق أهل بزارع مغمورة بأشعة الشمس تقع في جوانب التلال بين النهر وصف الجبال الممتدة وراءه .

وفي يوم من أيام منتصف الصيف كان راستاد الهرم نفسه هو الذي جاء يستقبل القطار وهو يقود عربة ركوب تتبعها عربة نقل .. فهل هو ينتظر ضيفانا ؟ وسأله القوم الذين كانوا في المحطة هــ ذا السؤال ، فأجاب راستاد الهرم وهو يمسح لحيته السكتة : « قد يكون الأمر كذلك » . وتنقل وهو يطلع متفقداً حصاني عربته ... أم القوم الذين أعد لهم « البيت الكبير » ؟ وأجاب الرجل الهرم : أكبر الظن أنهم هم أنفسهم . »

ودخل القطار المحطة، وخرج منه رجل شاحب اللون ، أشهب شعر الرأس واللحية يستعمل نظارة زرقاء ، وكان يصطحب زوجة وثلاثة أولاد .. وسأل هذا الغريب : « بول راستاد ؟ » وأجاب الرجل الهرم : « نعم ، أنا بول راستاد » ورفع الغريب بصره إلى الجبال الشاهقة الواقعة إلى الشمال ، للتعالية إلى السماء على نحو يصيب المرء بالدوار ، وقال :

— لا بد أن الجو طيب هنا .

وقال راستاد :

— نعم ، يجمع الناس على أن الجو طيب جداً .

وبدأ ينقل الأمتعة إلى العربتين .

وصعدتا براكبيها في طريق التل . واستقل الرجل وزوجته عربة الركوب ، وكانت المرأة تحمل طفلاً على حجرها ، والسكن الغلام والفتاة جلسا فوق أحمال عربة نقل الأمتعة خلف راستاد .

وسألت المرأة وهي تدور برأسها :

— أنستطيع أن نرى الضيعة من هنا ؟

وقال الرجل الهرم مشيراً بيده :

— ها هي ذى هناك .

ونظروا فرأوا على منحدر تل مشمس ، ضيعة عالية تقع تحت قمتها مباشرة ، وعلى مقربة منها يقوم منزل مستطيل وطىء ذو سقف هرمى مبنى بحجر الأردواز . وهو من نوع المنازل التى اعتاد موظفو الأقاليم أن يسكنوها فى الأيام الحالية .

وعادت المرأة فسألت :

— أهذا هو المنزل الذى سلسكن فيه ؟

وقال راستاد الهرم :

— نعم ، هو بعينه ؛ هذا صحيح .

واستعث حصانيه على سرعة الجرى .

وأطالت المرأة نظرتها إلى الضيعة وتهدت ... هذا سيكون إذن منزلهم الجديد ، وصار عليهم أن يعيشوا هنا بعيدين عن جميع أصدقائهم . فهل يمكن أن يعيد له هذا عافيته بعد أن عجزت أدوية الأطباء جميعها عن شفائه ؟

وقابلهم كلب من كلاب « لابلاند » عند باب حديقة المنزل ، ونبح فى وجوههم . ونزل خنزيران إلى الطريق ، ووقفوا ، وأخذوا يتعلمان القادمين الجدد فى اهتمام شديد ثم دارا فجأة ، وانطلقا يمدوان بين البيوت .

وكانت زوجة وكيل للزرعة تنتظرهم بنفسها خارج المنزل . وهى امرأة طويلة القامة ، ذات غضن ، تضع على رأسها قبعة سوداء . وقالت وهى تعد بدأ خشنة غليظة العظام :

— مرحباً بكم .

وكانت غرف المنزل فيحة ، وطيشة الأسقف ، ذوات مواقد كبيرة تحتاج إلى كمية كبيرة من خشب الوقود في أثناء الشتاء . وكان الأثاث خليطاً من كل نوع وكل طراز .. مقعد مستطيل من خشب « الماهوجنى » ، و « بوفيهات » إطارها مزخرف بورد ملون ، ومقاعد منقوشة بنقوش « أولد نورس » ، ولوحات مزعجة لأسرملوك أجناب ، ولصلب المسيح . وقالت ميرل وهما يتجولان في الغرف وحدهما :

— يا إلهى ! كيف يمكن أن نمتاد كل هذا في يوم من الأيام ؟

ولكن لوبز اقتنعت الغرفة في هذه اللحظة بالذات ، وأفضت بلبأ بهر أنفاسها :

— أبى ... أبى ... توجد معز هنا !

ودلف لورتنز الصغير في إثرها ، وصاح وهو يتعثر فوق درجة الباب :

— معز يا أبى .

ظل هذا البيت القديم خاوياً ميتاً لمدة سنوات وبدا الآن كأنه استيقظ . وتردد وقع الخطوات الداخلة والخارجة . وقمعت درجات السلم مرة تحت وطء الأقدام .. أقدام صغيرة تدق الأرض وتستكشفها ، وأقدام كبيرة تتجول لإنجاز المهمات الكبيرة كانت هناك حركة في كل ركن ، وتردد في المطبخ رنين الآنية والأوعية ، وتوهجت النيران ، وأخذ الدخان يتصاعد من المداخن ، وتطلع المارون في الخارج إلى أعلى ، ورأوا البيت القديم الميت وقد دبت فيه الحياة من جديد .

وكان بير لا يزال ضعيفاً بعد مرضه ، ولكنه استطاع أن يساعد قليلاً على فك رباط الأمتعة . بيد أن قليلاً من الجهد المبذول جعله يلمث ويشعر بالدوار ، وكانت هناك في مكان ما بمؤخر رأسه مطرقة كبيرة تدقه باستمرار .. افترضى — افترضى مع ذلك أن تغيير الجو هنا لا يفيدك ؟ .. إنك في المرحلة الأخيرة ، إنك دبرت أمرك لاقتراض المال الذى يمكنك من البقاء هنا عاماً واحداً ، فماذا يكون الأمر بعد ذلك ؟ . زوجتك وأولادك ؟ صه ! .. خير لك ألا تفكر في هذا .. ليس هذا ، فكر في أى شيء آخر ، في أى شيء إلا هذا .

لا بد من نقل الملابس إلى الطابق العلوى . نعم ، نعم .. والتفكير ينتهى كماه
إلى أنك تعيش على إحسان الآخرين . وحتى ذلك لن يستمر طويلا . وإذن أنت لم
تصبح أحسن حالا فى الصيف المقبل .. أو منذ الآن إلى عامين مقبلين ؟ ماذا سيكون
الأمر عندئذ ؟ أما عن نفسك أنت فهناك مخرج لك دائماً .. نعم ، ولكن ميرل
والأولاد ؟ صه ، لا تفكر فى ذلك ! كان واجبك كله فيما مضى أن تتم عملاً معيناً فى
وقت معين . وواجبك الآن أن تسترد عافيتك ثانية .. أن تصبح قوياً كالصمان فى
العام المقبل . هذا هو واجبك ، آه لو أن هذه المطرقة الكبيرة تتوقف فقط عن الدق ...
المطرقة التى تدق مؤخر رأسك .

ولعل ميرل فى أثناء دخولها وخروجها تفكر فى نفس الشيء . ولكن ذهنها كان
مكتظاً بأغياء كثيرة أخرى .. بتنظيم الأشياء ، وإدارة شؤون المنزل . فلا بد أن
تشتري الأطعمة من الدكان المحلى . وكلم لتر من اللبن ستحتاج إليه فى الصباح التالى ؟
ومن أين تحصل على البيض . عليها أن تذهب من فورها إلى منزل راستاد وتسأل عن
ذلك . وعلى ذلك سارت المرأة الشاحبة اللون ، المتعشة بثوب أسود ، بطيئة الخطوة ،
منعنية الرأس ، مجتازة الفناء . ولكنها إذ تقف لتتحدث إلى الناس المحيطين
بالمكان كانوا ينسون آداب المجاملة ويحدقون فيها ، نظراً إلى أنها كانت تبسم
ابتسامة شديدة الغرابة .

وقالت لويز وهى ترقد فى فراشها ، وتطوق عنق بير بحبيبة قبل نومها .

— أبى ، يوجد قفص للزراير معاق هنا بالخائط ، ويوجد كذلك عش لمصفر
الجنة تحت طنف السقف .

— أوه ، نعم ، ستكون لنا تلهيات هائلة فى راستاد .. ما عليك إلا أن
تلتظري لترى .

ولم تلبث ميرل وبير أن رقدا فى فراشيهما الغريبيين ، متطلعين إلى الليلة
الصيفية القمرء .

إنهما مثل قوم كانوا على ظهر سفينة تحطمت فقتلهم الموج إلى الشاطئ . ولكن
لم يبد فى وضوح أنهما نجوا تماماً .

وتقلب بير على جنبه متحملاً . وكان منهك الجلد والعظم إلى حد أن أعصابه بدت كأنها ترقد عارية ، فهو لم يستطع أن يجد راحة في أى وضع من الأوضاع . ثم إنه كانت هناك ثلاثة عجلة ترن في رأسه ، وتقدح شرراً يتطاير ويتحول إلى رؤى .

راحة ؟ لماذا لم يرض بالراحة قط في الأيام التي سارت الأمور كلها على أحسن حال ؟

لقد حقق مرامه عند ما شيد أول خزان .. نعم ، وكسب مالا كثيراً من وراء مضخته الجديدة . ولكن كانت هناك دائماً تلك الأسئلة التي تنهشه . لماذا ؟ إلى أين ؟ وماذا بعد ذلك ؟ كان رئيساً للمهندسين ، ومد خطاً حديدياً ، وكان في وسعه أن يسيطر به مد خطوط حديدية أخرى .. ولكن كانت تعاوده هذه الأسئلة ثانية : لماذا ؟ وماذا بعد ؟ الوطن ، الوطن ، ثم مد جذوره في تربة وطنه الأصلي .. حسناً ، فهل جلب له ذلك راحة البال ؟ وما الذي أبمده ثانية ؟ .. الصلب .. الصلب والنار .

آه من ذلك اليوم الذي نزل فيه من فوق آلة الحصاد فأسرته فكرة تحسينها . لماذا اضطلع بهذا العمل ؟ أكان في حاجة إلى مال ؟ لا . أم العمل كان معطلاً ؟ لا . ولما كان الصلب يريد أن يواصل التقدم ، ويحتاج إلى رجل ، فأمسك به من خنقه وقال له : « ستضطلع أنت بذلك ! »

السعادة ؟ الراحة ؟ آه لا ! فأنت ترى أن كمية كبيرة مختزنة من المعرفة والتجربة تتحول في يوم مؤات إلى جيش من قوى الشر يسوقك إلى الأمام دون انقطاع . وقد تتمثر ، وقد تسقط .. ولكن ما أهمية ذلك ؟ إن الصلب يعتصر الرجل حتى نخاعه ، ثم يمسك بمن يليه .. ولهب الدنيا يحتاج إلى وقود .. فاحن رأسك يا « رجل » ، واقدف بنفسك إلى النار .

إنك تفلح اليوم .. وغداً يلقي بك في جحيم مقام في هذه الأرض . وما أهمية ذلك ؟ أنت وقود للنار .

ولكن لا أريد ذلك . لا أريد أن يلتهمني لهب الدنيا ، حتى ولو كان هو اللاهوت الوحيد في هذا الكون . سأنتزع نفسي منه انتزاعاً ، وأصبح شيئاً في ذاتي ، شيئاً انفسى . وسيكون لي روح أبدى . وتطور العالم الذي أحدثته التقدم منذ ألف عام .. ما أهميته بالنسبة لي ؟

(م - ١٥ الجوع الكبير)

روحك ؟ فكر فقط في مشاهرك النيلة حبال أخيك الشرعى غير الشقيق ..
 ها .. ها .. ها ! كان شيكسبير مخطئاً .. إن الإبن غير الشرعى هو الذى يغربه .

— يا عزيزى بير ، حاول بالله عليك أن تنام .

— أوه ، نعم . سمماً وطاعة ، سأنام . ولكن الجو حار جداً .

وأزاح عنه أرديته ، ورقد يتنفس فى صموبة .

— أنا واثقة من أنك تفكر وأنت رافد فى أمور كثيرة وتقلبها على مختلف

وجوهها ، ألا تستطيع اتباع ما قاله لك الطبيب السويدي ؟ .. حاول فقط أن تذكر
 أن كل شيء حولك يكتنفه الظلام .

ويدور بير بنظره فيجد كل شيء حوله يكتنفه الظلام ، ولكن فى قلب ذلك
 الظلام ترتفع أمواج .. أمواج من النغم المتسق تتوالى مقربة أكثر فأكثر .. إنه
 صوت نشيد .. إنها لويز تمزف واقفة .. لويز أخته .. أى سلام يارباه ! ..
 أى سلام ! وأية راحة !

ولكن لويز لا تلبث أن تتوارى .. إنها تتوارى وتتبدد كما ينفخ فى اللمب
 فينطفئ ، ومن ثم تتراعى ضوءاء هادرة ، وتقرب شيئاً فشيئاً طاحنة ساحقة مجالطة
 وهو يعرف الآن هذه الضوءاء حق المعرفة . إنها أغنية الصلب .

هو هدير الصلب منبعث من السفن ، ومن قطارات السكك الحديدية التى يندفع
 كل منها بعيليه الصغراوين القيريتين ، ممتلئاً بالأسرى الآدميين ، فإلى أين ؟ .. إنه
 يزداد سرعة ، مدفوعاً بدافع المنافسة .. بدافع شيطان الصلب الذى يتصيد الرجال
 دون ما راحة أو إسهال ، مسرعاً ، على وقع نبضات العالم ، إلى الحمى .. إلى الهذيان
 إلى الجنون .

إن تحطم « كرات الصلب المتساقطة ، وأزيز المجلات ، واصطدام آلات الرفع
 والسلاسل ، وقعقة المطارق الضخمة فى أثناء عملها .. كل هذا متداخل فى تلك
 الضوءاء . إن النار تتأجج بعينين جهنميتين فى كل ركن مظلم ، والرجال يتزاحمون
 حول الوهج الأحمر كأنهم ملائكة أشرار ، إنهم عبيد الصلب والنار مسوقين إلى الأمام
 دون أن يرتاحوا أبداً .

أهذا روح برميثيوس ؟ أنظر ، إن إرادة الحديد تقذف بالرجال إلى الهواء الآن
إنها تقهر السماوات . لماذا ؟ لتستطيع أن تندفع بسرعة أكبر ، إنها تتوق مع ذلك إلى
مزيد من العجلة ، فتصبح أسرع . . . أسرع . . . برغم دوارها . . . تسرع . . .
لماذا ! وإلى أين ؟ وا أسفاه ! إنها لا تعرف نفسها .

أأصبح أبناء هذه الأرض لا مستقر لهم إلى ذلك الحد ؟ . . . أم يخافون أن ينالوا
قطلاً من الراحة لدقيقة واحدة ؟ أيجشون أن ينظروا إلى داخل أنفسهم ويروا فراغهم ؟
أيتوقون إلى شيء افتقدوه . . . إلى نشيد ما . . . أو لحن ما . . . أو معبود ما ؟ . . .

معبود ؟ إنهم يمجّدون إلهاً جباراً ، وناسكاً ممدداً على صليب . . . ما هذه الآلهة في
نظر رجال الصناعة الماديين الحديثين ؟ إنها تاريخ ديني ، ولبست ديناً .

وقالت ميرل ثانية :

— يا بير ، حاول أن تنام بالله عليك .

— أتظنين يا ميرل أني سأشفي هنا ؟

— لم السؤال ؟ ألم تشعر منذ الآن كم الجور رائع ؟ إنك ستشفي بالطبع .

ووشج أصابعه في أصابعها . وعأوده آخر الأمر صوت نشيد لويز ، ورفعته ،
وهدهده في رفق حق أغمض عينيه .

الفصل الثاني

طريق ضيق يتعرج بين أشجار الغابة ، وليس به إلا أثر مرور عجالتين بينهما بساط رمادي من أشواك الصنوبر ، ولكن هناك الشجر والسماء والهدوء والسلام ، حتى أن التريض هناك هو نعمة حقيقية . فالطريق يرتفع وينحدر في رفق إلى حد أن أحداً من مرتاديه لا تنقطع أنفاسه لمثلاً . وهو يسدو كأنه يسير المرء طوال الوقت لخض الصداقة ، وكأنه يهمس في أذنه : « هون عليك الأمر ، تمهل ، استمتع براحة طيبة هنا . » وهكذا يعقد الطريق متعرجاً بين جذوع الأشجار ، بمشوقاً رخصاً كأنه العادة الهيفاء .

إن بير يمشي هنا كل يوم ، وإنه ليتوقف وينظر إلى أعلى أشجار الصنوبر ، ويواصل سيره ثانية ، ثم يجلس لحظة من اللحظات فوق حجر مكسو بالطحلب . ولكنه لا يجلس إلا لحظة واحدة . . فهو يسارع دائماً إلى النهوض ، ومواصلة السير ، رغم أنه لم يكن له مكان معين يقصده . ولكن السلام ، على الأقل ، كان سائداً هنا . وهو قد يترث ويرقب حشرة تزحف فوق فرع من أفرع شجرة صنوبر ، أو ينصت إلى خرير نهر يحترق الوادي بعيداً في أسفل التل ، أو يستنشق رائحة صمغ الصنوبر الكثيفة في الجو الدافئ ، تلك الرائحة التي ترد للمرء عافيته .

إن حياته الراهنة هذه كانت أسلوباً خاصاً من أساليب الميش . فهو إذ يرقد بعد ليلة لم يذق خلالها طعم النوم ، ويرقب النافذة التي يتزايد نورها مع بزوع الفجر ، يحظر له : ها هو ذا بعد يوم جديد . . وليس نعمة شيء أستطيع القيام به خلاله .

وكان عليه مع ذلك أن ينهض من فراشه ، ويرتدي ملابسه ويتزل إلى الطابق السفلي ويتناول طعامه . وكان للخبز الذي يأكله طعم خفيف المرارة . كان له طعم الإحسان والاعتماد على أرملة بروسيت الغنية ، ووكيل شركات « الأنقشة » الإنجليزية . وكان على بير أن يذكر ضرورة تناول الطعام على مهل ، ومضغ كل لقمة بعناية ، والاستراحة بعد وجبات الطعام ، ثم عليه ، قبل كل شيء ألا يفكر . . ألا يفكر في

أى أمر من أمور الدنيا الواسعة . وسيكون في وسعه بعد ذلك أن يخرج ويدخل كسائر خلق الله . وما عليه إلا أن تكون تنقلاته وأفعاله غير ذات فائدة ، ولا معنى لها في ذاتها ، فهو لا يؤديها إلا في سبيل محته ، أو في سبيل إبعاد الأفكار عن ذهنه ، وإزجاء الوقت .

وكيف جرى هذا ؟ إنه لا يزال يجد من المستحيل أن يدرك كيف يمكن أن تقع مثل هذه الأمور التي لا معنى لها دون أن تكون هناك أقدار تتدخل لتعيدها إلى نصابها . لماذا قضى عليه أن يدمر على هذا النحو المفاجيء . . . أيام وأسابيع وشهور من أوج عهد رجولته تنسرب إلى عدم أجوف . . . لماذا . . . أرق وأعصاب مرهقة تدفعه إلى ارتكاب أفعال تنكرها إرادته . إنه قد يثور على زوجته وأولاده إذا حدث أن وقع عقب شيء صغير على الأرض . . . ولا جدوى من الندم الذي يعقب ذلك ، وينتهي أحياناً إلى ذرف دموع صبيانية . . . لأن الشيء نفسه يحدث ثانية ، أو يحدث على نحو أسوأ . هذا هو عبث في يومه . . . هذه هي الحياة التي قدر له أن يحياها .

ولكنه لا يغير أحداً هنا وهو في أعلى ممر الغابة الصغير . وليست ثمة ضوضاء مؤقية تترامى وتنغصم مدى حادة في سلسلته الفقرية . هنا سلام شامل ، سلام يفيد الإنسان . . . وفي أسفل التل يقوم على المنحدر المشوش مخزن متداع للمحصولات الزراعية ، أشهب اللون ، يذكره بمحصانه المعجوز ، الخائر القوى ، الذي يرفع رأسه عن السكلا لينظر إليك . وهو على ما يبدو مخلوق وحيد منبوذ . . . وفي غد سيسقط على الأرض ولا ينهض بعد ذلك أبداً ، بيد أنه يقبل نصيبه في هدوء وصبر .

أج ١ . . لكم ابتعد عن راستاده وانبتق في جسده كله عرق بارد خشية ألا تكون لديه قوة كافية تمكنه من العودة أدراجه صاعداً في التل . . حسناً ، استجمع قواك ، استرح قليلاً . . واستلق على ظهره ، راقداً فوق حقل مزروع برسبما ، عذقا في السماء البادية فوقه .

يتدفق طواك النهار على امتداد الوادي تيار هواء نقي ، رطب بسبب مروره فوق الثلوج ، وكأنا « جوتنهايم » نفسها ، حيث تقبع هناك تحت قبة السماء ، تنفّس في رغد من العيش ، وعلاً بيررئيه بأنفاس طويلة عميقة ، متجرعا الهواء كأنه جرعات من دواء خاف . . « ساعدني إذن أيها الهواء ، وأيها النور ، وأيتها الوحدة . ساعدني

حتى أصبح معافى مرة أخرى ، صالحا للعمل ، فالعمل هو العقيدة الوحيدة للتبعية
لأتلقى بها . »

ومن فوقه ، بين صفى الجبال ، يعلق جامدا في مكانه عباب أزرق ، وفي الأعماق
ترقد الراحة الأبدية . ولكن هل هناك أيضاً إرادة تعنى بالناس فوق هذه الأرض ؟
أنت تزعم أنك لا تؤمن بها ، ومع ذلك تتصاعد إليها صلاة قصيرة ! « ساعديني ..
أنت أيضاً .. من ؟ أنت التي تسمعين كل شيء .. إذا كنت تهتمين أقل اهتمام
بتلك الأشياء التي تسمى رجالا ، وتزحف على وجه الأرض ، فساعديني ! .. إني إذا
كنت قد ابتليت يوما لأنك من تحقيق أعمال كبرى تشيع جوعى إلى الأشياء
الأبدية ، فإني لنادم على ذلك الآن ، وإني لأعترف أن الأمر كان زهوا وغرورا ..
اجمليني عبدا يكد مضطلعا بأعمال حقيرة في سبيل لقمة العيش حتى لا تنتزع مني ميرل ،
ولا ينتزع مني أطفالي .. أنسمعين ؟

أهناك كائن يحد سلوى في رؤية القدر الأعلى يعذب الرجال ؟ هل زوجي وأطفالي
عبيد حظ لا معنى له ؟ .. ومع ذلك يستطيع هذا الكائن أن يتسم ويضحك ؟
أجيبيني أيتها الإرادة إذا كنت تعيريني صمداً ... أنت بإصاحبة الأسماء المتعددة .

وأخذ جنسب يعبر بين الحشائش من حوله . وعلى حين فجأة هب جالسا ،
فهناك من تحته يمر قطار السكة الحديدية صارخا :

وعلى هذا النحو توالى الأيام .

وكانت ميرل في كل صباح تحتاس نظارة إلى وجه زوجها تدرى أنام ليلته أم لم ينم ..
لترى أعيناه ثقيلتان متفتختان أم هادئتان ؟ لاشك أنه سيصبح أحسن حالا عما قريب !
لاشك أن مكنهم هنا سيفيده . وقد فقدت هي أيضاً الثقة بالأطباء ، ولكن هذا
الهواء ، وهذه الحياة الريفية ، والوحدة . الراحة ، الراحة .. لابد أن تظهر عما
قريب أدلة لاربيب فيها على هذا كله سينجده .

وكم من مرة نهضت في الصباح دون أن تغض عينيها طوال الليل . ولكن كان
هناك الأولاد الذين عليها أن تعنى بأمرهم ، والبيت الذي تعهد شئونه . وكان رأيها

قد استقر رأيها على أن تستغنى عن خادمة فيما إذا كان في مقدورها .

وسأله ذات يوم :

— ما الذى شغلك فى الضيعة فأخرك كل هذا التأخير ؟ إنك ظلمت جالساً هناك مع راستاد الهرم مدة ساعات طويلة .

وقال :

— أنا .. أنا أذهب إلى هناك لأتسلى ، وأزجى الوقت .

— أتحدثان فى شئون السياسة ؟

— لا .. نحن نلعب الورق - لماذا تنظرين الى على هذا النحو ؟

— أنت لم تلعب الورق قط من قبل .

— لا ، لم ألبه .. ولكن ، بحق الشيطان ماعساى أن أفعل ؟ أنا لا أستطيع القراءة بسبب عيني هاتين اللعينتين .. وبسبب الطرق للمستمر فى رأسى .. وقد أنعمت الآن على جميع المزارع القائمة فى أعلا الوادى وأدناه إنها فى مجموعها تبلغ خمسين مزرعة . وهذه الضيعة هنا تضم على وجه التحديد واحداً وعشرين بيتاً سواء فى ذلك الكبير منها والصغير . فبمق الشيطان ما الذى أهتم به بعد ذلك ؟

وتهدت ميرل وقالت :

— هذا أمر عسير ، ولكن ألا تستطيع الانتظار حتى للساء لتلعب الورق ؟ ..

ألا تستطيع الانتظار حتى ينام الأطفال .. وعندئذ أستطيع أنا أن ألب مملك .. إن هذا يكون أفضل .

— أشكرك شكراً جزيلاً .. ولكن ماذا عن سائر اليوم ؟ أتعرفين كيف تكون حال تجوالك منذ الفجر حتى حلول الظلام وأنت تشعرين بأف كد دقيقة تبتدت .. تبتدت هباء ؟ لا ، أنت لا تستطيعين معرفة ذلك .. ماذا أصنع بنفسى فى أثناء يوم من هذه الأيام القاتلة التى لا تنهى ؟ أشرب الخمر حتى أسكر ؟

— أما فى وسمك أن تحاول تمضية وقت قليل فى الاحتطاب ؟

— الاحتطاب ؟

وصفر صفيرا خافتا .

— حسنا .. إنها لفكرة ، نه .. مم . لنحاول قطع حطب للوقود في سبيل
تبديل الحال .

صوت ضربات ، ضربات ، ضربات !

ولكن بينما هو ينصب قامته ليفسح مكانا لتنفسه ترمى إليه أزيز آلة حصاد
« راستاد » منبعثا من منحدر الوادي القريب حيث تعمل تلك الآلة ، فضم أسنان
فكيه بقوة كأنما قد آلمته . إن « راستاد » يقود آلة الحصاد التي اخترعها هو ،
والسما تخطر دون انقطاع ، والحشائش لاتزال تلتصق ، وتلتصق .. فكيف يصالح
الحلل .. يصلحه ؟ وأحس كأن لطات تنهاوى على جراح متقيحة في رأسه ، وتحمله
على الرقص من شدة الألم .. صوت قطع الحشب ، صوت قطع الحشب ، قطع الحشب ! ..
أي صوت يعرف أزيز هذه الآلة .

ولكن الإنسان قد يستعمل الفأس بيديه ، وتساوره مع ذلك تخيلات معتوهة
تظل طوال الوقت تفور في رأسه وتغور . ولعل بير قد فقد قدرته على صد نزوات
الخيال ، فهي تزحف إليه محتشدة من كل جانب ، وتنقض عليه انقضاض جوارح
الطير .. وكأنما هي تتأثر لنفسها منه أطول أبعادها في الزمن الحالي ، فهي تصبح :
هأنذا ! لقد عاهد فوقف وقفة تلميذ في الأعمال الميكانيكية ، وعمل على تثبيت صفائح
مرجل هائل بواسطة هواء مضغوط في أنبوب .. وتوالى الصوت : « كلينج .. كلانج » ،
وانتشر صوت المرجل النائح في البلدة بأسرها .. والآن يكمن نفس المرجل في رأسه :
« كلينج .. كلانج » .. « أج » ! وانبثق من جسده عرق ، بارد ، فرمى الفأس ..
لا بد أن ينصرف ، ويولى الأدبار .. يهرب الى مكان ما .. بيد أنه لا يدرى الى
أين . إن الوجوه التي يمت التفكير فيها تطل عليه من كل ركن صائحة : « هيه ! ..
ألم تقل لك ؟ .. أنت اليوم سائل يستجدي ، وفي غد ستصبح مجنونا مسجوننا
في قفس . »

ولكن قد يحدث أيضا أن المونة تأتي في أثناء الليل . وهناك تعود إلى ذاكرة

الإنسان تلك الأشياء التي يطيب له أن يتذكرها .. فذاك الوقت .. أو غيره من الأوقات .. امرأة هناك .. وتلك المرأة التي قابلتها في ذاك المكان .. وهناك لوحة في متحف اللوفر رسمها « فيرونيز » : امرأة في مقتيل العمر من البندقية تصمد في سلم مرمرى لأحد القصور ، ممسكة بيد غلام ذهبي الشعر ، إنها ترتدى ثوباً من الخمل الأسود ، وتتألق شباباً وسعادة . أكان هناك موعد لقاء مع حبيبها في حديقته ؟ وقبله أولى ! وضوء القمر ، وعزف على العود !

وسرت في جسده المنهوك رجفة من السعادة . وحومت صوبه زرافات من الدكريات والانطباعات المشرقة وكأنها أرواح من نور .. واستطاع أن يسمع رقيق أجنتها المندفعة إليه .. وناداهها طالباً العون ، وأحاطت به ، وصارعت أرواح الظلام لإنقاذ روحه ... لقد عرف في حياته قدرا كبيرا من الاشرار والجمال ... والأرواح المشرقة هي الأقوى بالتأكيد ، ولا بد أن تنتصر .. آه ! ماذا لم يعيش عيشة الملوك بين النساء والأزهار وأقداح النبيذ ؟

وقال ذات يوم وهو ينهض من فراشه :

— ينبغي لي يا ميرل ... بل إنني سأضطلع بعمل ما يدفعني إلى النوم وقد برح بي التعب .

وأجابت ميرل :

— نعم يا عزيزي ، حاول أن تفعل ذلك .

— سأبدأ بمحاولة نقل أحجار على « عربية يد » وإذا لم ينم المرء ، بعد يوم عمل كهذا فلا بد أن يكون يوماً عامراً بالشیطان .

وعلى ذلك حمل الأحجار في ذلك اليوم وفي أيام كثيرة تالية ونقلها على عربية من أرض تقع إلى جانب التل تشقت حديثاً ، وحملها إلى خندق يمتد إلى جانب الطريق .

أيام هادئة ذهبية من أيام الحريف .. ومزرعة فوق مزرعة ترتفع بالتدريج إلى قمة الصف ، وتقع جميعها وسط حقول صقر نامية الزرع . وهناك فوق القمة تماماً

يقع كوخ صغير تجاه السماء نفسها ، ولهذا الكوخ أيضاً رقعة الصغيرة ذات سنابل القمح الأصفر . وهناك نسر يسبح على مهل من قمة إلى قمة عبر الوادى العميق .

وحلق المارة في بير وهو يروح ويغدو عارى الرأس ، فى قميص بلا سترة ، دافماً أمامة عربية الأحجار . وقد يقولون وهم يهزون رؤوسهم : « نعم ، إن لسراة القوم آراء عجيبة . »

وظل صوت جاف أجش يتردد فى رأس بير قائلاً : « هو ذاك .. الزم هذا العمل .. هذا بله ، ولكنه مكتوب عليك . جر العربية فى جد برجليك الهزيلتين . وكم من حصان منهوك اضطر قبلك إلى القيام بنفس هذا العمل . لابد أن تنعم الليلة بشيء من النعاس .. لم يبق أمامك الآن إلا عشرة أشهر ، وستجد الشيطان بعد ذلك قادماً إلى مفترق الطرق مرة أخرى .. مسكينة ميرل ، لقد بدأ شعرها يشهب . والأطفال الصغار المساكين .. لعلمهم يحلون بأن أباهم يضربهم ، فهم كثيراً ما يصرخون فى أثناء نومهم . لتمض الآن ، ادفع العربية ، انته الآن من هذا العمل ، وعد لتتقل غيره . »

« أنت الذى تطلع يوماً إلى عمل بلا روح فى سبيل لقمة العيش ، لقد غصت الآن إلى حضيض أشد تعاسة . أنت تجر الآن حملاً ، وعملك هذا محض حماقة .. أنت عبد من العبيد المحكوم عليهم بالتجذيف فى السفن . والكارثة هى سيدك المشرف على عملك . وأنت كلما تحركت تعالى صليل السلاسل ، وهذا هو يومك . »

ونصب طوله ، وجفف عرق جبينه ، وبدأ يلقي الأحجار فى « عربة اليد » من جديد .

إلى متى تستمر حياة القيود والأغلال هذه ! أتذكر أيوب ! أيوب ! نعم ، ولا بد أنه كانت لله حكمة عند ما سلط إبليس على رجل سميد . أيوب ؟ إن أبنائه وبناته السبع . وماشيته وأولادها ردت إليه ، ولكننا لم نقرأ عن أى عوض ناله نظير ما أصابه ، لقد أجبر على القيام بدور مضحك البلاط وهو يكابد الاضطراب والتعذيب والشقاء لينال السادة قسطاً من اللهو دون مقابل . لقد استرد أيوب نصيبه من الماشية والذرية ، ولم يحصل على شيء غير هذا .. ها .. ها ؟

برومشيوس ! أنت على أية حال صديق الإنسان الوحيد بين القوى المسيطرة عليه ؟ أحقاً لديك القوة التي ستحررنا جميعاً في يوم من الأيام ؟ متى تقبل إذن لتثير الثورة الكبرى ؟

هيا ، هيا .. انطلق بالعربة ثانية .. أنت ترى أنها امتلأت .

وصاحت لوزير الصغيرة وهي تنحدر في التل ركضاً ، وجدائل شعرها الأصفر تتطاير حول أذنيها

— أبي ، حان موعد تناول العشاء ، تعال الى البيت .

— ولكنها توقفت على حذر ، وهي على مسافة قصيرة منه .. إذ لم تعرف أى مزاج قد يكون مزاج أبيها

— شكراً أيتها القردة الصغيرة . لدينا طعام طيب للعشاء الليلة ؟

وقال الصبية بصوت ينم على الماكسة :

— آها ! هذا سر .

وكان وجهها قد أشرق الآن سروراً إذ وجدته يتقرب إليها :

— أمسك بي يا أبي ! إنى أستطيع أن أجرى بأسرع مما تستطيع أنت !

— أخشى يا فتاتى الصغيرة أن أكون متعباً الآن أشد التعب .

— إيه يا أبى المسكين ! أنت متعب ؟

وأقبلت عليه ، وأمسكت به من يده ، ثم دست ذراعها في ذراعه .. ووجدت لها ممتعا في صمودها التل وهي متعلقة بذراع أبيها كأنها فتاة شبت عن الطوق .

ثم حل أوان الصقيع . وفي أحد الأيام نفذت قمم التلال إلى السحب الرصاصية الرمادية التي هطلت منها الثلوج الجارفة . ووقفت مبرل الى جانب النافذة وقد بدا

وجهها رماديا في الضوء المزج . ونظرت الى الوادى حيث أطبقت عليه الجبال ،
فبدأ لها أعد ضيقا من ذى قبل ، وثقلت أنفاس المرء ، وبدأ كأن عقله خمد بين الفاف
البرد الرطب .

أج ! خير لها أن تذهب إلى المطبخ ، وتمسكف على العمل من جديد . . . خير لها
أن تعمل . . . تعمل وتنسى .

وجاءها ذات يوم خطاب ينبئها بموت أمها .

الفصل الثالث

عزيزى كلاوس بروك .

مخلوق أسطورى ! سقط ذات يوم من المقسم الحديدية ، ثم صعد مرة أخرى في اليوم التالى مع ~~صكتشر~~ . ولكن ، قل لى بحق السماء ، ما الذى ذهب بك إلى السودان ، ما الذى جعلك تذهب وتجاوز بحياتك في أم درمان ؟ أظنه نفس اليأس القديم الذى تشكو منه دائماً . ولماذا اخترت من دون الأشياء جميعاً أن تغرس نفسك في موقع متطرف على حافة البادية لترقد هناك مستيقظاً في الأمسيات ، وتهدهد أفكار « شوبنهاور » الانتحارية . . تقول إنك عشت بلا مبادئ ، وبددت شبابك سدى ، وأصبحت لا مأوى لك الآن في أى مكان ، ولا أخلاق لك ولا وطن ولا دين . ولكن أنتستطيع تحسين ذلك كله بجعل الأمور أسوأ بكثير مما هي عليه ؟

وعلى فكرة أنت تخطيء إذ تحسنى على حياتى الريفية ، ولا معنى لنماديك في الحنين إلى كنيسة صباك الصغيرة وأنبيائها وأناشيد وأغانيمها . . حسناً . . إن الحنين قد لا يضر ، ولكن لا تحاول أبداً أن تمر عليها ، فالواقع يا صديق العزيز أن مثل هذه الأشياء لا يمكن العثور عليها بعد الآن أبداً

أنا أسلم بأن العقيدة كان لها سلطان عليك في صباك يمانى ما كان لها من سلطان على . لقد كنا كلانا غلامين شقيين همجيين ، ولكننا كنا نميل للذهاب إلى الكنيسة ، لا لنستمع إلى المواعظ ، ولكن لنحى رؤوسنا عند ما يتعالى النشيد ، ولنغنى مع المغنين . وعند ما كانت أمواج موسيقى الأرغن تكرر في الكنيسة ، بدا لى أنا على الأقل — كأنا شيئاً بدا يتعالى في صدرى ، ويحملنى بعيداً إلى بلاد وممالك كل شيء فيها هو على الأقل قائم على نحو ما يلغى أن يكون . وعند ما خرجنا معاً إلى فسحة العالم خرجنا ونحن نحفظ في قلوبنا بشيء من صدى ذلك النشيد ، وربما لنا القدر ، ولكن النشيد ظل حياً في ركن من عقولنا وكأنه اشتها . . كأنه جوع إلى شيء من تناسق الوجوه . ولعلنا كنا نتمنى في اليوم الآخر بالعمل حصتنا من أغنية

الصلب الهادرة ، ولكننا في الأمسيات ، في فرغنا الموحش ، كانت طاقة أخرى تغشى عقولنا ، هي الجوع الى اللانهاى ؛ هي لهفتنا على أن تحملنا أمواج الأبدية فوق متنها وتهددنا . . . تلك الأبدية التي يبعد كشف طريقها عن كل متناول .

ولا تعتقد مع ذلك أنك ستجد الآن كنيسة صباحك في أية بقعة من بقاع بلادنا ، فإن لنا الآن أنواراً كهربية في كل مكان ، ولنا تليفونات وآلات عازلة ، ونقابات عمال ، واجتماعات سياسية ، ولكن الكنيسة أصبحت خاوية على عروشها . لقد ذهبت إليها ، ووجدت الأرغن ينوح كأنه يشكو الماء في ضرسه ، والواعظ يعطس نشيده عطسا ، ورواد الكنيسة لا يزفون سقفاها بأصواتهم ، وما ذلك إلا لسبب واضح هو أنه ليس بالكنيسة من رواد . . . والقسيس المسكين يقف على منصته بشاربه الأسود ، ونظارته ذات الزنبرك . . . إنه ضابط في الجيش الاحتياطي ، يقرأ ملحوظاته المعقولة إلى حد بعيد من ورقة مكتوبة ، ولكن وجهه ينطق طوال الوقت قائلا : « أنها أيها الصلوكان اللذان لم يعد بالكنيسة رواد غيركما ، إنكما لا تؤمنان بكلمة واحدة مما أقول ، ولكن لا بأس ؟ فأنا لا أؤمن أيضاً بذلك . » إنه لأمر فاجع أن يتجاوز الناس عهد اعتقادهم في المقدسات . ونحن نحسب أننا الآن نفضل القديسين . . . إن مذهب التفكير المؤسس على أن كل إنسان آثم بطبيعته ، والله يبطش بالآثمين . . . إن هذا المذهب يستثيرنا . . . وإننا لنهزله أكتافنا ، ونشبح عنه بوجوهنا مبتسمين أو نافرين . إننا لم نبلغ مصاف الملائكة بعد ، ولكننا أصبحنا أرقى من أن نؤمن بمثل هذا .

إن للقسيس عذره بالطبع ، فهو لا بد أن يبشر بإله ، وليس هناك إله إلا الله . وإنه ليكاد يدهش الرء ، على العموم ، أن يجد حتى الفلاحين الجهلاء يهزون رؤوسهم ، ويقاعدون عن الكنيسة . فماذا يصنعون إذن في أيام الآحاد ؟ إنهم يجلسون حول مائدة مستطيلة مطأطأة الرؤوس في انتظار مرور النهار . وهم يذكرن الإنسان بمحسان الحرات الذي ملاء جوفه بالطعام ، ووقف يصهل صهيلا خافتا ، لأنه لا عمل له في ذلك اليوم .

أنا أسلم بأن خطة التطور الكبرى ، بما اشتملت عليه من أعاجيب الصلب ، ومعجزات العلم ، تغير وجه العالم ، وتزيد من نبضاتها شيئا فشيئا حتى تصبح نبضات محمومة . ولكن أية فائدة تعود على الملاح إذا ما استطاع أن يطير بعربيته ذات اليد

بين أجواز الفضاء ، في حين لا يبقى له على وجه الأرض أى معبد ، أو أى يوم عيد ؟
 وأية مهمة يمكن أن يضطلع بها بين السحب فيما إذا لم تعد هناك أقواس سماوية
 تملو روحه ؟

هذا هو السؤال الحارق الذى يلازمنا جميعاً . . . يلازمك أنت في الصحراء ،
 ويلازمنا نحن هنا في الشمال تحت القطب . يدولى أننا في حاجة إلى من يجدد لنا
 عقيدتنا . . وليس القصد رسولا جديدا ، ولكن عقيدة مجددة .

لنك تسألني عن محق . . حسناً ، يخيل إلى أن الحديث عنها ما زال مبكرا جدا .
 ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أنك إذا تعرضت للعذاب والألم فلا تلقى للسؤال
 على غيرك ، ولكن ألقيها على نفسك .

تحيات إليك منا جميعاً ؟

المخلص

ير ديلزمان

الفصل الرابع

اقترب عيد الميلاد ، وأصبحت الأيام كلها ذات غسق أشهب ، وحل صقيع جعله
الحيطان الحشبية تقعقع . وازرقت الأطفال من البرد وهم يروحون . ويفدون .
وارتدوا الى حلقة الانزلاق كلما عكفت أمهم على تنظيف الأرض ، مع أنه قد تكون
هناك نار متوقدة في المدفأة . وكان بير يخوض متوغلا في الثلج بعيدا ليصل إلى البئر
ويعود بالماء . وتدلّت لحيته وكأنها جدائل ثلجية تحيط بوجهه .
نعم ، هذا هو الشتاء .

وكانت ابنتا راستاد الهرم في قاعة الألبان اتصال اللبن لتستخرجا اللبن . وفتح
الباب على مصراعيه فاندفعت منه هبة من هواء قارس . ووقف بير هناك يطرف بجفنيه
— ها ايا لكما من فتاتين متقدتين ؟

— أنحن كذلك الآن ؟

وأخذت الفتاة ذات الشعر الأحمر ، والأخرى ذات الشعر الأصفر ، تضعفكان في
استخفاف ، فهذا المستاجر الحضري العجيب الذي حل بدارهما لا يقترب منهما أبدا
دون أن يتشددى بالنكت .

— وعلى فكرة يا « إلزا » لقد رأيت ليلة أمس في الحلم أننا سنتزوج .

وصرخت كلتا الفتاتين اغتباطا بهذا القول

— وأنت يا ماري ، ستزوجين العمدة .

— يا لله ! هذا المخلوق المعجوز الذي يقطن في « مووين » ؟

— إنه في أرذل العمر ، في التسعين .

وقالت الفتاة ذات الشعر الأحمر وهي تقلب ما يحتويه مرجلها الكبير الغائر .

— أف ! .. أنت لا تكف عن هرائك أبدا .

وخرج بير ثانية . وكانت الفتاتان لاتكادان تتجاوزان سن المراهقة ، وبدا

وجهاهما مع ذلك كأنهما قد جدا وتبيسا لما تبذلان من جهد . وكلا حاولا أن يباغتهما بما يضحكهما ساورهما الخوف من أن يكون قد خدعهما ليحماهما على ارتكاب أمر لاخير فيه .

وتشى فوق الجليد المققع تحت قدميه وهو يضع على رأسه قبعة من فرو تغطي أذنيه . وكانت جوتونهايم نفسها تقع هناك في الشمال ، وترسل أنفاساً من الصفيح الأزرق يعم العالم بأسره .

وهو ؟ أبواصل العيش على هذا النوال ، ويحدوب ظهره تحت حمل يتقل كاهله ويحنيه شيئاً فشيئاً دون انقطاع ؟ لماذا ، والعياذ بالله ، لا ينفض عنه هذا الحمل ، ويتخلص منه ، ويركل في شجاعة قدره المشثوم ؟

وسألته ميرل وهي واقفة في المطبخ :

— ما رأيك يا مير في إعطاء الأطفال هدية بمناسبة عيد الميلاد ؟

— أوه ... نهب كلا منهم بالطبع قصراً ، وجواداً يمتطيه ... عند ما يكون لديك مال يفوق في وفرته الحد الذي لا تعرفين معه كيف تنفقينه فالشيطان يتكفل عندئذ بالتوفير ... وماذا عنك أنت يا فتاتي ؟ أليس عليك اعتراض على إهدائك قراء يبلغ ثمنه ألفي كراون ؟

— لا ، ولكن جادة ، فليس لدى الأطفال مزائق يزحفون بها على الجليد ، وليس لديهم زحافة ذات يد .

— حسناً ، أليس عليك مال تشتري به هذه الأشياء ، أما أنا فلا أملك شيئاً منه .

— لنفترض أن تحاول أنت صنعها لهم ؟

وتأمل مير الفكرة من مختلف نواحيها وهو يصفر :

— مزائق ؟ حسناً ، لم لا ؟ وزحافة ؟ قد نستطيع تدبير ذلك . ولكن ماذا عن أستا الصغيرة ، إن سنّها أقل من أن يناسبها هذا النوع من الأشياء .

— إنها لا تملك فراشاً لهديتها .

وصفر بير ثانية .

— لهذا رأى شيء من الوجاهة ... إنها لفكرة ، أنا لم أصبح بعد عاجزاً إلى حد المعجز عن صنع ذلك ...

ولم يابث أن اضطلع بالعمل في جدد . وكانت هناك أدوات ونخت نجارة في بناء صغير تابع للدار ، وهناك زاول عمله ، وكان التعب يدركه بسهولة، وتحاول قدماء دائماً أن تتوجها به إلى الباب ، ولكنه كان يحمل نفسه على الاستمرار في العمل . أهنك ما يشوب للفكرة التي تقول إن الإنسان يستطيع أن يشفي بمجرد تصميمه على ذلك ؟ سأشفي ، سأشفي ، سأشفي . وبدأ تفكيره فيمن عداه من أهله يتغلب على تلك الطيور الكواسر التي تفترس رأسه ... هدايا لأطفاله ... هدايا صنعها لهم أبوهم بنفسه لقد أشاعت هذه الصورة النور والدفء في عقله ... إلى الأمام إذن .

وعندما حان صنع الأربطة الحديدية لمقود الزحافة كان عليه أن يجتاز البلدة ليذهب إلى الحداد . وهناك وقف رجل ريفي يقوم بتخشين حدود حصانه ... وبدأ الحديد والصلب المتوهجان مرة ثانية ، وخيل إليه أن صوت المطرقة وهي تدق السندان تعزق أذنيه ، وبرغم ذلك كان هذا الصوت يجتذبه أيضاً ... وقد طال عهده بجماع الصوت ... وكانت هناك ذكريات .

« أريد أن ألحم هذا بالكهرباء يا جينز ؟ ... أين البورق ؟ انظر ، هذه هي طريقة لحامه .

وقال جينز وهو يرقب الضربات الحاذقة الميسورة المطرقة :

— لعله وله حداداً ، وربى حداداً .

وخلت ليلة عيد الميلاد ، وجر مهر المزرعة الأشهب صندوقاً خشبياً كبيراً وصل به إلى الباب . وفتح بير الصندوق وحمل ما به إلى داخل البيت ... وتكومت كومة كبيرة من الأشياء الطيبة أرسلها معارفه من ربنجيي بمناسبة عيد الميلاد .

وعض شفتيه إذ رأى كل الحقايب مكونة فوق مائدة المطبخ . . . لقد مر به زمن ليس بعيد كان يعلأ فيه هو وميرل زحافته بسلع من متجر لورينج ، ويذهب بها ، وهي محملة بهدايا عيد الميلاد ، إلى جميع الفقراء القاطنين في تلك النواحي . وكان ذلك بالنسبة لهما جزءاً مما يلهوان به . . . والآن . . . الآن عليهما حتى أن يسرا بتلقى الهدايا هما نفسهما .

— ميرل . . . أليس لدينا شيء نستطيع أن نجود به هذا العام ؟

— لست أدري ؟ وماذا ترى أنت .

— إنه ليكون عيد ميلاد رجل فقير للغاية . . . إذا كنا نتلقى الهدايا فقط ولا نجد لدينا أقل شيء نعطي .

وتنهت ميرل وقالت :

— علينا أن نأمل ألا يحدث لنا هذا مرة ثانية .

وقال وهو يذرع الغرفة رائحاً غادياً :

— أنا لا أسمح بأن يحدث لنا ذلك الآن . . . هناك ذلك النجار الفقير الذي يقطن في « مووين » ، وينهشه مرض السل . . . سأذهب إليه برزمة صغيرة أدخل بها بابيه حتى ولو اضطررت إلى أخذ كسائك الداخلي ، وخلع قميصي عن ظهري ، فأنت نفسك تعلمين أنه لن يكون نعمة أى عيد ميلاد أبداً إذا نحن لم نقوم بعمل ما .

— حسناً . . . ما دمت ترغب في ذلك . سأرى هل نستطيع أن بين ملابس

الأطفال شيئاً يمكنهم الاستغناء عنه .

وانتهى الأمر بأن أخذت ميرل نجبي عشوراً على كل رزمة وردت إليها من بيت أهلها ، سواء في ذلك رزم الأرز والزبيب والفطائر ، وعبأت بما اقتطعته طروداً يذهب بها زوجها إلى من يقطنون حوله . . . هذه هي طريقة ميرل ، دعها تعمل وحدها وهي تتوفق إلى شيء صائب .

وقعقت الثلوج ثم قمعت تحت قدمي بير وهو يضيئ لتأدية مهمته . . . وكانت السماء مرصعة بالنجوم ، والهواء قارصاً . وتراى نور فوق نور من نوافذ الضياع المبعثرة على جانب التل المظلم . وبدأ اتجاه السماء وميض ضئيل يعلو كل ما عداه ، وقد يكون منبعثاً من نافذة أحد الأكواخ ، أو لعله نجم من النجوم .

وتورد بير وانتعش عندما عاد إلى دفء الغرفة . وتمالت صيحات مرحة كأنها غناء جوقة من المرتلين ، وذلك عندما أعلنت ميرل للأطفال قولها : « أبوكم سيعاون كلا منكم على الاستحمام الليلة » .

وكان قاع برميل منشور بنشار هو حوض الاستحمام . ووقف بير في المطبخ ، مشمراً أكمامه عن ساعديه ، ممسكاً بالأجسام الصغيرة وهي تتقلب في الماء الساخن .

وكانت الأم منهكة في القيام بعمل ما في غرفة الجلوس . وكان ذلك العمل سرّاً كبيراً وبدأ الأطفال متكتمين أمره ، غامضين كل الغموض . وقالوا لأستا الصغيرة التي ذهبت باكياً إلى الباب طالبة أمها : « لا ، لا . . . ينبغي ألا تدخل » .

وحدث بعد ذلك في المساء ، عندما أضيئت شجرة هيد الميلاد ، وسطعت النوافذ سطوعاً أبيض من أثر الصقيع . . . حدثت أمور كبرى على أرض غرفة الجلوس . . . حصلت لويز على مزلاقيها وزحفت بهما فوقعت في الحال على وجهها . وأخذ لورنمز يصيح وهو يسرع بزحافته الجديدة : « ها ! .. ها ! .. أفسح في الطريق هناك ! » . وهناك في أحد الأركان جلست « أستا » الصغيرة مشغلة بوضع دميتها في فراشها ، والغناء لها حتى تنام .

ونظر الزوج وزوجته كل إلى الآخر وابتسم . . . وقالت ميرل :

— ألم أقل لك . . ؟ .

وزحفت أيام الشتاء الرصاصية الشبه بطيئة بطئاً يذب النفوس . في منتصف النهار كان يحل غسق يستمر مدة ساعتين — مدة ساعتين فقط — ثم يعود الظلام

إلى ما كان عليه ، وفي خلال الليالي الطويلة كانت ريح الشمال تعوى مرردة مرثيات جنازية — هوه ... أوه ... أوه ... وتسكوم الثلوج فتحدث أجرفاً عميقة عمقاً يكاد يدفن الزحافة ومن يقودها ، وظلت الأيام والليالي تروح وتغدو رتيبة لا تتغير . وضوء النهار الثلجي الأشهب هو نفسه لا يتبدل ، وليس شعة آدمى واحد يبادلونه الحديث — وهناك عبر الوادي يمسك حائط جبل راسخ هائل ، فتحدق فيه إلى أن يكاد يذهب بعقلك آه لو يستطيع الإنسان أن يحدث فيه ثقباً يسترق من خلاله لمحة إلى العالم الواقع خلفه ، أو لو يستطيع أن يمسد إلى قمته العليا ، ويدور بعينه ، للحظة من اللحظات ، حول الأفق البعيد المريض ، ويتنفس مرة أخرى في حرية .

وحدث أخيراً ، في يوم من الأيام ، أن ارتفع النقاب الأشهب قليلاً . وظهر شريط من السماء الزرقاء ... واستخف ذلك المنظر القلوب ، وتحولت القمم الثلجية في الجنوب إلى قمم ذهبية ... ماذا ؟ ... أهذه هي الشمس حقاً ؟ وبعرور يوم بعد يوم ازداد الآن اتساع حزام من ذهب ، وهبط شيئاً فشيئاً على جانب التل إلى أن انغمست الضياع في وهجه الأحمر . وفي آخر الأمر وصل اللهب الأحمر إلى البيت الكبير ، وسطع عبر أرض العرقة التي كانت ميرل تجلس فيها إلى جوار النافذة ، وترفع قاعدة حروال صغير .

آية حياة ، وآية بهجة يأتي بها هذا الضوء !

وصاحت لوز من الباب مغتبطة :

— أماه ... ها هي ذى الشمس .

— نعم يا بنيق ، إني أراها .

ولكن لوز لم تجيء إلا للحظة من اللحظات كي تطلب من أمها فطائر لأخيها لورينتز ولنفسها ، وتنصرف بعد ذلك إلى الترحلق بعزلاقيها فوق منحدرات التل . « أشكرك يا أمى ... أنت حبيبة إلى نفسي ! » واندفعت إلى الخارج حاملة قطعة من الفطير في كل يد من يديها ، متوردة الوجه من البرد وتوفر الصحة .

آه لو أمكن فقط أن يتورد وجه بير صحة من جديد ! .. ولكنهما حتى لو استطاعا

إقناع نفسيهما بأنه الآن . الآن تخلص من المأزق . ففي اليوم التالي سيرقد متخبطاً في حبال الفاقة ، وسيصبح كل شيء أدعى إلى اليأس من أى وقت مضى . وقد عاد إلى تناول عقاقير الطبيب -- زرنبيخ وحديد وما إلى ذلك -- والجو الهادئ النقي الذى وصفوه له متوفر هنا .. أما من شيء يفيد ؟ لم تعد هناك أشهر كثيرة متبقية الآن من العام .

وماذا بعد ؟ .. شتاء آخر ؟ .. والعيش على إحسان المحسنين -- آه ، وبلى ! .. وهزت ميرل رأسها وتنهت .

وحان أيضاً الوقت الذى ينبغى للوزير أن تذهب فيه إلى المدرسة .

وكتبت العمة ماريت من بروسيث رسالة قالت فيها : « أرسلوا الأولاد إلى -- أرسلوهم ثلاثتهم إذا أردتم ذلك . لا ، شكراً ، إن ميرل تعرف معنى ذلك ، فالعمة ماريت تريد إبقاءهم عندها دائماً .

أتفقد أطفالها ؟ ... أتسلمهم إلى الآخرين ؟ أسجل اليوم الذى لا بد أن يقع هذه الحبل على أكتافهم أيضاً ؟

ولكن لا بد من التعاقبهم بالمدرسة ، لا بد أن يتعلموا ، على الأقل ، ما يحملهم أكفاء لكسب رزقهم عند ما يكبرون . وإذا كان أبواهم لا يستطيعان أن يتيحا لهم الذهاب إلى المدرسة ، فلعلهما لا يكون لهما عندئذ حق الاحتفاظ بهم ؟

وظلت ميرل تعمل بإبرتها ، وترفع رأسها من حين إلى حين لتقع أشعة الشمس على وجهها .

عجبا لتألق الثلج -- إنه يتألق كالأرجوان تحت فيض أشعة الشمس الحمراء وبدأ على أية حال أن همومهما خف حملها اليوم قليلاً ، وكأنما كان في قلبها شيء متجمد بدأ الآن في الذوبان .

وكانت لويز تتقدم في المرف على الكنان ، وامل الطفلة تستطيع في يوم من الأيام أن تخرج إلى العالم ، وتحقق النجاح الذى حلمت أمها بتحقيقه سدى .

وتردد في الممشى صوت خطوات مسرعة ، فجفلت وجلست في توجس . أهو يعود هائجاً مأثجاً ؟ أم يائساً ؟ أم أن رأسه قد عاوده ؟ ... وفتح الباب .

— وجدتُها الآن يا ميرل .. وحق الآلهة جميعاً لقد حدث آخر الأمر شيء أيتها
للرأة الصغيرة !

ونَهَضت ميرل من مقعدها نصف نهوض ، ثم سقطت فيه ثانية ، محدقة في
وجه زوجها .

وعاد يقول :

— وجدتُها هذه المرة يا ميرل ، وكيف بالله لم تخطر الفكرة على بالي قط من
قبل .. في حين أنها في بساطة نزع قشرة البازل !

وتنشى الآن في الغرفة وهو يضع يديه في جيبه ويصفر .

— ولكن ما الأمر يا بير ؟

— كنت أقطع خشب الوقود كما ترين ، وأسراب من آلات الحصاد تُغر في رأسي
أزيراً طوال الوقت .. تسع ملايين من تلك الآلات تعلق الحشائش في مقصها وتعوقه
عن العمل . وبللى عرق بارد .. أحسست أني أسير إلى جهنم رأساً . ثم خطرت لي
الفكرة في ومضة .. ومضة من ومضات الصلب ، وهذا يعني نجائنا يا ميرل ، نجائنا .

— أوه ، أرجو أن تفصح حق أستطيع أن أفهم قليلاً ما تقول .

— ما ذا ، ألا ترين الأمر ! .. كل ما هو مطلوب « فرشاة » من صلب ، صغيرة
متحركة ، توضع فوق المقص لتدفع الحشائش بعيداً ، فيظل المقص نظيفاً . صحيحاً .
لهذا كله ، إن طفلاً يستطيع تبين هذا . أقسم لك أيتها المرأة الصغيرة أن الأيام توشك
الآن أن تتغير بالنسبة لنا .

ووضعت ميرل ما يحوكه في حجرها ، وتركت يديها تتساقطان .

آه لو كان هذا صحيحاً .

— سأحضر آلة الحصاد إلى هنا يا ميرل ، ولن أجد صعوبة أبداً في صنع الفرشاة
وتثبيتها في موضعها .. وفي وسمى أتم ذلك في يوم واحد بـدكان الحداد هنا .

— ما ذا ! .. إنك حاولت ذلك محاولة أفضل من هذه ! .. لقد بدأت الآن
تحسن قليلاً ، وهأتذا تريد أن تفسد ذلك كله ثانية !

— إنى لن أشقى أبداً يا ميرل ما دامت هذه الآلة الجهنمية تتأرجح فى رأسى بين
النجاح العالمى والإخفاق . إنها تضغط ذهنى بعثل ثقل الرصاص ، وإن أظفر فى ليلة
من الليالى بنوم مناسب حتى أتحلص منها . أوه يا إلهى الكبير .. لو أن الزمن يتغير
يوماً ما .. . حتى بالنسبة لنا ! حسناً ! أنظنين يا ميرل أنى إن أشقى لدى حلول
ذلك اليوم !

وتركته يضمها هذه المرة بين ذراعيه . ولكنها جلست ساكنة بعد انصرافه ،
مترقبة غروب الشمس وراء سلسلة الشلال ، وظلت كذلك حتى كلت عيناها ،
وثقلت أنفاسها .

وبعد أسبوع ، عند ما كانت الشمس تلمتهب فوق أسطح المنازل البيض ، جاء المهر
الأشهب إلى راستاد وهو يحجر عربة تحمل صندوقاً ضخماً . وفى نفس اليوم التقطت
الآذان صوت المطرقة والمبرد فى أثناء عملهما بركان الحداد .

وما أهمية بضع ليال يقضيها الآن ساهراً ؟ ولا يرجع سبب نفضيتها ساهراً إلى
القلق .. ذلك أن الأمور الآن تسير سيراً حسناً .. بسبب الأحلام .. وقد أخذ
كلاهما يحملان .. اشتريا لورينج من جديد ، وهما يلوftان مرة أخرى بغرف القصر
الفسيحة المضيئة ، ويتمتعان بالسلام والسعادة التامة ، أما الأيام المشثومة الماضية فهى
أحبه بكابوس مضى وانقضى . وسيمود لهما شبابهما مرة أخرى ، وسيتجولان منزلقين
معاً على الجليد ، ثم يتعشيان بعد ذلك ؟ ويشربان الشبانيا ، ويتبادلان النظرات
بعيون تفصح عن الحب ، وسيكرران ذلك مرة أخرى .. ثم مرات أخرى عديدة ..

— مساء الخير ، يا ميرل .

— مساء الخير يا بير ، واستمتع بنوم طيب .

واستمر الطرق فى دكان الحداد يوماً بعد يوم .

ومنذ بضع سنوات ماضية كان يستطيع أن ينتهى من هذا العمل كله فى يومين .
ولكن نصف ساعة يقضيها اليوم فى العمل تكفى لإنهاك قواه . وإنه لعمل يرهقك

إذا ركزت أفكارك في نقطة واحدة بينما اعتاد ذهنك خلال مدة طويلة أن يتلهى عابثاً بتصورات شاطحة وهي تمن له .. ووجد بير أيضاً أن هناك عيوباً تحتاج إلى إصلاح في الأجزاء التي ظنها من قبل لا نقص فيها . ثم إنه لم يعد له مساهمون الآن ، وليس له مسبك يستمد منه السبائك ، وعليه أن يصهر كل قطعة يحتاج إليها بيديه ، مستعملاً أدوات بدائية .

وأية أهمية لذلك ؟

وبدأ ينظم ذهنه ، وينكر على نفسه كل فكرة لا ضرورة ويرخي ستائر سوداً على كل نافذة من نوافذ وعيه ، ما عدا نافذة واحدة .. هي المعلقة على آلة الحصاد . وكان بعد قضاء نصف ساعة في العمل يأوى إلى فراشه ليسترخ .. يغمض عييه خسب ، ويسترخ — هذا أيضاً كان ضمن التنظيم — ويغمر عقله كله بالظلام ليوفر قواه استعداداً للنصف الساعة من العمل في اليوم التالي .

هل ميرل خائفة وقلقة ؟ إنها على أية حال لم تنبس بكلمة عن العمل الذي استغرق بير كل هذا الاستغراق ، فقد كان مضطرباً بما فيه الكفاية وهو على ما هو عليه من حال . وهي لم تعد الآن تنظر إليه حق نظرة تأنيب عند ما يغضب ويحتمد على الأولاد ، فإن عليهم ، هي وأولادها جميعاً ، أن يحتملوه .. فمما قريب سينتهي هذا كله .

وكانا كلاهما يبدوان أحياناً وهما يتجولان في الليالي القمرية الصافية بعد أن يأوى أولادها إلى فراشهم .. كانا يسيران وكل منهما يطوق خصر الآخر بذراعه ، ويتحدثان بصوت عال ، ويستغرقان في الضحك ، ويغنيان في بعض الأحيان . وقد يسمع للمارة في الطريق رنين الضحك والغناء فيقولون لأنفسهم : « هذا الصوت صادر إما من سكران ، وإما من الزوجين اللذين يقطنان في البيت الكبير .

وتقدم الربيع ، وازدادت الأيام إشراقاً .

ولكن في معرض « هامار » الزراعي ، حيث جرت تجربة آلة الحصاد ، وجد المحكمون أن هناك آلة حصاد أخرى لمنافس أمريكي تفضلها . ورأى جميع الحاضرين

أن الأمر غير طيبي ، فحق أن الفكرة لم تسرق مباشرة من بير ، فما لا شك فيه أن آلة حصاده هي التي أوحى بها . فالمبادئ المتبنية في كلتا الحائتين واحدة ، ولكن الآلة الأمريكية كانت تتميز بتحسينات متعلقة بتنفيذ تلك المبادئ تكفي للشك في وجود أية فائدة في رفع دعوى خاصة بحقوق الاختراع .. ويضاف إلى ذلك أنه ليس من السهل اليسور على رجل لا يستند إلى مال ، أن يقاضى شركة أمريكية غنية .

كان بير على وشك أن يفوز في السباق الجبار بين المتنافسين في العالم أجمع على إنتاج أحسن آلة . لقد تسلى رجل آخر عربته ، وقفز في اللحظة الأخيرة فسبقه بوضع خطوات ، وعلى ذلك فاز بالجائزة .

وما دام النجاح لا تشوبه شائبة في ذاته ، فالعالم لا يسأل مأخوذاً بالفضول الشديد أتتحقق هذا النجاح بوسيلة شريفة .

وليس ثمة فائدة من البدء في إنشاء شركة مساهمة لاستغلال آلة جديدة في حين توجد آلة أفضل منها في الميدان .

لقد أخذ الصلب بتلايب بير ، واتخذ لوحاً للقفز من فوقه إلى الأمام ، ولكن حسن الجزاء كان مقدراً لرجل آخر .

الفصل الخامس

هر أنهوج الابن . وكيل شركات « الأقمشة » الصوفية الانجليزية ، خرج من
القطار في يوم حار من أيام يوليو ، ووقف لحظة على رصيف المحطة وهو ينظر فيما
حوله .. إن المنظر باهر دون ريب . وهذا الوادى الجميل هو الوادى الذى تقيم فيه
أخته منذ أكثر من عام .. هو رائع — ورغم ذلك ، لسبب ما ، لم يبد أنه أفاد
صهره فائدة تذكر . حسناً ، حسناً .. ومضى الشاب السرى ، النظيف الثياب ،
مبجماً على قدميه شطر « راستاد » ، سائلاً بين الحين والحين عن الطريق المقصود .
لقد أراد أن يفاجئهم بحضوره . ففي رينجيبى انعقد مجلس عائلى اتفقوا فيه على ضرورة
تسوية الأمر تسوية حاسمة لتأمين مستقبل أخته وزوجها اللذين ساءت حالهما على نحو
ميثوس منه كل اليأس .

وإذا عرج على الطريق الجانبي المؤدى إلى الضيعة فطن إلى رجل يجر عربة يده
مملوءة بالأحجار وهو يرتدى قميصاً بلا سترة .. ماذا ؟ .. وخطر له : —

أيمكن أن يكون مخطئاً ؟ لا .. فلما لاشك فيه أن الرجل هو بير هولم — بير هولم ؟
يحمل أحجاراً على عربة ، ويجرها إلى أسفل التل شيطاً كما لو أنه يتقاضى أجراً عن
كل خطوة بخطوها .

ولم يكن « الوكيل » ممن يرثون للناس ويواسونهم ، وصاح :

— هاللو ! أنت تعمل بجد ، أليس كذلك ؟ أرى أنك اشتغلت بالفلاحة .

ووقف بير منتصب القامة ، ومسح يديه فى سرواله ، وأقبل صوب القادم . وقال
أوتنهوج لنفسه : « يا لله ! كم تقدمت به السن ! » ولكنه عاد فقال بصوت مسموع .
« حسناً ، إنك تبدو فى حالة مناسبة . وكان يصعب على أن أعرفك ثانية . »

ولمخهما « ميرل » كليهما من نافذة المطبخ وصاحت : « ماذا ، وإنى أعتقد .. »
وخرجت من البيت راكضة . وكانت لم ترأى فرد من أهلها منذ زمن طويل ،

ففسيت وقارها ، ولم تمض لحظة حتى كانت تطوق عنق أخيها وتحتضنه .

لا ، لم يأت أوتهورج الابن بالنأ كيد حاملا في جعبته الرثاء والمواساة ، فقد حمل في حقيقته زجاجة من النبيذ الجيد . وملاً منها السكؤوس في أثناء العشاء ، وشاركها كليهما في الشراب . وحدثهما عن المسارح ، والملاهي المتنوعة ، وحاكي الممثلين المشهورين إلى أن حمل المخلوقين المسكينين المرهقين على الضحك ، فلا بد أنها كانت في حاجة إلى ليل من المرح والضحك . . آه ، لقد علم عن يقين إلى أى مدى لها لا بد محتاجان إلى ذلك .

ولكنه علم أيضاً أن ميرل وير على أحر من الجمر في انتظار الوقوف على ما قررت به الأسرة بشأن مستقبلهما . إن الأيام التي سلاخاها هنا من حياتهما كانت مشثومة محزنة ، ولكن كل ما يؤملانه الآن هو أن يتيسر لهما التمكن من البقاء على هذا النحو ، فلو أن المعونة التي تلقيها حق اليوم انقطعت عنهما فإنه لا يصبح في وسعهما البقاء هنا أو الذهاب إلى مكان آخر ، فماذا يستطيعان عندئذ أن يفعلا . . ؟ فلا عجب إذن أن يساورهما الجزع وهما يجلسان هناك .

وخرج لينمشي مع بير بعد العشاء في حين انتظرت ميرل في البيت قلقة ، فقد أدركت أن مصيرهما سيتقرر في أثناء انتظارها .

وعادا آخر الأمر . . وقد أدهشهما أن يعودا ضاحكين .

وحياها أخوها متمنياً لأمساء طيباً ، وطبع قبلة على جبينها . ، وربت ذراعها ، وكان الرفق نفسه مجسداً . وصعدت به إلى غرفته ، وودت لو جلست هناك برهة وتحدثت إليه ، ولكنها كانت تعلم أن بير ينتظر الانفراد بها ليفضى إليها باللبا الذي يخصهما من قريب جداً . وقالت لأخيها :

— طبت مساء يا كارستين .

وهبطت إلى الدور السفلى .

وحدث أخيراً أن جلست هي وبير معاً وحدهما إلى مائدة الحياكة بالقرب من

النافذة . . قالت ميرل :

حسناً ؟

— إن الأمر على هذا النحو يا ميرل : إذا كانت لدينا أية شجاعة على مواجهة الحياة .

فينبغي لنا أن نواجه الواقع على صورته الحقيقية :

— نعم ، يا عزيزى ، ولكن خبرنى . .

— الواقع هو أنى لا أستطيع الالتحاق بأية وظيفة وصعق على ماهى عليه الآن . .
من المؤكد أنى لا أستطيع ذلك . وما دام الأمر كذلك فقد يكون بقاؤنا هنا مثل
بقائنا فى أى مكان آخر .

ولكن هل فى وسعنا أن نبقى هنا يا بير ؟

— نعم ، إذا كان فى وسعك أن تعيش مع مهمل تعمس مثلى . . إن هذا لسؤال
وجيه بالطبع .

— أجبنى . . . هل نستطيع البقاء هنا ؟

— نعم ، ولكن قد تمر سنوات يا ميرل قبل أن أصبح صالحاً للاضطلاع بالعمل
مرة أخرى . . فينبغى أن نحسب حسابنا على ذلك ، وأنا لا أستطيع أن أحتمل ،
بل لن أحتمل العيش عاماً بعد عام معتمداً على الإحسان .

— ولكن ما الذى نصنعه إذن يا بير ؟ فيبدو أنه ليست ثمة وسيلة أستطيع به
كسب أى مبلغ من المال .

— وأجاب مظلماً النافذة :

— بوسعى أن أحاول أنا ذلك على أية حال .

— أنت ؟ أوه ، لا يا بير ، فإنك حتى إذا تمكنت من الالتحاق بوظيفة رسام ،
فمينالك لا تستطيمان احتمال ذلك أبداً . .

وقال بير :

— أستطيع أن أقوم بأعمال الحدادة .

وحلت فترة صمت . وتطلعت إليه ميرل دون قصد وكأنها لا تمكاد تستطيع تصديق أذنيها . أيمن أن يكون جاداً ؟ أقدر للمهندس الذي بنى قناطر النيل أن ينحدر فيتحول إلى حداد ريفي ؟

وتنهدت ، ولكنها شعرت بأنها ينبغي ألا تثبط عزيمته . وقالت آخر الأمر في جهد :

— لعل ذلك يساعد على إزجاء الوقت ، وقد تجد السبيل إلى نوم أهدأ .

وأطلت من النافذة وهي تطبق شفيتها في شدة .

— وإذا قلت بذلك يا ميرل استظمتنا البقاء في هذا المنزل . وبيت كبير مقام على مثل هذه الأرض هو في الواقع واسع بالنسبة لنا على أية حال . . . حينئذ لا يكون عندك خادمة تساعدك .

— ولكن أنعرف بيتاً أصغر من بيتنا نستطيع استئجاره ؟

— نعم ، هناك مسكن صغير للبيع تتبعه أرض تبلغ مساحتها زهاء فدان أو فدانين . سفلو كانت لنا بقرة وخنزير وعدد من الدواجن ، واستظمتنا الحصول من الأرض على أردب أو أردبين من القمح ، وتمكنت أنا من كسب بضعة شللات في الأسبوع من دكان الحدادة ، استحال تشردنا على أية حال . وأنا أستطيع مواصلة المهام الصغيرة التي أكلف بها . . . واشتغالي بهذه التوافه يفيدني في الواقع . . . فما رأيك في هذا ؟

ولم تجبه ميرل ، فقد دارت بعينيها ، وتطلعت من النافذة شاخصة البصر .

— ولكن هناك مسألة أخرى يا ميرل . . . مسألة خاصة بك . . . أتريد أن تنحدرى معي إلى مثل الحياة ؟ . . . أنا سأكون في حال جيدة ، فقد عشت وأنا صبي في مكان يطابق المكان الذي أحدثك عنه تماماً . ولكن ماذا عنك أنت ؟ أقول لك صادقاً يا ميرل أني أرى أنه لم يكن ينبغي أن أطلب منك ذلك الطلب .

وبدا صوته يرتجف ، وأطبق شفتيه ، وتحاشى نظراتها .

وحلت فترة صمت ، ثم قالت آخر الأمر :

— وماذا عن المال ؟ كيف تشتري البيت ؟

— وعدنى أخوك أن يدبر لى قرصاً ، ولكفى أعود فأقول باميرل . . إن لى ألومك بحال إذا أنت آثرت الذهاب إلى عممتك والإقامة معها فى بروسيت . ويخيل إلى أنها ستتهج لوجودك معها ، وبوجود الأولاد أيضاً .

وعاد الصمت فساد لحظة أخرى . ثم قالت :

— إذا اشتمل ذلك الكوخ على غرفتين لاقتين ، استطعنا أن نجد بهما راحة كافية . وسيدون الاعتناء بهما أسهل كما تقول .

وانتظر بير قليلاً ، فقد كان هناك شيء فى حلقه يمنعه عن الكلام . وقد أدرك الآن أنه لابد من التسليم ، دون مناقشة ، بأنهما ينبغي ألا يفترقا . واحتاج إلى قليل من الوقت للتغلب على أثر هذا الاكتشاف .

وجلست ميرل فى مواجهته ، ولسكن عينيها دارتاً صوب النافذة على نحو ما كانتا من قبل . وهى لا تزال تحتفظ بنفس حاجبيها الجليين الأسودين ، ولكن وجهها ذبل وبلى ، وظهرت خيوط بيض فى شعرها .

وأخيراً تكلم ثانية :

— وعن الأطفال يا ميرل . .

وشرعت تقول :

— الأطفال . . ماذا عنهم ؟

هل حل أخيراً الأمر الذى ظلت تخشاه كل هذه المدة الطويلة

— أرسلت العممة ماريت كلمة للسؤال هل نسمح لأخيك أن يصطحب لويز إليها

لتقيم معها ،

— واندفعت ميرل قائلة :

— لا ، لا ، لا يا بير . إنك رفضت ذلك من فورك بالتأكد . . . إنك لن تدعها تذهب بالتأكد ، فأنت تعلم ما تعنيه رغبتهم في ضجها إليهم هناك .

وأوماً قائلاً :

— أنا أعلم ذلك . ولكن هناك سؤال آخر : هل لنا الحق ، من ناحية مصلحة لويز نفسها ، أن نرفض طلبهم ؟

وصاحت ميرل وهي تهب واقفة ، وتدق يداً بيد :

— بير ، ينبغي ألا نطلب إلى ذلك . وأنت نفسك لا ترضى بتنفيذه . إننا لم نصل إلى هذا الحد بالتأكد . . . حد البدء في إرسال . . . في إعطاء . . .

وتأوهت :

— لا ، لا ، لا . . . أسمعني يا بير ؟ أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك .

وقال وهو ينهض ، ويرغم نفسه على التحدث بهدوء :

ليكن ما تريد يا ميرل . ونحن على أية حال نستطيع التفكير في الأمر حتى موعد سفر أخيك غداً . . . إن للأمر جانبين اثنين ، فالسبيل الأول قد يؤلنا الآن ، في حين أن السبيل الثاني قد يكون أمراً كبير الأهمية بالنسبة للويز ، العزيزة المسكينة .

وذهب بير وميرل معاً إلى غرفة الأطفال في صباح اليوم التالي عند ما حان موعد استيقاظهم . وتوقفا عند فراش لويز ، وانحنيا ينظران إليها . وكانت الطفلة قد نمت نوماً كبيراً منذ مجيئهما إلى راسنار . وهي ترقد الآن وأنفها مدفون في الوسادة ، وشعرها الأصفر يحجب خدها . وتستغرق في نوم هادئ آمن إلى حد كبير . فهذا البيت ما زال بيتها ، وبقاؤها مع أبيها وأُمها أوفر أماناً من بقائها في أي مكان آخر في الدنيا بأسرها .

وقالت ميرل وهي تهزها :

— لويز ، حان وقت تيقظك يا عزيزتى .

وجلست الطفلة فى سريرها وهى لا تزال بين اليقظة والنوم ، وتطلعت فى عجب إلى الوجهين . . ما الأمر ؟ . وقال بير :

— هيا أسرعى وارتندى ملايسك . تصورى ! . . . إنك سترحلين اليوم مع خالك « كارسنتين » لنزورى عممتك « ماريت » فى « بروسيت » ، فما رأيك فى هذا ؟

وتيقظت الصبية الصغيرة تماماً فى هذه اللحظة ، ووثبت فى التو من فراشها لتبدأ فى ارتداء ملابسها . ولكن كان هناك شيء يلوح على وجه أبويها كبح جماح فرحتها قليلاً .

ودار همس كثير بين الأطفال فى ذلك الصباح . ونظر أخواها اللذان يصغرانها بمعينين متسائلتين إلى أختيهما الكبيرتين التى سترحل . وأعطاهما لورتنز حصانه تذكاراً ، وأعطتها أستا دميتهما الصغرى . وراحت ميرل هنا وهناك تحاول أن تقنع الأطفال أن لويز سترحل فى زيارة قصيرة فقط ، وأنها ستمود عما قريب .

ومع حلول وقت الغداء كانوا قد أعدوا حقيبة سفر صغيرة ، واندفعت لويز هنا وهناك ، وهى فى أحسن ملابسها ، تودع جميع أهل الضيعة ، وجاء إليها الحصاد الذين ساعدتهم على نقل الدريس إلى دورهم . . . جاءوا يودعونها وداعاً عاطفياً خاصاً . وكانت آخر زيارة قامت بها هى زيارتها لموسين ، الحصان الأشهب الذى وقف يرعى وهو مربوط وراء دكان الحداد . . . وكان موسين مشغولاً بقضم السكلا ، ولكنه رفع رأسه فحسب ، ونظر إليها . . . فنزعت حفنة من الحشائش ، وقدمتها إليه ، وبعد أن تولى أمر تلك الحشائش مسحت فمه وتركها تتعلق برقبتة لحظة . وصاحت وهى تمود ثانية إلى الغناء دون أن توجه قولها إلى شخص معين :

— سأكتب إليكم دون شك .

وتحرك القطار خارجاً من المحطة ، مقلاً أوتهورج الابن ، ولويز ،

في حين أخذ كل منهما بلوح بيده من إحدى نوافذ الديوار .

وترك القطار بير وميرل واقفين على رصيف المحطة ، ممسكين بولديهما الأصغرين من يديهما . وكان لا يزالان يستطيعان أن يريا يداً صغيرة تلوح بمنديل أبيض من عربة القطار . ثم توارت آخر عربة خلف المنحنى ، ولم يبق من القطار إلا دخانه وجلبته .

ومضت مدة قصيرة على الأربعة الذين تخلفوا وهم واقفون دون حراك . ولكن بدا أنهم انسحبوا دون وعى وقد ازداد كل منهم التصاقاً بالآخرين .

الفصل السادس

على درب صاعد ، متفرع من الطريق العام ، يقع منزل ذو طابق واحد ، وثلاث نوافذ على صف مستقيم ، وهناك سقيفة لإيواء بقرة في أحد جانبيه ، ودكان حداد في الجانب الآخر . ويقول الجيران عندما يتصاعد الدخان من ذلك الدكان : « لا بد أن تكون حال المهندس قد تحسنت تحسناً ضئيلاً اليوم مادام أنه عاد ثانية إلى العمل بدكانه وإذا كان لديك شيء تريد إصلاحه خير لك أن تذهب به إليه ، فهو لا يتقاضى أجراً يزيد على ما يتقاضاه « جينز » المقيم بعيداً في « ليبيا » .

وكانت ميرل وبر قد أمضيا هنا عامين عاشا خلالها على وفاق ، ولكن حدث أن اختلفا فيما يأتي : ظلت ميرل تتطلع إلى وجه زوجها ، مؤملة دائماً أن تتحسن حاله ، في حين أنه لم يعد له هو نفسه أى أمل في ذلك . وحتى حينما كانت ضربات المطرقة التي تدق في رأسه تهدأ بمض الوقت لم يخل الأمر غالباً من مضايقة ما ، تساوره من ناحية ما ، وتجعله يظل يمانى العذاب ، وإن كان لم يعد يتحدث قط عن ذلك . . . كان يتطلع إلى وجه زوجته ويقول لنفسه : « إنها تتغير تغيراً يتزايد على الدوام ، وأنت الملوم على ذلك . . . أنت لم تفعل شيئاً لتصب شقاءك على رأسها ليل نهار ، وقد آن لك اليوم أن تحاول إصلاح بعض خطئك . » وهكذا بدأ الصراع ليحتفظ بالصمت ، ويحتمل ويضحك إن كان ذلك مستطاعاً ، حتى حين يشعر في قرارة نفسه برغبة في البكاء . وكان ذلك عسيراً كل العسر ، لا سيما في أول الأمر ، ولكن كل توفيق حققه في هذا العدد عاد إليه بارتياح معين أمدته بقوة تمكنه من استئناف الصراع من جديد .

وقد تعلم ، على هذا النحو أيضاً ، أن ينظر إلى مصيره وهو أكثر هدوءاً . وأخذ مزاجه يزداد انشراحاً ، وأصبح كأنه نصب طوله ، ونظر إلى شقائه وجهاً لوجه قائلاً . « نعم ، أنا أعلم أني لا أملك الدفاع عن نفسي ، وأنتك تستطيع أيضاً أن تنوص بي إلى هوة أعمق وأعمق ، ولكنني إذا اخترت أن أغضبك ، مع ذلك كله ، فليس في وسعك أن تحول بيني وبين ذلك . »

وكم بدت الأمور كلها أيسر بكثير الآن وهو لا ينتظر أى خير يصيبه ، ولا يلح في مطالبة أى كائن في الأرض أو في السماء بحق له عليه . ولكنه عندما يصيبه التعب من عمله في المصنع كان يجد راحة في قوله لزوجته : « لا ، يا ميرل ، ألم أقل لك إنك لن تضطرى إلى حمل الماء بنفسك إلى البيت ؟ أعطنى الدلو » . « أنت ؟ . . إنك تبدو قادراً على حمله ، أليس كذلك ؟ » « ماذا تقولين ! أنا رجل ، أم لا ؟ . . عودى إلى مضجعتك فهو مكان المرأة . » وعلى ذلك صار ينقل الماء إلى البيت ، وازداد مزاجه بذلك انشراحاً على الرغم من أنه قد يشعر أحياناً بأن ظهره يتحطم . وقد يقول في بعض الأحيان : « أشعر اليوم بالكسل يا ميرل ، وسأبقى في الفراش مدة أطول قليلاً إذا كان ذلك لا يضيرك . وكانت تدرك ما هنالك ، فهي تعلم بالخبرة أن هذه هى الأيام التى يصيبه فيها صداع كالكابوس ، وأنه يسمى تبعه كسلاً ليوفر عليها الانزعاج .

وأصبحت لها الآن بقرة وخنزير ، وبعض الدواجن ، ولم يكن ذلك على نطاق ما كان لها في لورينج تماماً ، ولكن ميزة الحال الجديدة أنه يستطيع رعاية حيواناته بنفسه . وقد جنينا في العام الماضى قدراً كبيراً من البطاطس إلى حد أنها استطاعا أن يبيعا منه بضعة قناطير . وهما لم يعودا يشتريان البيض قط ، بل أصبحا يبيعا نه أو كان بير يحمله بنفسه إلى التاجر المحلى ، ويبيعه إياه بسعر السوق ، ويشترى بالثمن يشاء قد يكونان في حاجة إليها . ولم لا ؟ ولم تكن ميرل تعتقد أنه ليس من مقامها أن تغسل الملابس ، وتحك الأرض ، وتطهو الطعام . وفي الحق إن الأمور كانت مختلفة بالنسبة لها في وقت ما ، ولكن ميرل هى وحدها التى تعاودها الآن لحظات تعلم فيها بإمكان عودة الأيام السالفة من جديد . وفيما عدا ذلك كانت الحال بالنسبة له ولها على السواء كما لو أن البحر ألقى بهما على شاطئ مقفر ، وأصبح عليهما أن يحاولا العيش خلال الأيام المعجاف على خير نحو مستطاع .

وقد يحدث أحياناً أن يرسل أحد الفلاحين إلى دكان الحدادة آلة حصاد من الطراز الأمريكى الجديد بقصد إصلاحها ، وعندما يحدث هذا كان بير يطبق شفثيه بقوة ويرسم وعلى وجهه تعبير غريب ، وينظر إلى الآلة لحظة ، ويتلعث شيئاً في حلقه . . . إن الرجل الذى سرق هذا الشئ منه ، وأدخل عليه تحسيناً طفيفاً لا يكاد يذكر ، أصبح الآن بفضل ذلك صاحب ملايين دون أدنى ريب .

وكان قيامه بتلك الإصلاحات يكلفه شيئاً من الجهد ، ولكنه اعتاد أن يخفى رأسه ويشرع في العمل ، فيرل ، البنت الطيبة ، في حاجة إلى حذاء .

وكان أحياناً أيضاً ينصرف عن السندان والظلام في داخل الدكان ، ويخرج إلى عتبة الباب ليستنشق نسمة من الهواء ، وهنا كان يطل على النهار . . . النهار الكبير المريض الخاوي .

إن رجلا يملك المطرقة بيديه يرفع ناظريه إلى السماء بالفطرة . وقد ورث هذه الفطرة عن جدوده الأقدمين الذين جاءوا للناس بالنار والأفكار ، وعلمهم التمرد على الأقدار .

وتطلع بير إلى السماء ، وإلى السحب التي تجرر أذيالها عبرها محدثة ضوضاء لامعة لها . . . أهو تورد هناك في الأعلى ؟ ولكن السماء خالية ليس فيها شيء تتمرد السحب عليه .

ولكن ثمة جميع المظالم ، ومختلف الشرور . . . منذ الذي سبها قب مرتكبها ؟ من ؟ هناك أحد يقوم بذلك ؟ . لا .

ماذا ؟ . . . فكر في الملايين من الشهداء الذين يتمتعون إلى كل جلس ، الشهداء الذين ماتوا تحت وطأة أعنف تعذيب دموي ، وهم مع ذلك في مثل براءة أطفال يرقدون على صدور أمهاتهم . . . هناك من يعوضهم بما عانوه ؟ . . .

لا . . .

ولكن لا بد أن يكون هناك عالم يكتظ بضحايا الظلم الذين تسبح أرواحهم في مختلف الأرجاء متحلبة لأن أصحابها ماتوا تحت وطأة عار لا يستحقونه . . . لأنهم خسروا معركة كانوا فيها أصحاب الحق . . . لأنهم تمذبوا وناضلوا في سبيل الحق ، ولكنهم سقطوا في الميدان لأن الباطل كان الأقوى . . . الحق . . . الصواب . . . أليس هناك أحد يمنع السلام في يوم من الأيام لأولئك الأموات في قبورهم ؟ ويضع الأمور في نصابها ؟ هناك أحد يضطلع بذلك ؟

إن العالم يجرى في مجراه ، والقدر أعمى . . . القدر يبتسم ، والشيطان على
عليه إرادته .

صه أيها الأبله ، واقبض يديك على مطرقتك ، فإذا حدث ووسع وعيك العالم بأسره
فإن هول ذلك سيصرعك . . . تذكر أنك حيوان ذو سلسلة فقرية ، وأنتك طورت
روحك خطأ .

وتوالت دقات المطرقة ، وتطير الشرر من السندان . . . عش حياتك على نحو
ما هي عليه .

ولكن بدأ يندب في نفسه ميل غريب للانضمام إلى جميع أولئك الأشقياء الذين
سحقهم القدر دون تبصر . . . وجمع شملهم لا في سبيل النواح الجماعى على أنفسهم ،
ولكن في سبيل النصر الجماعى . . . لا في سبيل الأخذ بالثأر ، ولكن في سبيل أغنية
حمد وتسبيح . أنظري أيتها القدرة الأبدية كيف تقابل قسوة الحياة بمحمد الحياة . . .
أنظري إلى أى حد نحن منطوروون على صورتك .

معبد . . . معبد لروح الإنسان العصرى الجائع إلى الخلود . . . معبد ، لا لمجرد
ترتيل صلاوات محفوظة ، ولكن لتوجيه نشيد مجادل إلى السماء ، منبعث قلب
إنسانى كريم . . . فهل يحين وقت ذلك ؟ . . . هل يبنى ذلك المعبد فى يوم
من الأيام ؟

عاد بير من مكتب البريد إلى بيته مساء يوم من الأيام وقد بدا عليه الانشراح :
« هيه يا ميرل ، لقد تلقيت رسالة من سيدة بروسيت .

ونظرت ميرل إلى لورينتز الذى اقترب منها بدافع الغريزة ، وكان يرمق أباه .

وسألت ميرل زوجها :

— من بروسيت ؟ وكيف حال لويز ؟

وقرأت ميرل الرسالة على عجل ، وتطلعت إلى لورينتز من جديد .

وفي هذا المساء جلس الأب والأم ، بعد أن أوى ولداهما إلى فراجهما ، وطفقا يتحدثان بصوت منخفض .

واضطرت ميرل إلى الاعتراف بأن زوجها كان على حق ، فالاختفاظ بابنهما هنا إثارة لنفسيهما ، في حين أنهما إذا سمعاه بالذهاب فقد يصبح وارثاً لبروسيث .

ولنفرض أنه بقي ، وعمل تحت إشراف أبيه ، وتعلم حرفة الحدادة ؟ . . إن أيام الحدادين مضت وانقضت . . فالمصانع تؤدي العمل كله اليوم .

وأى علم مدرسى يستطيع أن يتلقنه هنا في الريف ؟ لقد عرضت العمدة ماريت أن ترسله إلى مدرسة صالحة . . . وهكذا نفذ فيه المقدور هو أيضاً .

ولكنهما عندما ذهبا بالاعلام إلى المحطة لتشجيعه لازم منديل الأم عينيهما طوال الوقت ، مع كل ما بذلت لتجلبد .

وعلى أثر عودتهما إلى البيت اضطرت إلى ملازمة فراشها ، في حين تجول بير هنا وهناك مترعماً باغنية في مهمة وهو يمد عشاء خفيفاً ، ويحمله إلى جانب فراشها . وصاحت قائلة :

— لست أفهم كيف تحمل الأمر بهذه السهولة ؟

وضحك ضحكة غريبة إلى حد ما :

— لا ، لا ، فلعلنا كلما أقللنا من الكلام في هذا الصدد كان ذلك خيراً لنا .

ولكن ، في صباح اليوم التالي ، كان بير هو الذي قال إنه يشعر ثانية بالكسل ويريد أن يرقد مدة أطول قليلاً . ونظرت إليه ميرل ، وأخذت تمسح جبينه بيدها .

ومرت الأيام . وأجهدا نفسيهما في العمل ليميشا في حدود دخلهما دون الاستعانة

بأحد . وقتما بقبول الأمور على ملاتها . وعندما شرعا في تشييد معمل كبير للزبادي بالقرب منه ربح قدرآ وفيراً من المال نظير بناء المصنع ، وهو لم يتعال كذلك عن شغل مثقاب لعمال الطرق . وكان كثيراً ما يرى متجهاً إلى متجر البسطة ، مرتدياً صدرية ذات أكام ، حاملاً على ظهره مزوداً ، وكان يرفع رأسه عالياً ، وقد أخذ لون لحيته المعتنى بتعشيطها يتحول إلى لون أبيض . وكانت لوجهه في أغلب الأحيان تلك الهيئة المبهدة الناشئة من الأرق ، ولكنه كان خفيف الخطوة ، وظل يجد نكتة يسميها للفتيات اللواتي يقابلهن .

وكان جيرانهما غالباً ما يرونهما في الصيف يغلقان البيت ، ويبدأن الصمود في التل وهما يحملان مزوداً ، و بريقاً لصنع القهوة ، في حين كانت آستا الصغيرة تمدو بينهما . ولعلهما كان يعضيان إلى التل في محاولة لاسترجاع ذكريات الأيام الحالية ، وبذلك يصنع القهوة في الهواء الطلق على النار التي توقد في النزه الحلوية .

وفي الخريف ، عندما تصبغ الحقول الشاسعة جوانب التلال بصفرتها ، كانت لير وميرل خطتهما الخاصة بهما ، البادية ذهبية أيضاً . فسمعة العيش انكسرت انكساراً غير قليل بالنسبة لهذين الزوجين ، وأصبح أردب القمح الآن شيئاً كثيراً في نظرها وإذا جاء محصول البطاطس أقل قنطارين من القدر الذي توقعاه صدمهما ذلك صدمة شديدة . ولكن ربات البيوت الفاضلات في المزارع المجاورة كثيراً ما كن يجئن إلى ميرل ليُشاهدن كيف أبقَت بيتها الصغير مشرقاً نظيفاً . وهى الآن ، إذ لم يصبح عندها أحد يماونها ، نجد مع ذلك وقتاً تلتقن فيه الفتيات الريفيات شيئاً عن الطهو والحياكة .

ولكن عادة واحدة سيطرت عليها ؛ فهي قد تقف طويلاً طويلاً إلى جانب النافذة حيث تطل منها على الوادى الذى تحصره التلال . وبدأ كأنها تبحث دون انقطاع عن شيء سوف يلوح لها ، شيء لا بد أن يمود عليهما بأيام أفضل ، والوقت الذى تقف فيه هناك وتطل وتتنظر كان عندها أشبه بنوع من أيام الآحاد .

ومرت الأيام . . .

الفصل السابع

عزيزى كلاوس بروك ،

أكتب إليك لأخبرك بما حدث لنا أخيراً هنا ، ويحدوني على الأخصى أمل في أن تجد بعض السلوى فيما أكتب . ذلك أنى اكتشفت يا صديقي العزيز أن أحزاننا الدنيوية هذه شيء يستطيع الإنسان أن يتغلب عليه فيما إذا تعلم فقط أن ينظر بعينييه هو نفسه لا بعيني الآخرين .

قد يقول أغلب الناس إن الأمور واظبت على أن تسير ، بالمحبة لى ، من سيء إلى أسوأ ، وأنا إن أزعج بالتأكد أنى أشعر بميل إلى العذاب فى ذاته ، فهو ، على العكس ، يؤلم ولا يرفع قدر الإنسان ، بل يثير وحشيته ، إلا إذا اشتد إلى الحد الذى يحتمل منه جميع الأشياء . . . لقد كنت ذات مرة مهندساً محشولاً عند الشلال الأول ، وأنا الآن حداد فى أبرشية ريفية . . . وهذا يؤلم النفس . وقد حيل بينى وبين القراءة بسبب عيني ، كما حيل بينى وبينى الاتصال بالناس الذين تبيع عشرتهم المتعة ، ومرجع ذلك إلى أن مثل أولئك الناس لا وجود لهم هنا . كل ذلك مؤلم حتى إذا وصل بك الحد إلى اعتياده . . . إن هذا فى ذاته ليس بالأمر الطيب . وقد خطر ببالى مراراً أننا بلغنا قرار منعطف البؤس ، ولكن كان يتضح دائماً أن الأمر ليس إلا ثلعة ، وأعمق الأعماق لا يزال فى الطريق إلينا . . . فأنت تعمل حتى حين يحس رأسك كأنه ينصدع . وأنت توفر كل دبوس ، وكل عود ثقاب ، ونجد برغم ذلك أن للخبز الذى تأكله طعم إحسان المحسنين ، وهذا يؤلم . وأنت تقطع الأمل فى إمكان تحسن الأمور يوماً من الأيام . . . أنت تفقد كل أمل . . . كل حلم . . . كل إيمان . . . كل وهم . . . لا شك أنك وصلت إلى نهاية كل شيء . . . ولكن لا ، فان جذور وجود الإنسان ما زالت باقية ، إن أضمن شيء فى هذا كله ما زال باقياً . . . وإنك لتسأل : ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء ؟

هذا هو ما سأحدثك عنه .

إن الشيء الذي حدث إنما حدث في نفس الوقت الذي بدأت فيه الأمور تبدو بالنسبة لنا أبهج قليلاً . فمُنذ وقت قليل مضى خف اضطراب رأسي ، وشرعت في صنع محراث آلي جديد . . . عودة ثانية إلى الصلب ، فهو لا يدع الإنسان مستريحاً أبداً . . . وأنت تعلم ما يراه الإنسان في شيء كهذا من إمكانيات لا حصر لها . وكانت ميرل تعمل بشجاعة متجددة . . . ما رأيك في زوجة كهذه ؟ تتحمل المحنة بمحض إرادتها الحرة ، وتروح تشارك رجلاً مفلساً في حياته ؟ أرجو أن تلتقي بامرأة كهذه في يوم من الأيام . لقد أخذ شعرها يشيب حقاً ، وأخذ وجهها يتجمد ، ولم تعد طلعتها معتدلة على نحو ما كانت في وقت مضى ، واحمرت يداها وتشققتا . بيد أن هذا كله له روحه الخاص ، له جماله الخاص في عيني ، لأنني أعلم أن كل تجمع هو علاقة تركها الزمن عندما حلت بنا محنة جديدة ، ووجدتنا مرتبطين معاً . ثم إنها تبترسم في يوم من الأيام وقد أصبحت مجعدة مفعمة بالحزن ، بيد أنها تعود إلى ثانية بالأيام التي كانت السماء والأرض تلتفحاننا كليهما بالأنفاس الباردة ، فيشتد التصاق كل منا بالآخر طلباً للدفء . إن سمادتنا وعذابنا صاغاها على النحو الذي هي عليه الآن . ولعل العالم يظن أنها أخذت تتقدم في السن . ولكننا بالنسبة لي ليست إلا أجمل مما كانت من قبل .

وأنا الآن مقبل على ما كنت سأفضي به إليك . . . أنت تدرك أنه لم يكن بالأمر الهين علينا أن نبعد وادينا عنا ، وورود رسائل منهما يتوسلان إلينا فيها أن ندعهما يمودان إلينا لم يحملنا أحسن حالا . ولكننا لا نزال نحفظ بطفلة صغيرة بقيت لنا ، هي آستا التي بلغت الخامسة أخيراً . وكم أود لو أنك استطعت أن تراها . فأنت إذا كنت أبا ، وجعلتك أعصابك المذبذبة في كثير من الأحيان خشناً جائراً مع أخويها اللذين يكبرانها ، فانك ستحاول - أليس كذلك ؟ - ستحاول إصلاح الأمر بأسباب عطفك القلبي على الطفلة التي بقيت لك ، وهي آستا - أليس ذلك بديعاً ؟ تصور مخلوقة صغيرة لفعتها الشمس ، ذات شعر أسود ، وحاجبين كعاجبي أمها ، مشغولة دائماً بعرائسها ، وبجلب الخطب للبيت ، أو خبز الكعك لأبيها في الوقت الذي تعد فيه أمها الخبز لنا جميعاً ، أو الثرثرة مع العصافير فوق سطح البيت ، أو الفناء بين الحين والحين لا شيء إلا لأن نعمة نعمة موسيقية شاردة طرأت على ذهنها . وعندما تشغل أمها بحك الأرض كان لا بد أن تمسك آستا الصغيرة بمخرقة مبتلة وتحملها وراء ظهرها ، وتنعدر تحت أحد المقاعد حتى تقع في ورطة شديدة ، ثم تصاب بصدمة ،

وتصرخ هذبة ، ولكنها سرعان ما كانت تنطلق راكمضة وتغنى لنفسها شاعرة بالسعادة من جديد . وعندما تعمل في دكان الحدادة يتراعى إليك وقع خطوات صغيرة ، وصوت يقول « أبى ، تعال لتناول العشاء ؛ وتمسك بك يد صغيرة ، وتقودك إلى الباب : « هل تغسل لى رأسى الليلة يا أبى ؟ » أو « هاهى ذى منشفتك يا أبى . » ورغم أن طعام العشاء قد لا يزيد على البطاطس واللبن فإنها كانت تقبل على الأكل وكأنها تجلس إلى وليمة من أكبر الولائم ، « أليس البطاطس واللبن هما طعامك المفضل يا أبى » وهى تقطب لك جبينها مأخوذة بحماسة أسنانها . وفى المساء كانت تنام فى صندوق موضوع عند طرف فراشنا . وعندما أتمدد على الفراش وأنا أكابد الأرق كان غالباً ما يملؤنى تنفسها الخفيف الهادىء بالهدوء أنا أيضاً ، وكانت يدها الصغيرة كأنها تمسك يدي وتقودنى إلى النوم نفسه . . . إلى نوم جميل ، قد سى .

والآن ، وقد وصلت إلى ذكر الشيء الذى حدث ، أجد شيئاً من الصعوبة فى الكتابة . . . ويبدى بدأت ترتجف . ولكن آمل أن يكون لك أنت أيضاً بعض العزاء فى ذلك على نحو ما يحقق لميرل ولى فى آخر الأمر .

وكان الجاران الملاصقان لنا صانع آنية نحاسية وزوجته . . . وهما رقيقا الحال مثلنا . وعلى أثر مجيئنا إلى هنا قصدت جارى لأتحدث إليه ، ووجدته مخلوقاً شقيماً جاف الطبع ، يتسكع هنا وهناك بأحماضه ، ويحصل على رزقه ببذل قصارى ما فى وسعه . فهو يلحم المعادن ، « ويبيض » الآنية النحاسية والقصور . . . وسألتى وهو ينظر إلى شذراً : « ماذا تريد ؟ » . وسمعتة يعلق بابه بالزللاج ورأى وأأسفاه ، لقد كان خائفاً . . . خائفاً من أن أختطف منه لقمة الخبز التى يتبلغها يومياً وكانت زوجة كتلة من العظم العريض ، واللحم المسكتنز ، وقعة فى معاملتها إلى حد كاف برغم أنها أودعت السجن أخيراً بسبب إغرائها الإجرامى لفتاة انتهت بها الحال إلى الوقوع فى محنة .

وفى صابح يوم أحد كنت واقفاً أنظر إلى بعض من أشجار التفاح المزدهرة فى حديقته . وكانت إحدى تلك الأشجار قريبة من السياج إلى حد أن أفرعها تدلت ناحية حديقتى ، وأنحنيت لأشم زهرها . ثم سمعت صبيحة على حين فجأة : « هيه ، يا نمر ! أمسك به ! » وإذا الكلب الذئب الضخم الذى يملكه النحاس ينحدر إلى

واثباً متهيباً للانقضاض على عنقي ، وكنت حسن الحظ إذ استطعت أن أمسك بطوقه قبل أن يلحق بي أى أذى ؛ وجررته إلى صاحبه وأخبرته أنه إذا تكرر وقوع شيء كهذا فسأضطر إلى إرسال ضابط المركز في إثره ، ثم بدأ العزف الموسيقى ، فقد أطلق العنان لنفسه دون ضابط ، وصارحنى برأيه في : « أمسك لسانك أنت أيها الصعلوك اللعين الذى جاء يأخذ لقمة الحبز هنا من أفواه العاملين الشرفاء . » واسترسل في قول من هذا القبيل وهو يطلقه خجلاً ، ويلوح بساعديه في الهواء ، وخيل إلى آخر الأمر أنه يتحسس هنا وهناك بحثاً عن سكين ، أو شيء يقذف به رأسى . ولم أعمالك نفسى من الضحك . . . لقد كانت مشاحنة من طراز جسم بين قوتين كبيرتين في عالم المنافسة .

وبعد مرور يومين على ذلك سمعت صرخة من زوجى وأنا واقف في مصنع الحداثة ، فاندفعت إلى الخارج — أى أمر يمكن أن يكون هذا ؟ وكانت ميرل قد وصلت وقتئذ إلى سياج الحديقة ، ورأيت ما هناك في لحظة واحدة — كانت آستنا ممددة هناك تحت جسم حيوان هائل .

ثم . . . حسناً ، لقد أخبرتنى ميرل فيما بعد أنى أنا الذى انتزع الحيوان وأبعده عن رزمة الملابس التى كانت تحته ، وحمل طفلتنا الصغيرة إلى البيت .

والطبيب يصبح على الأغلب ملاذاً طيباً وقت الحنة . ولكن على الرغم من أنه قد يخطط تخطيطاً غير منتظم خياطة متقنة كل الإثقان ، فليس من الضروري أن يؤدي ذلك إلى مساعدة المصاب مساعدة فعالة .

بیه أنه كانت هناك أم تأبى أن تدعه ينصرف — أم تبسكى وتصلى ، وتعلق به ، وتتوسل إليه أن يحاول مرة أخرى فيما إذا كان يستطيع أن يصنع شيئاً . وعندما انصرف أخيراً ظلت متشبثة بالانطلاق وراءه وزحفت على الأرض . ومزقت شعرها — لم تستطع ، ولم تشأ أن تصدق ما كانت تدرك أنه حقيقة لامراء فيها .

وفي ذلك اللحاء كان هناك أب وأم يجلسان معاً ، ويحملان على نحو غريب في الفضاء الممتد أمامهما . . . كانت الأم هادئة الآن ، والطفلة مزينة معجزة وجلس

الأب إلى جانب النافذة ، مطلاً منها . وكان ذلك في فصل الربيع ، والليل رمادي الإهاب .

والآن كنت أنا الذي أدرك كيف أن الحزن الكبير يذهب بنا إلى مسافة أبعد وأبعد من قمة الوجود . وقد وصلت أنا اليوم إلى النقطة القصوى — حيث لا شيء بعدها .

وقد وجدت أيضاً ، يا صديقي العزيز ، أن سنوات الشقاء العديدة هذه لم تصبني على شكل واحد ، ولكن على عدة أشكال : فإني كنت توجد داخل كياني مادة يتشكل منها أشخاص عديدون مختلفون كل الاختلاف ، وقد تم الآن بهم ، وصار في وسعهم أن ينفصلوا عن كياني ، ويسلكوا سبلهم المتعددة .

رأيت رجلاً يندفع إلى جوف الليل وهو يهز قبضته متوعداً الأرض والسماء . . .
رجلاً مجنوناً أبي أن يواصل تمثيل دوره في المهزلة ، ولذلك اندفع منحدرأ صوب
النهر .

ولكني أنا نفسي جلست هناك ساكناً .

ورأيت رجلاً آخر ترك حبله على غاربه — هو مخلوق ناتس التكوين . . .
زاهد ذليل أشيب ، طأطأ رأسه ، وانحنى تحت ضربات الشياطين وقال : « فلتكن مشيتك يا ربّي . . . الله أعطى ، والله استرد ما أعطى . . . » . مخلوق يستدر الشفقة
انسِل تحت جناح الظلام وتواري .

ولكني أنا نفسي جلست هناك ساكناً

جلست وحدي فوق قمة الوجود ، وقد خرجت الشمس والنجوم من نطاقها ،
وحل فراغ بارد كالثلج فوق ، وحول ، وداخل نفسي ، وفي كل جانب من الجوانب .

ولكن حدث بعد ذلك يا صديقي أن لاح لي بالتدريج أن ثمة شيئاً لم ي زال باقياً ،
ففي كياني شعلة صغيرة جامحة بدأت تتوهج من تلقاء نفسها ؛ وخيل إلي أنني نقلت

ثانية إلى أول أيام الوجود ، وانبعثت في نفسى إرادة أبدية وقالت : « فليكن هناك نور ! » .

هذه الإرادة هى التى نمت فى نفسى شيئاً فشيئاً ، وجعلتنى قوياً .

وبدأت أشعر بإشفاق لا يوصف على جميع أهل الأرض ، بيد أنى أصبحت آخر الأمر فخوراً بأنى واحد منهم .

وقد أدركت كيف أن القدر الأعمى يستطيع أن يجر دنا من كل شيء ، ويسلبنا كل شيء ، بيد أنه ، رغم ذلك ، سيبقى فينا حتى النهاية شيء ما لا تستطيع أية قوة فى الأرض أو فى السماء أن تقهره . لقد قدر لنا أن نموت أجسادنا ، وتنطفئ أنفسنا ، ولما كننا مع ذلك سنظل نحمل داخل أنفسنا الشعلة ... منجدة فى سبيل الوجود ، وفى سبيل الله ، جرثومة تأسق ونور لامتناهين .

وأدركت الآن أن الجوع الذى همرت به خلال أجل سنى حياتى ، لم يكن جوعاً إلى العلم أو الجاه أو الغنى ... لا ولا أن أصبح قسا ، أو مخترعاً كبيراً فى عالم الصلب ، لا ، يا صديقى ... بل إلى بناء معابد ؛ ولست أقصد تلك المعابد التى تشيد لإقامة الصلاة ، ولا تلك السكنائس التى تشيد لينوح فيها الآثمون النادمون . ولكن أقصد معبداً لروح الإنسان فى كامل عظمته حيث نستطيع أن نرفع أرواحنا بالتسبيح هدية إلى السماء .

وأنا لا أستطيع أن أقوم بذلك الآن ، ولعله لم يمد ثمة شيء أستطيع أن أقوم به أبداً . وعلى الرغم من ذلك يخيّل إلى وأنا جالس هناك أنى انتصرت .

وما حدث بعد ذلك ؟ حسناً ، لقد حل بنا جفاف رهيب استمر طوال الربيع ، وتلك هى الحال فى هذا الوادى غالباً . فريح الشمال التى لا تنقطع عن الهبوب حملت إلينا الأنربة الناعمة الجافة ، مكتسحة السحب من أنحاء الريف كله ، فأصبحنا مهةدين ، فى حالة عدم سقوط الأمطار بأسوأ سنة من سنى القحط .

وجازف الناس آخر الأمر ببذر حبوب القمح ، ولكن الصقيع حل عندئذ ، وتراكت الثلوج ، وتساقط البرد ، فتجمدت الحبوب فى الأرض . وكان جارى

النحاس قد زرع بقعة أرضه شميراً ... ولكن أصبح عليه الآن أن يزرعها من جديد ، ومن أين يحصل على البذور ؟ وأخذ يتنقل من مزرعة إلى أخرى مستجدياً بعض الحبوب ، ولكن الناس كانوا يعتقدون رؤيته بعد الذي حدث بشأن آستا ، ولم يقبل أحد أن يعيره شيئاً منها ، ولم يكن يملك نقوداً لشراء ما يريد . وشيعة الغلمان في الشوارع بصيحات الاستهزاء ، وتحدث بعض الجيران عن طرده من الأبرشية .

ولم أستطع أن أنام كثيراً في الليلة التالية أيضاً . ونهضت من فراشي عند ما دقت ساعة الحائط دقتين ، وسألتني ميرل :

— إلى أين ؟

وقلت لها :

— أريد أن أرى هل بقي لدينا نصف « بوشل ^(١) » من الشعير .

— شعير ؟ ... وما حاجتك إلى الشعير ونحن في منتصف الليل ؟

وقلت :

— أريد أن أزرعه في أرض النحاس ، والأفضل أن أفعل ذلك الآن حتى

لا يعرف أحد أني أنا الذي قام بهذا .

وجلست في فراشها وحملت في :

— ماذا ؟ أرض ... النحاس ؟

وقلت :

— نعم ، فنعن ان نفيد شيئاً ، كما تعلمين ، إذا رأينا قطعة أرضه منبسطة جرداء

طوال الصيف .

(١) البوشل يبلغ زهاء أربع كيلات .

— إلى أين أنت ذاهب ؟

وقلت :

— إن أخبرتك بما اعتزم .

وخرجت ، ولستى كنت أعلم أنها ترتدى ملابسها ، وتقصد الحى ، هى أيضاً .

وهطل المطر فى أثناء الليل ، وكان الهواء رقيقاً مستساغ الاستنشاق عند ما خرجت من البيت ، ولم يزل النهار منبسّطاً فى لون رمادى ، ونور باهت ، تتخلله ومضات منبثقة من السحب التى روجها الريح فى الشمال . وفاح الهواء برائحة الأغصان المزهرة ، وحرمت الغربان والزرانير فوقى وحولى ، ولستى لم يكن هناك آدمى واحد تقع عليه العين . كانت المزارع مستغرقة فى النوم ، وكذلك كانت أرجاء الريف كلها .

وحملت الذور فى سلة ، وتسلفت سباح الجار وبدأت أغراس الحب . ولم تدم من البيت علامة نهر عن وجود أحياء فيه . وكان صاحب المركز قد أتى فى اليوم السابق وأطلق النار على الكلب فأرداه قتيلاً . ولا شك أن الحساس وزوجته كانا يرقدان مستسلمين للنعاس ، وللهما كانا يحلمان بأعداء يحيطون بهما ، ويحاولون ما وسعوا أن يبلحقوا بهما الأذى .

أهناك يا صديقى العزيز أية حاجة إلى ذكر باقى ما حدث ؟ ومع ذلك فلا بد فقط كيف أن رجلاً ما قد سبب مملسكة بأسرها ، ولا يكفه ذلك شيئاً ، فى حين قد يمتد بضع حفنات من القمح ، ولا يعنى ذلك بالنسبة له أنه ذهب كل ما عنده وحسب ، ولكنه يعنى تمرضه لنضال وانفعال لا حد لهما قبل أن يستطيع حل نفسه على تقديم هذه الهبة ... أتظن أن هذا يعد هباءً ؟ .. أما بالنسبة لى فإنى لم أقدم على ذلك فى سبيل المسيح ، أو لأنى أحب عدوى ، ولأنى أشعر بمسئولية كبيرة وأنا واقف على أنقاض حياتى ... فعلى الإنسان أن ينهض ، وأن يفضل قوى الأقدار المعياء التى تفرض وسائلها ، وعليه ألا يغيب عنه ، وهو محاط بالحزانة ، أن النفعة الإلهية فيه

لآتوت ، إن شجرة الأبدية توجت مرة أخرى بين جوانحي وهنتت ، فليكن هناك نور .

وبدأت آف شيئاً فشيئاً ففكرت أن الإنسان مقروض عليه أن يبعث هو نفسه كل ما هو مقدس في الأرض والسماء ... وأن هذا هو حيل انتصاره على سيطرة الوجود الكافة الأنفس .. ولذلك خرجت من بيتي ، وغرزت حبوب القمح في حفلة حتى أبعث النبتة الإلهية .

آه لو أنك عرفت هذه اللحظة ! ... حدث كأن الجو امتلأ بالأصوات فحدث فيه الحياة ، وكأن جميع المنكودين الذين رأيتهم وعرفتهم جاءوا يلازموني ، وأزاد عدد من جاءوا في أطراف ، ولحق بنا الأموات أيضاً ... جيش أقبل من أزمنة مضت ... أزمنة موعلة في القدم . وجاءت أخق لوز ، وعزفت نشيدها ، وحملت الأصوات كلها على أن تغني غناء جماعياً ، غناء الأحياء والأموات ... غناء البشرية قاطبة . انظر ، إننا هنا جميعاً ... أخواتك وأخوتك ، ومصيرك هو مصيرنا . لقد قذف بنا قانون الوجود غير المبالي إلى حياة لا نستطيع تنظيمها وفق مشيئتنا : لقد دمرنا الظلم والمرض والحزن ، والنار والدم . وحتى أسمعنا جميعاً لا مفر له من الموت ، وهو في ذات بيته إنا يعلم فيه بمجرد زيارة . وهو لا يعلم أبداً إلا أن قد يرسل في غده . وبرغم ذلك يتنسم الإنسان ، ويضحك في وجه مصيره الفاجع . وقد ابتدع الجمال على وجه الأرض وهو في صميم عبوديته ، وكان له فائض كبير من النشاط الروحي ، وهو وسط عذابه ، إلى حد أنه يمت هذا النشاط مشعاً متغلباً إلى أعماق الفضاء ، فأدناها بعقيدته وإيمانه بالله .

كم أنت رائع ، يا روح الإنسان ! وما أشبهك بصورة الخالق في طبيعتك ! إنك تحصد الموت ، وفي مقابل ذلك تزرع حلم الحياة الأبدية وإنك تملأ الوجود بحب الخالق المعبود اقتصاصاً من قدرك المشوم .

إننا احتملنا دررنا في هذا الوجود ونحن الذين أصبحنا جميعاً الآن تراباً ، ونحن الذين غصنا في الظلام وانطفأنا انطفاء اللهب ، وقد بكينا وطرنا ، وشعرنا بالمشوة والمذاب ، ولكن كل واحد منا جلب أشعثنا إلى خضم النور الهائل كل واحد

منا ؛ ابتداء من الزنجي الذي وضع أول نصب على قبر فقيدته إلى العبقري الذي رفع
أعمدة أول معبد صوب السماء . لقد احتملنا دورنا جميعاً ابتداء من الأم للسكنية التي
تصلي بجانب مهد طفلها ، إلى الجماعات التي ترفع أناشيد الحمد عالية إلى النخس
الذي لا يحد .

لك المجد يا روح الإنسان . إنك وهبت الدنيا روحاً ، وجعلت لها هدفاً ...
إنك أهدرت دماً إلى مرتبة التناسق ، لذلك عد إلى نفسك ، وارفع رأسك ، وقابل
الشكر الذي تصدق في اعتزاز ... قد يستحقك الشقاء ، وقد يحولك الموت من الوجود ،
بيد أنك لازلت على الرغم من ذلك أبدأ لاتقهر .

صديقي العزيز ، هذا هو ما شعرت به ... وأريد أن أقت بزراعة القمح ،
وعدت (أدراجي ،) كانت الشمس تطل من فوق كنف التل ، وميرل تقف إلى
جانب السياج ناظرة إلى ، وقد أنزات مندليها إلى حاجبيها على طريقة الفلاحات حق
تظلل وجوهها ؛ ولكنها ابتسمت لي . وكأنا هذه الأم المصابة قد وجدت هي أيضاً
من خضم عذابها حتى تستطيع هنا ، وقت بزوغ النهار أن تضطلع بنصيبها في بعث الله
في القلوب ؟

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

Library4Arab.com

دار الطباعة الخيرية

٦ كنيسة الخيرية - أول شارع الخيرية
٨٩٦٩١ - ٩٠٨٢١٨